الطبعة الرابعة

الإرهابي ٢٠

عبدالله ثابت

رواية

دار الساقي

«هذا كتابٌ اجتهدت ألا أصنّفه. قصدت منه أن تعرفوا زاهي الجبالي، هذا الذي كان احتمالاً أكيداً لتمام الـ ١٩ قاتلاً في سبتمبر أميركا، فهو الإرهابي الـ ٢٠. وكان احتمالاً أوثق لتمام قائمة الـ ٢٦، فهو الإرهابي الـ٢٧ في السعودية، واحترت كثيراً في الطريقة التي أقدّم بها هذين الاحتمالين، وأخيراً رأيت أن يمضي العمل هكذا عفواً، فَسَحته لزاهي، يتحدّث عن نفسه، على طريقته، التي لا أسمّيها!»

«... لا أجد دليلاً يقود إلى أعماق الظاهرة أفضل من الكتاب النادر جداً «الإرهابي ٢٠» للإنسان النادر جداً عبد الله ثابت.»

غازي القصيبي

«... ليتنا نقرأ هذا النصّ كما هو عليه. فهذا الشاب لم يبيضّ شعره لأنه طاعن في السنّ بل لأنه طاعن في تجربة كنا نحسبها خاصّة بأبطال الأعمال التراجيدية الكبرى.»

معجب الزهراني

عبد الله ثابت شاعر وقاص سعودي. من مؤلّفاته «الهتك»، «النوبات... تالفٌ بمضغ عصبه»، «CV حرام»، «كتاب الوحشة». ترجمت روايته «الإرهابي ٢٠» إلى الفرنسية.

DAR AL SAQI



ISBN 978-1-85516-680-6
9 781855 166806

تصميم الغلاف: ماريا شعيب
خطوط العناوين: علي عاصي

عبدالله ثابت

الإرهابي ٢٠

رواية



بيروت ـ لندن

الطبعة الأولى، دار المدى، ٢٠٠٦
الطبعة الرابعة، دار الساقي، ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-680-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١‏٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١‏٠
e-mail: info@daralsaqi.com

أهدي كتابي إلى:

- أرواح القتلى العاتبين..
تعبنا من العتمة.. اصفحوا عنا، ربما يعود الصباح

- الإنسان..
ألق مظلتك، واخلع نعليك.. تعال نمشي تحت المطر

- نبضي الجديد،
أرضي التي جُبلتُ على رائحتها في ثياب أمي،
وطني، يا أقدس لثغةٍ بفم صغيرتي..
عش أبداً، ولتحرسني ملائكتك

الإرهابي٢٠

دواري هذا:

كتبت هذا العمل بين ١٩٩٩ - ٢٠٠٥

هذا كتابٌ اجتهدت ألاّ أصنفه. قصدت منه أن تعرفوا زاهي الجبالي، هذا الذي كان احتمالاً أكيداً لتمام الـ ١٩ قاتلاً في سبتمبر أميركا، فهو الإرهابي الـ ٢٠. وكان احتمالاً أوثق لتمام قائمة الـ ٢٦، فهو الإرهابي الـ ٢٧ في السعودية، وحرت كثيراً في الطريقة التي أقدم بها هذين الاحتمالين، وأخيراً رأيت أن يمضي العمل هكذا عفواً، فَسَحته لزاهي، يتحدّث عن نفسه، على طريقته، التي لا أسمّيها!

عبد الله ثابت

زاهي الجبالي

كتب زاهي الجبالي:

بدء..

من أنا؟ وكيف صرت أنا أنا؟ ماذا أريد؟ وأين أقف؟ وإلى أين أتجه؟ وأيّ الأوقات والأمكنة حملتني وسافرت بي حتى هذه اللحظة، التي أشرع فيها في حفر ملامحي بإزميلٍ من صدق على هذه الأوراق، التي لربما كان لها شأن ذات يوم؟

للصدق وحده فهي تبدأ مني، وتنتهي إليّ، وقد لا يكون لها من شأنٍ عند أحدٍ غيري. سأكتفي باحتفالي بها، على طريقتي عندما أرفع ريشة القلم عن آخر كلمةٍ بآخر سطر. وحدي سأشتري كعكةً صغيرةً وشموعاً وزجاجةً جميلةً محرمة. سأكوّم أوراقي هذه على المقعد المقابل. وسأرفع صوت الموسيقى بالمقدار الذي يليق بتلك الساعة، ووحدي سأرقص وأشعل السجائر وأشرب الأقداح، وسأطلق حينها كل الشتائم التي أحفظها والتي لا أحفظها، وسأنشد كل القصائد التي أحفظها والتي لا أحفظها، سأفعل كل هذا وأكثر.. وأكثر. تماماً كذلك الذي يحتفل بعيد ميلاده، وحيداً في بلادٍ لا يعرف فيها أحداً، ولا يتكلم إلا اليسير من لغة أهلها.

أحبّ أن تبدأ الأشياء بالأسئلة، وتنتهي بالأسئلة، وما بين هذا الحشد من علامات الاستفهام، في البدء والخاتمة، يليق بالمرء أن يقول إنه قد أنجز عملاً طيباً، لأن أسئلته تلك قد ولدت عالماً جديداً من الأسئلة الأعمق والأدق، فاللعنة على الإجابات وعلى كل الذين يجعلون إجاباتهم نهاياتنا!

ليس أن نتساءل عن كأسٍ: ما هي، كأن نتساءل عن شخصٍ ما: من هو، ولا عن لغزٍ في هذا الكون، ولا عن خلقٍ أو حقيقة أو، أو، أو، حتى لا تنتهي الأشياء!

حسناً.. سأبدأ من المكان والوقت، الرحم التي تتوالد منها الأقدار والقصص والحكايات المؤلمة، وتلك الأخرى الجميلة، وتلك الجميلة والقبيحة في آن!

١

المكان..

أفكر: ترى لماذا يفكر كل الذين يكتبون شيئاً عن حياتهم أن يصفوا الأماكن التي درجوا عليها، وجالوا في أزقتها، واختلطت دماؤهم بمائها وهوائها، وتداخلت طبيعتها معهم حتى شكلت نفوسهم بشكلها؟ إنهم يفعلون ذلك، تجاه أمكنتهم، لأن الإنسان انعكاسٌ لها، يحمل تفاصيلها، ويتشكل على طريقتها..

إذن.. لقد حدث كل ما بهذه الأوراق في مكانين، أولهما قريتي، والثاني مدينتي، أبها، على أنهما لا يمكن أن تكونا مكانين مختلفين، بل مكاناً واحداً فقريتي ومدينتي لا يفصل بينهما شيء، وهما على رأس هذه القمم الشاهقة، تقتسمان مساحةً مختصرة ملونةً بالخضرة والمياه، مزدانةً بالغيم والضباب والبرد، لا يكاد يغيب عنهما المطر بضعة أيامٍ حتى يعاود ترتيب ملامحهما من جديد.

لا يليق بأبها إلا أن تكون قريةً مهما ملأوها بأعمدة الضوء والبنايات والشوارع الاسفلتية والمتاجر والأسواق. إنها قريةٌ على طريقة المدن، مثل الفتاة الريفية التي ألبسوها ثياب المدينة إلا أنهم لن يستطيعوا تغيير جسدها الريفي.. وهكذا أكون جبلياً مرتين!

أحكي عن الناس هنا . .

عن طباعهم، ثقافتهم، كيف يتكلمون. . وكيف هي الحياة عندهم. وأعلم أن الأمر لا يبدو عابراً، فالحديث عن الناس اقتحامٌ يشبه القفز من مكانٍ عال، والقفز ساعتئذ إما أن يكون عملاً بهلوانياً، يلم المتفرجون كلهم أفواههم ليصفروا تعجباً وإعجاباً، وإما أن يكون ارتماءً على الصخر. لن يكون وقتها من مصير طيب، ولا من عجبٍ ولا إعجاب!

العسيريون طيبون ولا يمكنهم أن يكونوا سيئين هكذا دونما سبب، دون أن يضطرهم أحد إلى جنون غضبهم، حادون متوترون على الدوام، لا يبرح عنهم قلقهم ولا ارتباكهم. على قدرٍ من الأنفة والكبرياء، يبدو أحياناً مدعاةً للضحك، ففلان ظل سنين عدداً يروح ويغدو بالقرب مما يريده ويشتهيه، فيمنع عينيه حتى عن رؤيته، إذ يشعر أن في هذا انتقاصاً لمكانته وقيمته!

القمم التي يسكنونها عبأتهم بمزاجية الريح والأشباح والحيرة والسؤال، فهم شيء من ريح، وشيءٌ من سؤال، وشيءٌ من حيرة، وهم متحرقون كشمسها، شفافون كضبابها، قاسون كصقيعها، مخيفون كغيمها. كانت الطبيعة إذا ثارت وعربدت ما بينهم بالأمطار والصواعق والعواصف تمازحوا في ما بينهم «نشهد أن مطر ربي عسيري»!

الكلمة التي تمس كبرياء أحدهم مبررٌ كافٍ عنده ليقترف القتل، فابن هذا المكان يعيش ليزهو، ويزهو فحسب، وبأي شيء، وهذا الذي يقتل لكلمة، هو ذاته الذي تهزمه كلمة أخرى، فيبكي ويعود مهتوك النفس والوجدان! هنا لا تطيح رؤوسهم

السيوف ولا البنادق كما تطيح رؤوسهم وقلوبهم كلمةٌ من حبيبٍ خان أو تنكر!

إحساسهم تجاه العار إحساس عنيف جداً، عنيف حدّ أن يقدم الواحد منهم على التخلص من حياته، إذا ما لحق به عارٌ ما، والعار هنا يطال أشياء، لكثرتها لا تنتهي، فمس الوجه، مثلاً، كارثة لا يمكن أن تمر هكذا دونما دم، وإذا ما اشتبك اثنان هنا فإن كلاً منهما يفكر كيف يصل إلى وجه الآخر ليخدشه أو يترك به أثراً يكون علامة انتصاره عليه وهزمه للأبد، فإذا ما فعل أحدهما ذلك فإنه لا بد من قتيل، إما أن يقتل المخدوش نفسه، وإما أن يقتل ذاك الذي هزمه، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ولا تقف الأحاديث عن هذه العراكات، وعما وقع فيه فلان، وعما زلت فيه قدم الآخر، وأحدهم مشت قصته في القرى الجنوبية كلها. . قتل نفسه لأن بطنه غلبه، فأخرج الريح وسمع الناس من حوله الصوت، فما كان منه إلا أن استل خنجره وطعن نفسه!

هذا يعني أنهم على نزوع قبليّ، فثاراتهم وحروبهم ومعاركهم لا نهاية لها، وأيما أسرةٍ لا قتيل بها في معاركنا فإنها أسرةٌ وضيعةٌ في أعرافهم، وأيما مسّ بأحدٍ من أبناء القبيلة يعدونه مسّاً بالقبيلة كلها، يستوجب تغريم خصومهم أو حربهم!

يحبون هنا، وتبدأ كل حكايات الحب إما من نبع الماء، وإما من المرعى وإما حتى من لقاءٍ عفويٍ ما بين بيوت الطين، أو خلف صخرةٍ ضخمةٍ أو حائطٍ أو بستان، والحب عندهم شيءٌ لا يتحدثون عنه إلا في شعرهم، الذي يتتبعون لأجله الأعراس،

فيأتون ليتناشدوا حكاياتهم وآلامهم وفقدهم وحرمانهم ممن يحبون، ولربما عرّض بعضهم بمن يحولون بينه وبين فتاته، فما أن يفهم المقصود حتى يهب المعنيون إلى خناجرهم أو بنادقهم!

إنهم على هذا القدر الضخم من العاطفة، هم المصدقون الصادقون، ولو أن أصحاب الدعوات، الذين لم ينجحوا، جاؤوا إلى هذه القمم فأعلنوا بها آراءهم وخلاصاتهم لوجدوا رجالاً يبذلون لهم الحياة هكذا عفو الخاطر، دونما مبالاةٍ أو اكتراثٍ لقتلةٍ أو ميتة!

العسيريون مولعون بالطرب، مفتونون بالغناء والرقص، وأي قريةٍ من قراهم لا شاعر فيها فهي قريةٌ بائسةٌ ناقصة، لأن الشاعر في القبيلة كلها موضع التقديس والاحتفاء من الجميع، والحدّاؤون في الزواجات والمناسبات أكثر الرجال شهرةً وحضوراً، والناس هنا يحفظون القصائد الطويلة، لاسيما قصائد الحب والحرب!

فالعسيريون أيضاً مزروعون في حقلٍ من الشيم والقيم فهم كل ما يمكن تخيله من الفروسية والنبل والرجولة! كرام، أجل هم كذلك، كرام حد الضحك، حد أن يعيش أحدهم، طول حياته، بائساً محتاجاً لأنه أدمن الضيوف. أدمن هذه الولائم التي يعجبه أن يقف على رؤوس أضيافه، وهم على الطعام، ثم يستحلفهم بالله ألا يكفوا أيديهم عنه ونفوسهم تشتهيه!

لهم قوانينهم التي لا يتنازلون عنها في حياتهم.. يأتي على هرمها أن المال موجودٌ في هذه الحياة ليصون الوجه، فكل ما يمكن أن يفتدي به المرء هنا كبرياءه وقيمته ومكانته من مالٍ أو حتى بنين فإنه لا يتردد في أن يبذله لتبقى له صورته، التي يعجبه

أن يسمع كلام الناس عنها وهم يرددون «إن فلان دعا آل فلان إلى وليمةٍ لم تسمع بها هذه القرى ولا هذه الأودية!» و«إن فلاناً أتى على كل ما يملك ليفتدي به حمى نفسه وآله!»، فإذا ما حلّ بالقرية ضيفٌ آتٍ من قريةٍ أخرى جمع كل من في القرية ما يستطيعونه ليسعفوا أهل البيت المضيف، هؤلاء يأتون بالسمن، وأولئك بالدقيق، وهكذا.. فالضيف عندهم ليس أبداً ضيف بيتٍ واحد، إنه ضيف المكان كله، ثم يتباهون ويتفاخرون بما يقدمونه له، حتى إذا عاد إلى أهله وناسه حدثهم عن كرم أهل هذه البقعة، وأنهم لا يجاريهم أحد!

يحدث أكبر من هذا حين يتزوج أحدٌ من قريةٍ أخرى، فينفجر التمظهر، الذي يبقى حديث الناس لشهورٍ فيما يأتي بعده من الزمن. تذبح الخراف، وتقدم الصحاف من الخبز والسمن والعسل، ويتبادلون الهدايا الثمينة، ويغالبون فاقتهم ليكون لكبريائهم حظها ونصيبها من مدائح الشعراء في القرى المجاورة!

الناس هنا في الجنوب أكثر الناس ترابطاً وألفة، وأكثرهم خصاماً ونفرة، ففي جنوبنا إذا اختصموا فلا يلتقون حتى الموت، ومتى ائتلفوا لا يفترقون حتى الموت. إنهم بلا توسط في المشاعر!

إذا رحبوا بأحد قالوا «مرحباً ألف، مرحباً مليون، مرحباً سيل، مرحباً تراحيب المطر».

الفقراء يحبون الأرقام الكبيرة والخيالات الضخمة، والجنوبيون يستخدمونها حين يعبرون عن فرحتهم بمجيء من يحبونه، فألف مرحباً، ومرة مليون، ومرةً مرحباً بعدد القطرات،

التي تكون السيل منها، ومرةً مرحباً كالترحيب بالمطر!

وهم يتكلمون بعضهم إلى بعض تسمعهم بشكلٍ عفوي يرددون:

«الله يطعني عنك»، أي: لتصبني الطعنات دونك، وليتعمدني الله ببلائه لأفديك.. ويقولون: «الله يجعلني آخذ ضيمك» وهي كسابقتها، أي أن يمكنني الله لأفتدي عنك ضيمك ووجعك!

ويقولون: «الله يجعلك ذا يدليني في امقبر» والعسيريون يستبدلون «أل» التعريف بـ«ام»، ويعنون بالعبارة السابقة أن: من يحب يدعو الله أن تكون نهايته في هذه الحياة مختومةً بحبيبه، فمن ينـزل امرأً ما إلى قبره فسيكون حتماً آخر من يلمسه، فيبتهل المحب بكل رقةٍ أن يكون آخر من يلمسه ذاك الحبيب!

ويقولون: «بي عنك، بي في حبة عيني» وهي عبارة مشابهة لعبارتي الفداء السابقة، فأي شيءٍ يصاب به الإنسان هنا يسمع من محبيه من يتودد إليه بأن يدعو أن تلم هذه النازلة به، وأن يفتديها عنه ولو بعينه التي هي أغلى ما لديه!

ويقولون: «أنا فداك» وهي كسابقاتها من العبارات، ويقولون: «دبيت على وجهي» والدبيب عندهم هو المشي، وغاية التلطف ما بين الناس هنا أن يرددوا كهذه العبارة، حين يسألون بعضهم شيئاً، أو يكونون في سردٍ لقصصهم وحكاياتهم، فيتمنون لو تكون صفحات وجوههم موطئ أقدام من يحبون.. إلخ

أتكون رقة كهذه هي حديث البسطاء والعوام بعضهم مع بعض.. على أنهم لا يتكلفون ذلك، بل إنها لتجري في دمائهم وأحاديثهم، بشكلٍ تلقائيٍ، لا يتنبهون له، ويصبغهم بهذا الفداء

الكبير، وهذه الرقة واللطافة العذبة، فيكونون ما بينهم على كل هذا الوصال والإخلاص والفداء والحب!

والجنوبيون مغالون في حبهم، مغالون في غضبهم، فالذي يحب إلى درجة أن يجعل من وجهه موطئ قدمي من يحب يثور حتى القتل والفتك، فمع كل تلك العبارات الرقيقة تراهم في الوقت نفسه يصبون أشنع العبارات وأقساها، فيودعون من يمضي بمثل «الله لا يرده. اختطفته العفاريت. تلقاه المنايا»!

وتسمعهم في غضبهم يقولون: «الله يكسر ساقك».

يا إلهي، ما أعنف هذه الدعوة، إنها الدعاء على معنيّ بها أن يحرم المشي، وبكسر ساقه!

ويقولون: «الله يقصم عودك»، وتعني سؤال الله أن يأتي على جذع هذا المقصود بها.. فيقصمه!

ويقولون: «جعل لك مرضٍ لا يبرا» ويدعو بها من غضب على أحدٍ أن يبتليه الله بمرض لا برء منه!

والجن من صميم الشتيمة هنا، فحياتهم في هذه الجبال ملأى بالأساطير عن الجن وعن شرورهم وأفعالهم، فأسطورة «السعلاة» تلك الجنية الأنثى، التي تخطف عتاة الرجال، وتتلبس بهم فيعودون مجانين ومعتوهين، وثمة أيضاً «السبعة» وهم سبعة من الجن يدعون للانتقام ممن يعتدي، أو من هو مملوءٌ بالغلّ على أحد فيدعوهم لينتقموا له فيقولون: «سبعة شلّوك»!

ويقولون: «مصوا دمك»..

وهم الجن عموماً أو السبعة الذين يخصهم الناس هنا بالنجدة!

ويقولون: «أخذوا عقلك» أي فلتخطف الجن عقل هذا الذي يحيط به شؤم هذه الدعوة.. إلخ

إذن فهكذا هي الطباع هنا.. إما رقيقةٌ إلى درجة الفداء وتمنيه للآخرين، وإما حادةٌ وعنيفة إلى درجة السحق والإهلاك. نفوسٌ كالأرض التي تسكنها!

ولأن الجنوبيين على هذا الحد من التوتر، والتضاد، والقلق، والإقبال في الحب حدّ الفداء، والإدبار في البغض حدّ استدعاء الطبيعة والجان على من يغضبهم، فإنه يهرع منهم اثنان للمغارات الموحشة في قمة الجبل، إما هاربٌ بقلبه إلى هذه القمم يشتكي للضباب والريح والبرد والأشباح، فيرجع من ثمة وقد ملأته الطبيعة، شحنته بالمزيد من شجنه فيعود مرتجفاً: زملوني زملوني!

وإما هاربٌ من قلبه، يريد أن يكون جباراً في الأرض وما يريد أن يكون من المصلحين!

ما وجدت أحداً عاش في تضاريسنا الوعرة واستطاع أن يتخلص من طفولته. الطفل الذي يملأ البيت إشراقاً وعذوبةً وبراءة، هو الطفل ذاته الذي يوقظ الجميع بصراخه وشتائمه ونحيبه، هكذا هم أهل هذه البقعة!

ومن بين هذه المرايا المتضادة كلها ولد قاموس الناس، وتكوّنت قلوبهم، فمن قبل مجيئهم إلى الحياة يسمعون، وهم ما زالوا في أرحام أمهاتهم، «الله يطعني عنك»، ويسمعون «الله يقصم عودك»!

أعترف، نيابةً عنهم، بتطرفهم الشعوري، فلا أحد في هذا العالم لا يمكنه أن يتحسس تعابير قلوبهم منه، فمن أحبوه يدرك

تماماً أنهم أحبوه، لكنه لا يستطيع أن يعرف عن موقعه داخل هذا الحب شيئاً إلى الأبد.. ومن لا يحبونه يعرف فوراً أنهم لا يحبونه، ثم لا يستطيع أن يعرف عن موقعه بداخل هذا اللا حب شيئاً إلى الأبد!

وبعد كيف ستكون حياتهم، حياة أناسٍ يتآمر عليهم الفقر والكبرياء، الحب والعار، الطيبة والنقمة، اللين والقسوة، الريح والنسيم، الجبل والوادي، العصافير والصقور، الكرامة والمغامرة، تتآمر عليهم كل الأضداد في اليوم والليلة مراتٍ ومرات!

كلهم رعاة، وكلهم مزارعون، وكلهم يبنون بيوتهم الطينية بأيديهم، ومن لا يبتني بيته بيده فهو عندهم محلّ الامتهان والانتقاص. يقولون: «الله يفضح فلان ما يضمّ الرجلة ما دام حي»، يعني: فليلحق الله الفضيحة بفلان الذي لا يستطيع أن يكون رجلاً ما دام حياً!

يومهم كله يمضونه، إما في الحقل، وإما عند البئر وإما في المرعى، ثم يعودون كل مغربٍ، جياعاً ظامئين، يغمسون الأرغفة بالسمن، ثم يدهنون وجوههم ببقاياه شكراً للنعمة، وما إن يرتاحوا لبعض الوقت حتى يهب الفتيان منهم، على وجه الخصوص، يطاردون الأعراس والمناسبات، يسهرون ويرقصون ويغنون حتى ينتصف الليل، ثم يعودون يخلدون إلى النوم، ولا تكاد تفصح الشمس عن ضوئها حتى يتقافزوا إلى حقولهم وأعمالهم من جديد!

الجنوب المسلم كان شافعي المذهب، مليئاً بأَسَر العلم، ولعل الجمالية التي تسكن الجنوبيين لا يمكن أن تتناغم مع غير

المذهب الشافعي، المتسامح مع الفنون ويقف إليها، ولا يتشدد في مسائل المرأة، وفوق هذا فقد كانت كتب السحر، لاسيما شمس المعارف والجفر، مما يشكل ثقافة الناس ومعرفتهم ويملؤهم بالمخاوف والأساطير. يفهم الجنوبيون من الكتابة أنها السحر، فحين يقولون إن فلاناً يكتب، أي إنه يستطيع أن يسحر الآخرين. ولعلّ حكايات بعض العارفين بهذه الكتب في قرانا هي التي تسيطر على عقول الناس وأحاديثهم!

يقولون إن الحكيم فلان يستطيع أن ينظر إلى الأبقار نظرةً واحدةً فقط، فتثور على صاحبها وتهرب منه لتمشي خلف هذا الساحر، وأن الساحر فلان يجمد الطيور في السماء، فلا هي تطير ولا هي تسقط، وفي قريتنا كان الساحر الأكبر رجلاً يدعى «سوقة»، وكان الناس حين يغضبون على بعضهم يدعون على بعضهم به فيقول أحدهم للآخر: «الله يبلاك بسوقة». . قيل أن أحد الفلاحين من قريتنا كان يحرث حقله وعانده الثور فأخذ يضربه بعصاه، ويقول «امش، الله يبلاك بسوقة»، فلم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وقد اختطفه سوقة وذبحه وقسم لصاحب الثور من لحم ثوره، ساخراً منه، قائلاً «كل من لحم ثورك الذي دعوتني إليه»!

٢

قلت كلاماً مختصراً عن المكان الذي عشت فيه، وعن الناس الذين ربيت بينهم، وعن الزمن الذي سبقني. . والآن سألج في حديثٍ طويلٍ عن نفسي، ألا يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث عن نفسه حتى لو لم يرق هذا بعض الناس!

هي رغبة تشبه التدخين في مكانٍ عام. هناك من تحرّضه هذه الرائحة فيخرج سيجارته أيضاً ويبدأ في حرق الوقت بها، وهناك من يروح مع هذا المشهد في ذكرياتٍ لا حدّ لها، وثمة من يشتم هذا المدخن في نفسه واضعاً يده أو أي شيء على أنفه، ويلعن كل الروائح الخاصة في هذا العالم!

شخصياً، لا أدخن لكنني لا أمتنع عن أية سيجارة، يقدمها لي صديق أحبه، وربما ليس لي أصدقاء، لكنني لا أمتنع عن صديق تقدمه لي سيجارة ما، وعندي أن التدخين ظاهرة إنسانية طبيعية، يمكن تبريرها من مليار وجه، على اعتبار أن نصف من في هذا العالم يقترفونه بطرائق متعددة، ولكل واحدٍ منهم مبرره الذي ربما لا يكون لغيره!

إذن فإنني أحب الحديث عن نفسي الآن، على هذه الطريقة، طريقة التدخين في مكانٍ عام، وهذا يعني أني سأسحب كل الذين

يشبهونني أو يتذكرون من خلالي شيئاً، وسأغفر لكل الذين يلعنونني ملء صدورهم!

سؤالٌ صغيرٌ / كبير: ترى أية حياةٍ كنا نمثلها قبل ميلادنا!

الفكرة القديمة تعجبني.. وإن لم تكن حقيقةً أو كانت دروشةً شرقية فإنها تروقني. نحن نحب أشياء بسيطة وواهمة فلتكن هذه أحدها. ألا يحب الصغار رمي أسنانهم باتجاه الشمس، ظناً منهم أنها ستمنحهم في ما بعد أسناناً جميلةً ومضيئة، ثم يكبرون فيعرفون كم هي هذه الفكرة بسيطة ومضحكة.. وكم هي أيضاً واهمة!

حسناً، لقد كنا في مكانٍ ما وفي عالمٍ ما، وهذه الحياة التي نحن بها خطوة في رحلةٍ مجهولة!

من يتذكر شيئاً عن رحم أمه، حين كان الكون كل الكون بالنسبة إلى هذا الجنين هو هذا الكيس الصغير، وماذا لو كانت النقلة بعد الموت نقلةً إلى عالم جديدٍ، وهل ستكون هذه الأعمار، التي نعيشها شيئاً منسياً ومجهولاً حينها، كما هي أعمارنا بأرحام أمهاتنا تبدو لنا شيئاً مجهولاً ومنسياً الآن!

أجسادنا تكونت من هذا الشيء المادي، عبر انسجام اثنين، وهذا يعني أن كل فردٍ منا نتيجة سبب موجودٍ قبله، إذن فالحياة / الروح، التي تسري بهذه الأجساد نتيجةٌ مماثلة لسبب موجودٍ من ذي قبل، فمن أين جاءت هذه الحياة / الروح، وهل هي نتاج انسجام بين اثنين أيضاً؟!

ولأنني هنا أتحدث عن نفسي، فسأخمن من أين جاءت حياتي.. أعتقد أنها كانت بداخل رجلٍ وسيمٍ، عاش هنا على هذه

الخريطة ومات أثناء نومه، لا بدّ أنه كان شخصاً مهماً وحتماً كان أعظم من في زمنه ذاك، بالطبع لقد كان عاشقاً مجنوناً، ولا بدّ أن فتاته كانت جميلة وصبورة. أجزم أن هذه الحياة بي كانت لرجلٍ كثير الاحتجاج والتذمر والقلق. كان وحيداً ومهاجراً دائماً، ولا إخال أنه أدرك نبياً واحداً! ولا أدري أي انطباع يمكنني أن أقوله عن رجل كهذا، لكنني أؤمن أنني لو التقيته فسأشتمه وأحبه، سأضمه وألعنه، سأقول له شعراً كثيراً، وأشد شعر رأسه، لا بدّ أنه كان ذا شعرٍ طويلٍ!

«هل عندك شكٌّ أنك أغلى وأحلى امرأةٍ في الدنيا..».

أما أنا فلدي شكوك كثيرة جداً، لا سيما تجاه الأوراق والأثير وما لا يرى.. «هل عندك شك» أغنية شرقيةٌ أحبها ولا أحبها، كانت البارحة في شاشة التلفاز في إحدى الفضائيات، وكانت أمي إلى جواري، جالسين بناصية هذه الغرفة المختصرة، وعلى الفور فتشت عن «الريموت» وصوّبته نحو التلفاز، وأخذت أرفع الصوت وأردد بعض الكلام مع العراقي الأنيق، كاظم الساهر..

أترنم مع الموسيقى التي لا أفهم عن تركيبتها الكثير، بالرغم من أنني درست ثمان حصص عند صديقي المصري، أتعلّم المقامات الموسيقية، لكنني لم أكن طالباً ملتزماً كما يجب، ولذا فقد حملق فيّ مرةً وقال: «أنت تستطيع أن تفعل كل شيء إلا أن تكون طالباً.. هذا ما لا تجيده يا زاهي!».. صديقي المصري مات، ولروحه العهد أن أتعلم الموسيقى على طريقته يوماً ما!

كنت أتابع كاظم..

كاظم، هذا الرجل الذي تحبه كل النساء وتكرهه كل النساء!

البعض في هذه الأرض يشبه الأيام، وكاظم يشبه يوم الخميس، يوم الأعراس والوفيات!

أنا أحب الاثنين والأربعاء أكثر، إنهما يومان لائقان بالعناقات والخدر والموسيقى والبخور والحرية!

حين بدأت ترقص، حافية القدمين، زجرتني أمي، التي تعرضت كغيرها لهذا الاعتساف الذي يظنونه هدايةً وخيراً، فوالدتي التي نشأت على حداءات الرعاة والدفوف وأصوات الطيور والأغنام والطبيعة في جبالنا في الجنوب باتت الآن تتلوى نفسها إذا سمعت الموسيقى ورأت الرقص..

نهرتني أمي: «غيّرها عني، الله لا يستحي منها، ترقص قدام الرجال!» كتمت الصوت تماماً، ثم التفت إلى أمي وقلت: «كنتم ترقصون معاً، رجالاً ونساءً يا أمي.. ثم إنهم يغنون «هل عندك شكٌّ أنك أغلى وأحلى امرأةٍ في الدنيا» فهل عندك شك، يا أمي، أنك أحلاهن على الأقل في شبابها؟»، وكأي أنثى، لا يخترق الزمن روحها، وإن عبث بملامحها طوال سبعين سنة، تسكت والدتي!

رأيت في عينيها حسرةً على مشاهد تطوف بذاكرتها. حتماً إنها مشاهد لا يعرفها إلا هذا الجبين المليء بالتجاعيد، جبينها، وبعفويةٍ بالغة زفرت أمي، كأنما هي تشتم الدهر، وتريد أن تصرخ أنها كانت أحلى امرأةٍ في الدنيا!

الشتيمة مهمةٌ جداً، فماذا لو أن الله لم يخلق الشتائم..

الكثير سيموتون كمداً، هذا مؤكد!

تأملت ملامح والدتي، وفتشت معها عن كل الحكايات القديمة، التي تدور في مخيلتها الآن، فتحسست في شرودها أقاصيص وأغنيات، ولاحت على حدقتيها ثيابها العسيرية الأنيقة، ذلك الثوب الأسود، ذو الخطوط المذهّبة، يتعاكس وبياض وجهها وأطرافها، أكاد أنظر إليها، فتاةً في العشرين، حافية القدمين في زواج إحدى بنات قريتنا الصغيرة!

الآن، يا أماه، تلبسين الأقمشة الجديدة، وتلونين الشيب الذي يعلو رأسك بالحناء، والسبعون سنة تتمدد في تفاصيلك، ونقمتك التي لا يفهمها غيري تبصق على كل شيء، ألا تبّاً لهذه السنين، يا أمي، ما كان ضرها لو بقيت أحلى امرأةٍ في الدنيا، حين كانوا كلهم يتحدثون أن فلاناً من أبناء القرية سيتزوجك، وكلهم يقصون القصص عن كمالك، كيف ستمنحينه كله في ليلةٍ واحدة لهذا الشاب القوي العنيف، أبي!

يحدث أن يحب المرء الأشياء أكثر من أولئك الذين يملكونها، ويحدث أن يفتش أحدنا عن المكان الذي استقبله في هذه الدنيا، فلا يجد سوى كومةٍ من الجدران الحجرية المتهتكة!

تقول أمي أنني ولدت قبيل الفجر بلحظات. كانت ليلة الاثنين، وتروي أمي أنها كانت ليلةً ماطرةً وعصيبةً جداً، فقبيل غروب الشمس هربت الأغنام، التي كانت كل ما يملكه والدي، وضياعها يعني ضياع ماله كله. هرع والدي وإخوتي الكبار ونفرٌ من رجال القرية، يتناثرون في شعاب هذه الجبال، يبحثون عن الأغنام تحت هذا المطر، والتي لا بدّ أنها اختبأت في مكانٍ ما هاربةً من السماء، وفي منتصف تلك الليلة يعود والدي والرجال

معه بعد أن عثروا عليها. إذن فلا بدّ أن يقدم لهم والدي عشاءً، هو من أعراف الناس هنا، ومن قوانين النجدة والكرم، وهكذا فإن على أمي وأختي الكبرى أن يقوما بإعداد هذا العشاء، ويدهم أمي الطلق وهي تقف على التنور، فتصرخ وتصرخ، وعلى الفور تستدعى القابلة، وتسهر مع والدتي تساعدها على إخراجي من أحشائها طوال الليل، وامتنعت عن الخروج حتى تحسست آخر لحظات هذه الليلة..

ولدت فجر يوم الاثنين ٦ مارس ١٩٧٣ وصرخ جميع الحاضرين، يا لهذا الطفل الذي تعلو مقدمة رأسه غرةٌ بيضاء. كانت خصلة شعرٍ بيضاء بالناصية وبقية شعر الرأس سوداء، وعلى الفور تهامسوا: «لا بدّ أن هذه المرأة رأت جنيّاً أثناء الحمل.. شيب الصغار لا يأتي إلا من الخوف»، «لقد أفزعها ضوء البرق في أيامنا الماطرة!».

الرضّع لا يفهمون لغاتنا البليدة هذه، فلا يعنيهم فرحنا، ولا استنكارنا، ولا سخطنا، ولا احتجاجنا، ولا فألنا، ولا أي شيء مما نستقبلهم به. ولا أدري ما إذا كنت أفهم من ملامحهم حينئذ أنهم مشدوهون بطفل الرعب، هذا الذي جاء في هذه الليلة العصيبة وبشعرٍ أبيض، ولعلّ بعضهم شتمني لشدة ما عانته والدتي يومئذ ذاك كله، وربما وصفوني بأوصاف لا يجيد حدتها غير سكان هذه القرى، ربما قالوا: «سمّوه عبد السكون» والسكون عندهم تعني الجن. حقاً أذكر أن أبي كان إذا غضب مني، فإنه لا يدعوني إلا بـ«يا عبد السكون!».

تروي والدتي أنه ما كادت تلامس هامتي الأرض حتى انبجس

الفجر، وأخذ يجري أخي الأكبر في القرية يفتش عن الحكيم، الذي يطوف بالبيوت التي تحتفل بمقدم طفلٍ جديد، يخبرهم كيف يعيش هذا الآتي، وأي مصيرٍ ينتظره وربما أشار عليهم باسمه. جاء هذا الغريب الأطوار، وفور رؤيته إياي مسح على شعري الأبيض وتبسّم، ثم أخذني إليه، وهو لا يأخذ طفلاً إليه، كما يقولون عنه، ثم قال: «سموه زاهي..».

زاهي.. أُحِبُّ اسمي.. ولا أحبه. أحبه لأنه فجّر تمردي كله على من أراد لي التبعية، ولأنه لازمني كل هذه السنين حتى ألفته، وأحبه لأنه شفرةٌ لا يفهمها غيري، وربما لا أفهمها حتى أنا، ولا أحبه لأنه لم يكن لي فيه من قرار ولا اختيار. ما أصعب أن يفقد المرء خياراته، ولو كان لي من الأمر شيء لسميت الأطفال القادمين للحياة كلهم باسم واحد، وحين يبلغ أحدهم السابعة يختار هو اسمه الذي يريده. ألا يكفيه من عنت هذه الفوضى أن جاء دونما أن يقال له: «أنجيءُ بك!».

أفكر دوماً ماذا لو كان لي أن أختار اسمي فماذا سيكون! حقاً لا أدري، لربما سميت نفسي بـ«أنا».. أو لعلي أسميني بـ«وحدي» أو زاهي.. أخيراً ها هو اسمي، وها أنا أنا!

٣

عشت السنتين الأوليين من عمري في القرية، في بيتنا الطيني الصغير جداً. كنت سابع الذكور، وتاسع الأولاد، وفي الأسرة كلها كنت الحادي عشر، وهذه أرقام تعجبني، على الأقل على طريقة التنجيم وادعاءات السحرة والعرّافين، وقبل هذا وذاك فأنا أحب موقعي، أحبني وأحب كل ما أمثله ويمثلني، أحب كل ما هو خاصٌ بي، ولا يشاركني فيه أحد!

هذه هي الفردانية، التي تولد في نفس الإنسان من أول لحظةٍ يصرخ باكياً حين يشدون اللحاف الذي يلفونه به لأنه له، جزءٌ منه، من حياته، من وجدانه، من كلمته. الكلمة عند الإنسان مرآةٌ للحياة!

تكرر أمي دوماً أني كنت طفلاً هادئاً كثير الصمت!

وهنا في الجنوب يخافون من الطفل الذي لا يتكلم، يعتقدون أن سرّاً كبيراً يقف وراءه، ويضطره إلى الصمت، ويدعون دائماً كلما استفزهم صمته، إما على سبيل التندر، وإما على سبيل الدعاء بحق، فيقولون «الله يعطينا خيره ويكفينا شرّه»!

وبعد مضي العامين ترك أهلي القرية لينتقلوا إلى المدينة، كغيرهم ممن فتحت لهم أبواب الرزق، واستطاعوا أن يبتنوا بيوتاً

في المدينة، على أن أبها التي لن تتنازل عن قرويتها مهما بُعثرت الأوراق النقدية في شوارعها، وأكثر ما يمكن أن يبلغوه منها أنها حالةٌ متوسطةٌ ما بين القرى والمدن، فلا هي ريفٌ كامل ولا هي مدينةٌ كاملة. قريتنا ومدينتنا لم تكن إحداهما تبعد عن الأخرى أكثر من ثلاثة كيلومترات، وهكذا صرنا نسكن بيتاً جديداً، وبقية ساكني القرية ينظرون إلينا نظرتهم إلى الأثرياء من أبناء المدن!

وعندنا في الجنوب يسمون القرية بالوطن، ولا يعنون بهذا الدولة أو الإقليم الأكبر وإنما يعنون به قراهم الصغيرة. يقولون: «كنت في الوطن، أتيت من الوطن، ذاهبٌ إلى الوطن، التقيت أهل الوطن. . إلخ».

بيتٌ من اللبنات الأسمنتية، أبيض اللون، من أربع غرف ومطبخ وحمام، ما زال منتصباً حتى وقت كتابتي هذه. هو شعبيٌّ جداً بمعايير وقتنا هذا، باذخٌ في الأناقة والثراء، بمعايير ذلك الوقت أي قبل ثمانٍ وعشرين سنة، وكان بيتنا هذا ضمن بضعة بيوت، فقد كان مجموع سكان ذاك الحي لا يتجاوز الست أسر، لكنها جميعاً كانت تمثل العائلة الواحدة، فقد كان بينهم من التواصل والحب والألفة ما يجعل بيوتهم مفتوحةً بعضها على بعض طوال الوقت.

والدي أول من استطاع شراء التلفزيون، ذي اللونين الأسود والأبيض، وكان ذهول الحي كله يشبه ذهول الناس حين يسمعون الحكائين وخرافاتهم، وكأنما هو آتٍ من عالم الغيب. . يحدثهم عن الحيوات التي لم يروها!

منظر الرجال والنساء كل ليلة، وهم يجلسون متحلقين

يتوسطهم هذا التلفاز، وهم على درجةٍ من الإنصات والانبهار تجعل الجميع يتسابقون كل مغرب بعد انتهائهم من أعمالهم إلى منـزلنا ليشاهدوا هذا الجهاز السحري. كانوا يأكلون الخبز المعجون بالسمن والسكر، ويشربون الشاي الأحمر، مشدوهين بالمسلسلة البدوية «وضحى وبن عجلان»، ويتمتمون مع أغنيات سميرة توفيق، وأم كلثوم وفايزة أحمد، وعبدالحليم حافظ، وسعدون جابر وفيروز وغيرهم..

من حياتنا أيامها..

في تلك الفترة، أي أواخر السبعينيات، تديّن أخي الأكبر تديناً حاداً جداً متأثراً بالمتطرفين، الوافدين من بلدان مجاورة، وكذلك تأثر بعمله في المدارس القرآنية مع مجموعةٍ من المغالين، الذين استطاعوا أن يضموه إليهم فحمل فكرهم، وتحمس لهم. كان أخي يحرّم كل ما يدور بالمنـزل، فتشبّ المناجزات، لاسيما بينه وبين الذين يلونه من إخوتي، الذين كانوا يتحزبون ضده. ومن الطرائف التي ما زالت تتحرك في ذاكرة أسرتي يوم كانوا يتعاقبون إلى «الماطور» أي مولد الكهرباء، فيقومون بتشغيله كي يتابعوا التلفزيون فيغضب أخي الأكبر، ويخرج ليطفئ هذا الحرام، ثم يعودون فيشغلونه ليعود فيطفئه، ويمضي الليل كله على هذه الحال، وكثيراً ما تصل الأمور إلى درجة الاشتباك بالأيدي والمشاجرات العنيفة، التي توقظ أبي.. أبي الذي يقرر دائماً أن يضرب الجميع، فوالدي الجبلي لا يحدد من يعتدي عليه إذا غضب!

كانت تلك الفترة، التي تدين بها أخي الأكبر، بداية للتجمع

الذي قام به المتطرف الشهير بالجزيرة العربية، جهيمان وأتباعه. كانوا يدورون بالناس يعظونهم ويأخذون تأييدهم، محتجين على الفساد الأخلاقي برأيهم، الذي تبدت مظاهره في أغنيات التلفزيون والنساء الظاهرات به وغير ذلك، وانتهت باحتلالهم الحرم المكي. كان هدفهم من ذلك الثورة على النظام السعودي، الذي يعتقدون فساده، وأن عليهم تطهير البلاد من هذه الحكومة الكافرة بزعمهم، إلا أن الدولة استطاعت إخمادهم والفتك بهم داخل الحرم، والقبض على جهيمان وعدد من أتباعه وإعدامهم إثر ذلك!

كاد أخي الأكبر، الذي استدعته أجهزة الدولة حينئذ، أن يخسر حياته إذ كان متهماً بانتمائه إليهم، لكنه نجا فلم يكن هناك من الدلائل ما يؤكد تورطه في أية أعمال تدينه، حدث هذا كله ابتداءً من أواخر السبعينيات حتى القضاء عليهم سنة ١٩٧٩م.

لا يمكن لأهلي أن ينسوا يوم طرق أحد رجال المباحث الباب، واستدعى أخي ليذهب معه. تقول أمي أني من فتح الباب، وأنه على الفور طلب أخي. كانت ليلةً أليمة، فقد كان الجميع على ما يشبه اليقين أنهم لن يروا ولدهم مرةً أخرى!

من حياتنا أيامها..

بيتنا الشعبي الصغير ذاك شهد الكثير من القصص والحكايات، أكبرها خلوداً، في ذاكرة الأسرة، حادثة احتراقه. احترق البيت، الذي مزّق والدي نفسه ليبنيه، بسبب خطأ صغير جداً. هكذا هم الجنوبيون يفعلون ما لا يفعله ولا يطيقه غيرهم، ثم يخسرون كل ما فعلوه بأخطاء لا يرتكبها لسذاجتها غيرهم!

كان من المقرر يومئذ أن يستضيف منزلنا ذاك بعض رجال

القرية، من المقربين إلى أبي، وبالفعل فقد استنفر كل من بالمنزل لإعداد اللازم، ولأن أحد إخواني لا يعرف ما معنى أنبوبة غاز، فقد قرّبها من الموقد، بل ألصقها به، وبعد وقتٍ، وبفعل الحرارة التي تعرضت لها الأنبوبة، كان طبيعياً أن تنفجر وتحرق البيت كلّه. احترق البيت، ونجا كل من فيه، فقد كانوا جميعاً لحسن الحظ مع والدتي بالفناء يساعدونها على تنظيف الفرش وغسلها وتجفيفها، وهكذا وفي لحظة تحوّل البيت إلى فحمة، وخسرت الأسرة كل ما شقيت لتحصيله!

كان عمري حينئذ لا يتجاوز الخمس سنين، لكنني أذكر دمعات أبي الذي لا يبكي أبداً، كان واقفاً ينظر إلى البيت المتفحم، الذي يتصاعد كفاحه مع الدخان منه. كان ينظر إليه وهو يلمّ صغاره وزوجته إليه وكأنما هو يشيّع كل حياته، التي ماتت قسراً في لحظة. لقد كانت كارثة حقيقية، تعني أن على والدي أن يعود إلى الصفر الذي بدأ منه، وبالفعل فقد أخرج إخواني ما سلم من الأمتعة، وما أمكن حمله لنعود إلى بيتنا في القرية. . وفي هذه اللحظة تعلو الأصوات ما بين والدي وجارنا ناصر بن محمد. كان جارنا يحلف بالطلاق ألا نعود إلى القرية، وأن ننتقل جميعاً إلى الحياة معه ومع أسرته في بيتهم في الحي نفسه حتى يستصلح البيت من جديد، وأبي بدافع الكبرياء يقسم ألا ينام هذه الليلة إلا في بيته بالقرية!

يجتمع الجيران كلهم على والدي، يتدافعون ويحملون متاعه وأطفاله كي يدخلوا كل شيء إلى بيت جارنا، ويقايضونه على الحب الذي بينهم، أنه لو لم يستجب لما يدعونه إليه فإنه

سيخسرهم للأبد، وللحظة احترق البيت، وفي لحظةٍ أخرى صرنا ضيوفاً على جارنا!

استغرق ترميم البيت شهرين، شارك كل الجيران بالحي في هذا العمل، وهذا ما يمكن أن يعتبره والدي أشنع من أن يموت كل أطفاله وهو ينظر إليهم، شنيعٌ عند العسيري أن يكون عاجزاً، أن يذله القدر فيحتاج إلى الآخرين، أن تضطره الحياة إلى أن يخسر استقلاله!

العسيري. . لا تشبعه اللقمة التي يأكلها من غير كدّه، بل يجوع بأكلها أكثر وأكثر، والعسيري لا يدفئه اللحاف الذي ليس له، بل يبرد بالتحافه أكثر وأكثر، والعسيري لا ينام في غير فراشه، بل يستبد به الأرق أكثر وأكثر، والعسيري تعذبه حاجته إلى الآخرين! هكذا كان أبي وكانت أسرتي تتألم، لكنها تحملت كل شيء، حتى لا ينفذ الجيران تهديدهم بخنق الحب، الذي لا يمكن للعسيري أن يعيش بغيره، وأن يكون للحياة طعمها عنده بدونه!

٤

أول ما يبلغ الطفل في عسير الخامسة من عمره عليه أن يتعلم النزول إلى الحقل، والمشاركة في الحصاد، وحفظ أناشيد الزرع والحرث.. «أربعة شلوا الجمل، والجمل ما شلهم»، «يا شمس يا غاربة.. روعي لي قليل».. إلخ، وعلى الطفل هنا أن يرعى الغنم من سنيّه الأولى، وعليه أيضاً أن يتعلم حلبها، واللغة التي يأمرها وينهرها والأصوات التي يخرجها بها مع شروق الشمس، والأصوات التي يعيدها بها مع غروبها..

حداءات العسيريين عذبةٌ جداً، لا يروحون إلى شيءٍ إلا وهي معهم، وهم يبذرون مزارعهم، وهم يرعون أغنامهم، حتى وهم يتألمون من مرضٍ أو حزن، أو يطربون لفرحٍ أو حب!

يتوجب عليّ أن أقوم كل صباح لأصلّي الفجر مع والدي، ولا تكاد أمي تلفّ لي رغيف خبز في محرم صغير حتى يقترب الشروق لأخرج إلى الأغنام، أفتح لها باب الحظيرة وأتجه بها إلى الجبل، وهناك أبقى وإياها حتى الظهيرة، حتى يجيئني أحد إخوتي بالغداء، وأبقى طوال النهار هناك مع الأغنام في الجبل، أطاردها وأنهرها ألا تزوغ إلى حقول أحد، وسيكون بانتظاري عقابٌ شديدٌ ما لو عدت قبل أن تحمرّ الشمس ويدنو الغروب..

رعي الأغنام مسؤولية الإخوة الثلاثة الصغار، ولكل واحدٍ منهم يومه الذي عليه أن يلتزم تأديته كما يجب، وفي اليومين اللذين لا يذهب فيهما للرعي عليه أن يشارك إخوته الكبار في سقي الأشجار، والذهاب إلى المزرعة أو الأبقار، أو الوقوف لمساعدة والدي أو والدتي على أي عملٍ من الأعمال.. هكذا لا يمكن أن يمرّ يومٌ دون عمل. كان والديّ يغضب غضباً شديداً، ربما يصل إلى الضرب، إذا ما بقي أحدنا نائماً في الصباح، أو خرج للعمل أو للقاء الناس وهو لا يلبس الحزام على خصره، فكيف لو تأخر أحدنا عن أداء واجبه، أو قال له والدي شيئاً ولم يمتثل له!

من أمثالنا في عسير «لا تشقى مع من شقي.. يلقيك ما لقي» ووالدي، الذي عاش الشقاء بكل ألوانه، يريد أن يحمي أسرته مما لقيه، فيصب عليهم كل هذه الأوامر والنواهي وكل هذه القسوة. إنه يكرر علينا شقاءه بطريقةٍ أخرى وبدافعٍ آخر!

في السادسة من عمري، وقبيل ولُوجي المدرسة بشهور، كانت بانتظاري قصةٌ، في منتهى الطرافة والألم، سأحكيها كما وقعت:

في قرانا لا يُختن أحدٌ إلا بعد أن يبلغ السن الذي يعي فيه ما يفعله أهله به، ليشعر بقيمة كونه رجلاً، وما عليه أن يكونه من الفحولة والبطولة، فهو كلما تحمّل الألم كان هذا مؤذناً بأن رجلاً عظيماً بداخله!

خرجت صباحاً مع الأغنام كالعادة، دون أن أعلم أي مصيرٍ ينتظرني، وقبيل الظهر يأتي أخي ليقول إن «والدي يريدك وإن عليك أن تذهب إليه الآن فهو بانتظارك»، وبقي أخي مع الأغنام

وانطلقت أنا عائداً إلى البيت، استجابةً لما يريده أبي، وفور وصولي التقاني أكبر إخواني قائلاً: «استعد للختان..». فرحت وخفت، فرحت لما سمعته عن هذا الختان، وكيف أنني سأصير بطلاً ورجلاً كاملاً هذا اليوم، وخفت لما سمعته عن الألم، وللحق فقد كان هلعي أكبر من فرحتي، فلذت بإحدى الغرف واختفيت في زاوية منها!

لم يمض الكثير من الوقت إلا ويرتفع صوت والدي ينادي باسمي نداءً عالياً، ويدخل أخي الغرفة ويخرجني منها، ويأتي بي إلى والدي، يشدني من يدي قائلاً: «لا تخف.. أتخاف وأنت ستصير اليوم رجلاً كبيراً!».

أتذكر كيف مددوني على الأرض وخلعوا سروالي، وبدأ أبي بختني، الذي لم أحتمل ألمه، فصرخت بكل ما بي من قدرة، وساعة انتهى أبي من لفّ الشاش عليّ أسرع إلى البندقية وصوبها إلى الأعلى وأخذ يطلق النار، الطلقة تلو الأخرى، معلناً احتفاله بي!

لا أنسى كيف كانت نساء القرية والأقارب والحي يأتين لزيارتي، ويقبلنني طويلاً، ويضعن بعض المال في يدي أو في ملابسي أو تحت فراشي، ويداعبنني: «صرت رجلاً وغداً تتزوج إحدانا!».

شأنٌ آخر..

انتهى والدي من بناء بيتٍ جديدٍ، مجاور لبيتنا الشعبي هذا، وعلى الفور انتقلنا فرحين به، كانت تلك الفترة بداية لثراء والدي،

وكان بيتنا الجديد هذا بالنسبة إلى جيراننا وأفراد قريتنا يبدو فيلا فاخرة، وفي هذا البيت الجديد تقاسم إخواني الغرف، وعليّ أنا أن أكون مع الأخوين اللذين يكبرانني في الغرفة نفسها. لم يكونا يخفيان استياءهما من وجودي، الذي يأتي على حساب خصوصيتهما. لقد كنت وحيداً وحيداً، لأنني وحدي من كان خارج الثنائية المكرورة ما بين البنين والبنات، فإخواني الذكور اثنان اثنان اثنان، وأنا السابع وحدي، ثم البنات اثنتان أكبر مني واثنتان أصغر مني، لكن وجودهن في البيت دائماً جعلني أقرب إليهن، وأكثر احتكاكاً بهن من الذكور، وكان والدي ووالدتي يشتمانني لمجالستي البنات، لكن لم يكن هناك من خيار، فقد كان كل اثنين من الذكور يرفضان وجودي معهما، حتى لا أطلع على أسرارهما، وإنني ممتنٌ للقدر الذي جعل طفولتي بين البنات، وصبغني بهن وبرقتهن وعطفهن وحبهن للجمال!

وحدتي هذه تحمل حكايا في منتهى الألم، وحتى هذه اللحظة أتذكرها وأشعر بنقمةٍ على الزمن كله، مرةً قرر والدي أن يذهب لزيارة الحرم المكي للعمرة، وأراد أن يكون بصحبته اثنان فقط من أبنائه، كانا أخوي اللذين يكبرانني مباشرة، فلا أنسى يومها توسلاتي وبكائي وألمي وصراخي ليأخذني معهما، لقد كان حلماً ضخماً أن أسافر مع والدي وإخواني كل هذه المسافة، وحلماً ضخماً أن أرى الكعبة.. لكن دموعي وكل ما فعلته، وكل توسلات أمي، لم يكن ذلك شافعاً لي عند أبي ليقبل اصطحابي، محتجاً بأنني ما زلت صغيراً وأنه يخشى أن أضيع في زحام الناس في الحرم. صعدت إلى سطح البيت وأخذت أتابع السيارة، التي

تقل أبي وأخويّ حتى غابت، وأنا أبكي بكاءً شديداً. نزلت وأغلقت علي باب إحدى الغرف، وبقيت أنوح وأشتم أبي وأخويّ وسنيَّ الصغيرة. كان أخي يطرق الباب بشدة حتى فتحت له، دخل عليّ وضربني لأنني برأيه أبكي دلالاً، وأنني لست رجلاً لهذا!

ليس الخوف شراً كاملاً، لكنه مهما يكن ناقصاً فسيظل كبيراً وقبيحاً، وسيدفع بالإنسان إلى مزالق لا نهاية لها، بدايةً يصير الآمن خائفاً، ثم ينتهي الخائف فاتكاً وهكذا، وأول ما يفتك الخائف يفتك بنفسه!

كان مما يرعبني ويضحك أهلي النوم، أجل النوم، فالطفل الذي يخاف مما حوله، حتى يبول كل ليلةٍ في فراشه، يهرب من النوم ويصارعه ليالي طويلة، حتى لا ينظر إليه الآخرون بالسخرية والانتقاص!

يوماً بكيت بكاءً طويلاً قبل النوم، فأنا أحتاج إلى النوم كما أحتاج إلى التنفس، وأخاف أن أستسلم له فأبول، وحينئذ لن أكون سوى نكتةٍ شهيةٍ لإخواني ليومين أو ثلاثة، مع الضرب الذي ينتظرني، وغير الشتائم والكلمات الجارحة، وفي الوقت الذي أصارع النوم والألم والبكاء، وليلتئذ كان أخواي الأكبران يضحكان مما أنا فيه من حال. بعد مرور وقتٍ من الليل، لم يبق سواي مستيقظاً، ثم غالبني النوم فغلبني، وبالطبع وبعد كل هذا السهر استيقظت على شتائم أمي، وقرصها لفخذي بشدة، وعلى ضحكات إخواني فخرجت من البيت وجلست هناك خلف السور أبكي!

جاء ذلك اليوم خالي لزيارتنا، فاشتكت إليه أمي ما تعانيه من إفسادي لبطانيات النوم باستمرار، واتفقت معه على أن يحلّ هو المسألة، فاستدعاني وأجلسني أمامه، ثم أخرج من جيبه سكيناً حادّة وقال لي:

– اخلع سروالك..

– لماذا؟

– سأخلصك من المشكلة وسأقطع هذا الذي تبول منه وستعيش بدونه.

– لن تفعل هذا.

– بل سأفعل، وسيقول الناس كلهم حينئذ إن ولد آل فلان ليس رجلاً.

تراجعت للوراء ثم شتمت خالي، بل لعنته بأعلى صوتي وهربت، وكنت أسمع انفجارهم بالضحك، وتمثيلهم أن أحدهم سيلحق بي وأنه سيعيدني إلى خالي لينفذ بي وعيده..

تضاعفت هذه المشكلة ثم تلاشت بمرور الوقت، ولم يبق منها سوى تندّر إخواني عليّ إذا ما فتشوا عن الضحك، وأخذوا بتذكر ما مضى من ذكريات عليهم وعليّ بالذات!

من هذه الذكريات..

كنت أحب المسلسل الكرتوني «جزيرة الكنز» وكنت أتابعه كل يوم بدهشة، وأتأمل هذه السفينة، وهذا البحر، الذي لم أره من قبل فأهلو المرتفعات يفغرون أفواههم حين يرون البحر،

يتعاملون معه كما يعاملون السماء الزرقاء، ويقولون إن هذا البحر سماءٌ قديمةٌ سالت يوماً، وتركت مكانها وحلّت بالأرض!

بأسفل حينا بئرٌ عميقةٌ جداً، كان يسقي الحي كل الحي منها زرعه، وكانت تراودني وأخي، الذي يكبرني، فكرة النزول إلى هذه البئر.. وذات يوم فعلناها، ونزلنا إلى البئر واقتربنا من حافة الماء، وكنا نرمي قطع الفلّين الصغيرة، ونتخيلها قوارب تمخر هذا البحر الكبير، الذي نرميه بالحجارة فيتحرك ليشكل أمواجاً تعبث بقطع الفلّين الصغيرة. إحدى القطع تبدو قريبة مني، فمددت يدي لسحبها، فانزلقت وسقطت في الماء، دون أن أكون يوماً ما قد تعلمت السباحة، أو حتى نزلت إلى حوض ماءٍ صغير. بقيت أخبط بيدي داخل الماء، فأصعد حيناً وأهبط حيناً، وكان أخي يصيح غير شاعر وينادي بهستيريةٍ وصراخ، ويمدّ يده ويقول: «اطلع، اطلع، اطلع» وفي واحدةٍ من محاولاتي لتحريك يدي داخل الماء أمسك أخي بيدي وأخذ يشدني. كان يشد إحدى يدي بيده، ويشد شعر رأسي بالأخرى، حتى أخرجني، وعدنا إلى البيت. كنت مبللاً وباكياً وخائفاً!

٥

الحوت الضخم والفيل والثعبان لم تخلق لأول وهلةٍ بأشكالها هذه، ولا بغرائزها هذه، حتماً لقد حملت صبغة الإطار الذي تكونت بداخله، كما هو الإنسان، لا يستطيع أن يكون نتيجةً أخرى غير مجموع ما عاشه، ومرّ به من أول يوم بحياته حتى آخر لحظةٍ من لحظاتها!

أسرتي التي تكونت من أبٍ لم يبق من عائلته سوى اثنين، هو وعمته أخت والده، وأمي فاتنة القرية وحسناؤها، وإخواني الذين لا يشبه أحدٌ منهم الآخر، رغم ما بينهم من الثنائيات التي لم تشملني فقد كنت كل الأوقات رهين الشعور بالوحدة الظالمة، وفوق هذا كنت أصغر الذكور، وهذا يعني الكثير من التجاهل في عرف جنوبنا!

أبي..

حين يتحدث أحدٌ ما عن والده فإنه يروقه أن يجعل منه بطلاً عظيماً، وهنا كل الآباء جاعوا وكلهم بكوا، وكلهم ناضلوا، وكلهم جار عليهم الوقت، وكلهم لم ير الزمان مثلهم. جميع الآباء لهم حكايا تبدو في أعين صغارهم أساطير كبرى، كل هذا وأكثر ما يمكن أن يقوله أي امرئٍ عن والده، وأنا مثلهم أحب أن

أتحدث عن أبي على سبيل أنه بطل، وأنه كان من الأولى أن يكون عنواناً مهماً في أي كتاب تاريخ ستدرسه الأجيال في ما بعد، وللحق فإن ما يقوله الناس في عسير عن والدي لا يقل عما أذكر شيئاً منه هنا!

أقول أيضاً: يمكن أن يكون هناك من يروقه أن يشتم والده، وأن يراه قبيحاً وجاهلاً ومجرماً، ولا بأس فالآباء ليسوا آلهة، ولا يمكن أن يكونوا أكثر من بشر، باستطاعتهم، كغيرهم، أن يكونوا ظالمين وبشعين!

سأقول إن أبي لم يكن عادياً.. ما معنى أن لا يكون شخصٌ ما عادياً؟

هذا يعني عندي أنه الذي لا يشبه أحداً، لا يشبه الآخرين في خيره ولا في شره، فهو نسيجٌ مستقلٌ بذاته وإن تقاطع في أشياء صغيرة يمكن أن يتقاطع فيها أي اثنين..

المهاتما كانت له قدمان، وجاري الذي لا يعرف أن في الوجود مخلوقاً نادراً مثل باولو كويلهو له قدمان أيضاً!

أبي الذي لا يشبه أحداً لم يعرف أباه، بل لم يكن له في هذه المجرة صلة قرابة بأحد سوى عمته، أخت والده، باختصار كان والدي «مقطوعاً من شجرة»، فحياته إذن ستكون مزيجاً من اليتم والفقر والتشرد والضياع..

آباؤنا في هذه الجبال قساة، أجل، لكنهم ينجحون غالباً في حمايتنا فهم يتناولون الحياة على أنها حربٌ لا بدّ فيها من جمجمةٍ ضخمة، ومنتصر أضخم. إنهم يعتقدون أن البطولة أن يموت المرء وهو ينزف دماً، والجبناء فقط هم الذين يموتون داخل بيوتهم!

هو أبي.. ما زلنا نتحدث طويلاً ولشهور عن ذلك الموقف، الذي استطاع فيه أحدنا أن ينتزع منه ابتسامة، ونتفق باستمرار على أن أبي لا يصلح إلا أن يكون زعيماً.. لأنه لا يقبل العبث والصراخ.. أبي عاد إلى المنزل.. ستتغير حتى أشكال جلساتنا، وستتوقف كل ألعابنا البدائية، وستنخفض كل الأصوات!

حين بلغ والدي العاشرة كان عليه أن يعيش وحيداً بموت والده، وبهذا فقد وجد كل المرارات التي يمكن أن يعيشها يتيمٌ في هذا العالم، سحقه الفقر والبرد والتشرد والناس.. يحكي لنا عن القسوة التي مضغته: «توسلت إلى امرأة في القرية أن تعطيني ما آكله، فرقّت لي، ودخلت مخزنها، وأخرجت لي عجينةً صغيرة وقالت لا تخبر أحداً بهذا وابحث عمن يعجنها لك.. فركضت بها فرحاً مسروراً إلى عمتي، عفا الله عنها، وطلبت إليها أن تخبز لي هذه العجينة، فأخذتها مني وعادت سريعاً، وفي يدها تمرةٌ حشتها بالفلفل الأسود.. وقالت: «تناول هذه ريثما يستوي العجين خبزاً» فأكلتها ولم أكن أعلم بما فيها من حشو.. فالتهب فمي، وظللت أبكي طويلاً، وهي تقول ما دمت لا تستطيع أن تأكل الخبز فسآكله أنا حتى لا يفسد!».

لم يترك والدي عملاً لم يغمس يديه فيه حتى تنزف دماً. رعى الإبل والغنم والأبقار، وعمل أجيراً يحمل الصخر ويحرث ويبذر ويحصد.. يقول: «والله لا أعلم بيتاً في قريتنا ما عملت عند أهله أجيراً، وها أنا اليوم سيدهم وأثراهم». حقاً أصبح والدي بعد فاقته وعوزه ومعاناته وكفاحه شيخ القرية الأول وسيدها، وأكثر أهلها ثراءً، ولأنه عاش هذه الرحلة فقد كان وما

زال قاسياً على نفسه وأسرته، قسوةً يظن أنه يحميهم بها مما تعرّض له من عنت. يحدثنا أخي الأكبر كيف كان يضربه والدي حتى لا يستطيع الحراك من مكانه، وكيف أنه مرة همّ بقتله لأنه ضيّع الأغنام. كان قد حمل والدي البندقية ولولا أن أخي هرب ولاذ بأخوالي لقتله أبي، حتى لا يلحق ابنه به العار، معتقداً أن من يضيع الأغنام صغيراً سيضيع رجولته إذا كبر!

وعلى هذا فوالدي في منتهى الكبرياء والعنف، إذ يستحيل أن يكون في هذا الوجود رأيٌ خيراً من رأيه، وفكرةٌ أكثر صحةً من فكرته، وعلى من يخالفها أن يتحمل نتائج مخالفته. أتذكر حين هجم أبي على أحد جيراننا لأنه قال لوالدي كلمة بذيئة، هجم عليه ولم يتركه إلا ودم جارنا يغطي وجهه وبقي والدي في السجن على إثرها أسبوعين حتى تنازل عن حقه الجار، الذي لم يتوقف الجيران وأهل القرية عن مطالبته بالتنازل مقابل ما يشاء من التعويض، وأن عليه ألا يعرض نفسه للمخاطر مرةً أخرى مع شخصٍ كهذا!

أما أمي فلم تكن في القرية كلها من تضاهيها، وما زالت تتحدث حتى اليوم بزهوٍ عن تعرّض والدي لمحاولات القتل، لأنه استطاع أن يخطفها من بين فتيان القرية، ولأنها زوجة هذا الشقي فقد تحملت من المسؤوليات والشقاء والعذاب والألم، ما لا يطيقه سواها، فقد بدأت معه من الصفر، ففي اليوم الذي تزوجته كانت تشمر عن ساعديها وتقرب له اللبنات والطين اللازب ليرفع جدران البيت الذي سيؤويهما، وكذلك فقد كان يسافر ويغيب عن البيت الشهر والشهرين والثلاثة وتتولى رعاية الأطفال والكد لإطعامهم وتربيتهم وحمايتهم، لا تشتكي ولا تفتر عن عملها هذا، وكان

والدي يعرف حجم ما تفعله وما تتحمله من المسؤولية فيكبرها ويحيطها بكل رجولته وشقائه ولا يسميها إلا «أمنا»..

ولأمي قاموسها، الذي لا يجيده غيرها في كل حالاتها، فهي حين تقبل أو تدبر أو حين تفرح أو تغضب فلها كلماتها وعباراتها، التي يرددها الناس بعدها، وتبقى كلمتها حين تمدح أو تشتم أحداً تسميةً وقرينةً لا تنفك عن هذا الشخص أبداً. المشقات تبتكر لنا قواميسنا الخاصة، فما نتعلمه من الخوف أضعاف ما نتعلمه من الأمن، والدمعة تقول كلاماً كثيراً عن الحياة، لا تجيده الابتسامة، والجوع يشرح ويشرح، ولأن أمي بكت وجاعت وشقيت فقد كانت لها زاويتها التي تتحدث منها وتنظر من خلالها إلى كل شيء.

أبي وأمي.. قدري أن أتخلّق شيئاً ما بينهما، أو متطرفاً في حالتيهما، فشيءٌ ما سيأتي إلى الحياة، يمكن أن يكون جباراً، ويمكن أن يكون حنوناً، ويمكن أن يكون شيئاً بينهما.. ويمكن أن يكون كليهما بتطرّف. سأقول إن شخصاً هكذا هما أبواه سيكون أشبه ببيتٍ بسيطٍ جداً لكن بوابته من فولاذ، فهو أصعب الناس، وهو أسهل الناس!

أيضاً لا أظن أنني سأكون أفضل حالاً مني الآن لو كان أبي دافنشي وأمي كليوباترا. سأكون أنا رغماً عن كل شيء. نحن في البدء نُخلق، ثم تجيء اللحظة التي يكون بوسعنا فيها أن نخلق أنفسنا على طريقتنا التي نختارها من جديد!

٦

مجتمعنا الجنوبي كان جميلاً ميالاً للموسيقى، وحكايات الحب به لا تنتهي، لقد عاش الناس هنا حياةً شفافةً ورقيقةً وفطرية، رغم بدائيتها. كان هذا قبل أن يأتي عرف آخر، حرّم كل شيء وجعله عاراً!

أجدادنا تزوجوا عن حب، وآباؤنا الذين عاشوا قبل خمسين سنة، على الأقل هنا في عسير، التقوا أمهاتنا واتفقوا على الزواج واختار بعضهم بعضاً، على العكس مما يحدث الآن وأكثرهم ما زال على حنين إلى تلك الأيام التي يسمون صحبتها بـ«صحبة النقا»!

إذن لا يمكن للشاب أن يلتقي أية امرأة إلا سرّاً، ولا يستطيع اختيار التي تقاسمه عشرات السنين. أسرته تزوجه وتفعل كل شيء نيابةً عنه!

نشأت أنا في بدايات هذا الاعتساف وحدته، فكانت المرأة مغيبةً تماماً عن عالم الذكر، والذكر مغيبٌ عن حياة الأنثى، وإذا وجدت علاقة ما بين رجلٍ وامرأة فإنها ستكون على سبيل التخفي والمغامرة، وكثيرون عندنا يعتبرون اقتحام بيوت الآخرين وعيش

مغامرات الحب مع نسائهم بطولةً وفحولة، أما إذا اقترب أحد من داره فإنه لا يتورع عن القتل!

«حَسَن»، أحد أبناء قريتنا المجاورة، التقى الكثير من الفتيات وجامعهن وسهر معهن، وتعرّض للكثير من المواقف، وذات يوم وجد حسن شاباً مع أخته، فهرع إلى البندقية وأخذ يلاحق هذا الشاب حتى أدركه ثم أفرغها في جوفه، ولولا أن البنت اختفت عن عينيه يومئذ لكان قتلها أيضاً، وبالطبع فإن حسن انتظر زمناً القصاص. سيقتل حسن بالسيف أمام الناس جميعاً، والناس يتحدثون عن بطولته وأنه رجلٌ عظيمٌ جداً، وما زالوا يلعنون ذلك المقتول. أما الفتاة فتعذّب بالضرب والإهانات كل يوم، وأخيراً اقترح أحدهم أن يرسلها والدها إلى أخيها هناك في جدة، ثم لا يراها بعد تلك اللحظة!

سيكون الذكر جلاداً للنساء من أهله، سيكون رقيباً فظيعاً لن يسمح لهن ولو بالنظر إلى غير مواضع أقدامهن، وسيكون عدوانياً تجاه كل من يقترب منهن وسيعتبر هذا لو حدث اعتداءً على شرفه!

إن أكبر لعنةٍ على أي طفلٍ أو صبيٍ أو شاب أن يكون جميلاً، لأنه سيتعرض للتحرشات والإساءات، وسيعامله الكثير ممن حوله على أنه الأنثى التي يطاردونها بغرائزهم، ولأنني كنت وسيماً فسيحدث هذا أيضاً مع أبناء الحي، مع الكبار منهم، ويتضخم هذا الأمر بداخلي حتى يصير الخروج من المنزل شيئاً مرعباً، ولأنني الصغير الوحيد، فقد كان من المستحيل أن أشكو ما يصيبني إلى إخواني، الذين لا يتورعون عن تحويل أي شيء إلى

سخرية، ومستحيلٌ أن أشكو أحداً إلى والدي الذي سيضربني قبل أن يهب لحمايتي. إذن فقد كان عليّ أن أهرب، أعتزل، أعيش في البيت أكثر الأوقات، أصبر، أحزن، أبكي، وأن أكون وحدي فوق ما أطيق. كل هذا لأحافظ على كوني رجلاً!

لم تكن لي من سلوةٍ أكثر من اللجوء إلى أغنامي وقططي. أحببت الأغنام والقطط حتى كان إخواني يعيرونني بالقطط ويسمونني بها. أتعلق بها وأشتكي إليها ما يخيفني وأبكي معها طويلاً.. حتى النوم كنت أقاسمها إياه، فتنام معي قطتان أو ثلاث في فراشي، وفور اكتشاف أمي هذا، فإنها تغضب غضباً شديداً وتطرد القطط وتشتمني!

الإنسان يهرب إلى الحيوان إذا فقد أخاه الإنسان، الأثرياء يحبون الكلاب والخيول والفقراء، والأطفال يحبون القطط والطيور..

الأثرياء يحبون الكلاب والخيول، إثر صدمتهم في الوفاء الذي يبحثون عنه، لا يجدونه في أحدٍ من بني جنسهم، فيطلبونه عند هذه الحيوانات، والأطفال والفقراء يفتشون عمن يحنو عليهم، ويغني لهم فالقطط تلعق أنوفهم وتنام في أحضانهم وتلتف على رقابهم، والطيور تغني لهم أغنياتٍ طويلة!

لي ذكريات كثيرةٌ قليلة مع واحدة من بنات الحي، بنت جارنا، كان اسمها سلوى وكانت جميلةً ومنسجمة معي ومع طباعي.. هي ذكرياتٌ كثيرةٌ لأني عشت مع هذه الفتاة طوال ثماني سنين من طفولتي ما كنا نفترق، حتى صرت وإياها قصةً تثير

استغراب أهلي وأهلها حيناً، وحيناً تثير ضحكهم ونكاتهم، وهي قليلةٌ لأنه لا يوجد في طفولتي فتاةٌ غيرها، فالغلاة الشرسون والعادات الجديدة القادمة أقنعت الناس بأن يكبلوا نساءهم بهذه الأقمشة السوداء، حتى الصغيرات منهن، وليس غريباً أن ترى فتاةً في العاشرة من عمرها، وهي تغطي وجهها ولا تختلط بالأطفال، ولا تستطيع اللعب إلاّ مع البنات مثلها بداخل البيت، حيث لا يراهن أحد!

سلوى فقط من بقيت تلعب وتجلس وتشتكي وتعيش طفولتها معي، فمنذ أستيقظ أو أعود من رعي الأغنام لا بد أن أذهب إليها، أو تجيء إليّ.. كنا نمثل تمثيلاً بريئاً جميلاً. كنت أمثل دور الأب، وتمثل هي دور الأم. أخرج من المنزل وأعود إليه بعد خمس دقائق، وتمثل أنها تنادي أبناءها: «تعالوا جاء أبوكم من السفر.. تعالوا قبلوا رأسه ويديه» ثم تلتقيني وتحتضنني وأحتضنها على طريقة المسلسلات. لا أنسى البكاء الذي بكيته حينما زوجها أهلها، على صغر سنها، رجلاً في الأربعين من عمره، كانت في الرابعة عشرة، وأرغمتها أمها على أن تتزوج بهذا الرجل، وفي كل مكانٍ يصادر الإنسان يمكنك أن ترى طفلة بجوار رجلٍ مسن، لن تكون دائماً ابنته، بل ربما كانت زوجته. هذه كارثة لم يتخلص الناس هنا منها تماماً، فما زالوا يتعاملون مع النساء كفرص محتملة للشراء! يحدث أحياناً أن الذي يدفع أكثر يحصل على الفتاة التي يريدها، مهما كان كبيراً ومهما كانت صغيرة، ومهما بكت وتألمت لهذا!

لقد باتت سلوى اليوم محطمة تماماً، فتاة في الثلاثين من

عمرها، مطلقة، بائسة، حزينة، تكره الرجال جميعاً، ربما تكرهني أنا أيضاً!

في عسير يقولون: «من تقرصه الأفعى يخف من بعوضة» والبنت التي قرصتها أمها وعبثت بها الأقدار ستخاف حتى من صديق طفولتها، الذي ما زال حتى اليوم يسأل عنها ويتألم لأجلها كثيراً!

٧

في ١٩٧٩ بزغٌ أول لحكاية طويلة . .

ست سنوات من عمري تعني أنه حان وقت الدراسة، ذلك المكان الذي طالما غاظني به أخواي اللذان يكبرانني مباشرة «اليوم لعبنا . . اليوم لهونا . . اليوم قال لنا المعلم كذا وكذا . . غداً سنضحك . . ونرسم»، وقبل أن ينتهي الصيف ويبدأ العام الجديد، وفي يوم من الأيام، يحتدّ والدي وأكبر إخوتي. ذكرت أن أخي هذا كانَ متديناً لدرجةٍ مؤذية، وكادت حياته تنتهي تماماً لو أنه ثبت تورطه في أيٍ من أعمال احتلال الحرم المكي!

أبي يريد أن يضمني إلى أخوي الاثنين في المدرسة نفسها، على مبدأ أن الأعواد يصعب كسرها إذا صارت معاً. كانت مدرسةً حكوميةً عادية كغيرها من المدارس، وكان أخي المتديّن يصرّ بكل ما يطيقه أن يأخذني معه إلى المدرسة القرآنية، فقد كان يعمل معلماً فيها، وقدّم كل الحجج والمبررات لتسجيلي فيها . . «سيحفظ القرآن كاملاً»، «وأنا معه . . أحميه وأشرف على تعليمه عن قرب»، «في هذه المدرسة يعطونه مالاً كل شهر» . .

لكن لم يكن من اليسير أن يقتنع والدي بحجج أخي هذا الذي تسبب بمتاعب كثيرةٍ له، وكان يخيفه أن يصبح هذا الطفل

الصغير مثل أخيه، أن يصير متديناً مؤذياً، فما كان من أخي إلاّ أن اختلى بي وأخذ يرغّبني في هذه المدرسة: «زاهي.. المدرسة القرآنية تضمن بها الجنة، فيها ستحفظ القرآن، وتصير شيخاً كبيراً، يحبك الناس ويطلبون إليك أن تدعو لهم..»، «في المدرسة الكثير من الألعاب والمرح والمال، وسيكون معك الكثير من المال لتشتري به ما تشاء، ألا ترى بقية إخوتك لا يحصلون على أي مال من مدارسهم!»، «سأعطيك كل ما تريد لو طلبت إلى أبي أن تكون في هذه المدرسة!»..

كان كل شيء مغرياً، وامتلأت نفسي بالأحلام داخل هذه المدرسة فبكيت، وولولت، وصحت، وجادلت ليوافق أبي على أن أدرس بالمدرسة القرآنية، وبعد محاولاتٍ كثيرة استسلم أبي لبكائي وصراخي..

يستطيع العسيريون أن يتجاهلوا كل شيء، لكنهم يتراجعون في كل مرة أمام دمعات الصغار وبكائهم، والذي لا يتأثر بالأطفال لا يصح أبداً أن يكون إنساناً!

يقال عندنا في عسير أن النمر لا يتعرّض للأطفال ولا للنساء.. النمر عندنا مثال الشجاعة والقوة والنبل، أما الذئب فهو الذي لا يتورع عن فعل كل شيء، ولا يعنيه أن تكون فريسته طفلاً أو امرأةً أو رجلاً أو دجاجةً!

أول أيام الدراسة..

اللحظة الأولى التي ألج بها المدرسة.. بي خوفٌ، وبي ترقبٌ، وبي فرح، لكنني ما كدت أنضم إلى مجموع طلاب فصلي

حتى بدأت أسمع التهديد والوعيد، كان المعلمون الدينيون يصرخون ويوبخون الصغار: «امش لفصلك»، «ما الذي أخّرك»، «قف عندك وأحضر يا فلان العصا» حتى دخل علينا أول معلم ولمجرد جلوسه أخذ يتهددنا بألوان العقاب إن نحن لم نمتثل لأوامره ونواهيه!

في الفسحة.. يدخل مدير المدرسة، ذلك الرجل المتوحش، المقصف ليرى طفلاً شامياً يلبس البنطال فيصرخ صرخةً أسكتت جميع الطلاب. قال للطفل «تعال هنا» فجاءه الطفل يكاد يغشى عليه من الخوف، ثم قال له: «أين هو الثوب الذي يسترك؟ لم تأتي بهذا البنطال الذي لا يلبسه الرجال؟!».

حاول الطفل أن يشرح دونما جدوى أنه عائد توّاً من بلاده، وأنه لا يعرف أنه لا بد أن يلبس الثوب، وأنه لم يذهب والده بعد إلى السوق ليشتري ثوباً له. ضربه المدير آنئذ في كل جسده.. جَلَده ببشاعة. كان يمسكه من فروة رأسه، ثم يرنحه يميناً وشمالاً ويقول له: «ستكون رجلاً رغماً عنك.. لا تلبس لباس الكافرين هنا!».

لا أنسى أبداً بكاء الطفل وهلعه واستنجاده، ولا أنسى أني حين توارى المدير عن أعيننا هربت إلى فصلي واختبأت تحت إحدى الطاولات مذعوراً أن يدخل علينا هذا المدير فيفعل بي ما فعله بالطفل الشامي. لقد كانت صدمةً عنيفة. كانت كل كلمات أخي عن اللعب والمرح وطريق الجنة والسعادة تتحول إلى أشباحٍ مخيفة، لها أنياب حادة تنظر إليّ وتقهقه!

ومرّ الوقت ومرت السنة الأولى، وعلمت أني ناشبٌ في دائرةِ

من الخوف والعذاب والألم، ولأن الطفل مخلوقٌ شفافٌ، لا يمكنه إلاّ أن يكون مباشراً وصادقاً حتى يضطره الآخرون من حوله إلى الهرب والكذب وأن يكون شيئاً آخر، غير ما هو في أصله وداخله، كان لا بدّ أن أكون شخصاً آخر غيري وأن أهرب إلى داخلي، وهكذا بدأت حكاية التمثيل والتصنّع والظهور على طريقةٍ غير تلك التي هي أنا. حدث هذا لأنني كنت أحب الفراشات، وفي حصة الرسم اعتنيت بإحداهن لأرسمها فهوت على يدي عصا المعلم، وحين سحبت يدي من شدة الألم، صرخ بي: «إن رسم ذوات الأرواح حرام». . أمرني أن أرسم المساجد والكعبة والقدس التي كنت أحبها وهو فقط من نزع حبها من قلبي يومئذ، فرسمتها والرهبة والبكاء والغضب والحزن وأشياء كثيرة تصطرع بي!

وحدث هذا لأني كنت في مسجد المدرسة، أفتت قطعاً صغيرةٍ من المنديل، وأنفخها بفمي، فيجيء أحد المعلمين إليّ ليجلدني بعصا الخيزران على يديّ، وبعد أن ينتهي من كل جلدة أتوسل إليه أن يتوقف، وأعاهده أني لن أعود إلى فعل هذا. . فلا يستجيب!

وحدث هذا لأني كنت في تلك السنوات الابتدائية أرى من الممارسات ما فجعني، فمثلاً كان ازدحام الطلاب على مداخل الفصول ومخارجها وعلى نافذة المقصف مريباً، فقد كان كل هؤلاء يتلاصقون حتى إني قررت آخر الأمر ألاّ أدخل الفصل إلاّ آخر الطلاب، وألاّ أخرج منه إلاّ آخرهم، وألاّ أشتري إفطاراً من نافذة المقصف!

أذكر أني حاولت التمثيل على والدي بأني أعاني من بطني،

وأني مريضٌ جداً، وما كان بي من شيء، ولم يكن بي سوى أني لم أحفظ الواجب المحدد من القرآن، وكنت أعرف أن جلداً وحشياً بانتظاري فحاولت ابتكار أي عذرٍ للغياب، وبالفعل وافق والدي على ألاّ أذهب إلى المدرسة اليوم، لكنني لفرط فرحي وذهولي بموافقة والدي لم أستطع البقاء في فراشي، وبعد لحظات قصيرة دعاني والدي وأمرني بلبس ثيابي وحمل حقيبتي ليوصلني إلى المدرسة، فبكيت وبكيت لكن لم يكن ثمة من فرار، فأبي لا يتراجع حتى لو احترق العالم كله!

كان الفظيع أن والدي، حين بلغنا المدرسة، طلب إلى مديرها أن يضربني لأنني قلت إني مريضٌ كذباً، فسألني المدير عن سبب هذا، وحدثت نفسي بالصدق، الذي ربما شفع لي، فيرون أني كفرت عن كذبتي بالصدق، وقلت على الفور: «فعلت هذا، لأني لم أستطع حفظ القرآن، وخشيت أن يضربني الأستاذ!». . حينئذ غمز والدي مدير المدرسة، واستأذن ومضى!

ساعة يرى أحدٌ ما مؤامرةً تدبّر ضده هكذا في العلن، ولبالغ صغره وضعفه لا يملك غير النظر والانتظار فإن داخله يتهاوى. يتساقط قبل أن يمسه من تآمر عليه. لا أعنف من أن يتداعى البنيان من داخله!

أوقفني المدير في نهاية غرفته ساعتين. ساعتين من القهر والعذاب النفسي، خصوصاً وهو يسحب الخيزرانة، تلك العصا الملفوفة، ويضعها على طرف مكتبه، ثم يحدّق إليّ من وقتٍ لآخر بنظراتٍ تمشي في جسدي كالكهرباء. قام آخر الأمر قائلاً: «افتح يديك» وضربني بعصاه تلك على كفي اليمنى، ثم كفي

اليسرى على التوالي، وحين انتهى صبري، ولم أعد قادراً على احتمال أي جلدة، رفضت مدّ يديّ لخيزرانته، فأخذ يضربني على سائر جسدي، ضربني حتى جثوت على الأرض، حتى تمددت عليها، ولولا أن بعض المعلمين في الغرفة تحركت رحمتهم عليّ فقاموا يمنعونه من مواصلته تعذيبي ما كان ليكفّ عن تلك البشاعة!

لبست الثياب القصيرة، وهدّلت الشماغ على صدغي، ولم يكن السواك ليفارق فمي، وتعلمت كلماتهم ودعواتهم الخاصة، لكنني كنت كائناً آخر في داخلي، أحب الأغنيات والصور والرسم واللعب، ولا أستطيعها ولا أتمكن منها. أجل كنت أصلي وأقف والسواك بفمي، لكنني لم أكن على وضوء، وكنت أصلي وأجلس في المسجد، لكني كنت أكرههم!

من الممكن أن يقبل الكبار الخديعة. يمكن أن يحتملوها وأن يعتبروا أن الدنيا هكذا مجموعةٌ من الأفواه، وأكثرها اتساعاً هو الذي يلتهم ما دونه، لكن الطفل لا يستوعب الخدع أبداً، ولا يمكنه أن يواجه الخدعة بغير البكاء، بغير أن يختبئ في الزوايا ويدس رأسه في أي مخبأ، لأنه لم يكن عارفاً من قبل أن في الدنيا كذباً وخداعاً وخيبة أمل!

كنت أقضي يومي على هذه الشاكلة: أستيقظ فزعاً كل فجر على صراخ والدي، الذي ينادي لصلاة الفجر. كان يدعونا والدي بصرخة واحدة لنهب جميعاً ولنصطف وراءه، وطالما عوقبت عقاباً أليماً لأنني تأخرت عن ركعة من الصلاة، أو فاتتني الصلاة كلها،

ومع لحظات الصباح الأولى أتهيأ للذهاب إلى المدرسة، وأكمل ما بقي من الواجبات، التي لم أكملها والحفظ الذي لم أتمّه، وفي مخيلتي صورة مدير المدرسة البشعة والمدرّسين القساة!

يمضي الوقت الشاق في المدرسة، حصص القرآن وما فيها من الرعب، وحصص الدين والمساءلات، حتى تأتي ساعة الفرح الوحيدة في اليوم وهي ساعة خروجي من ذلك المعتقل وعودتي إلى البيت.. وفي البيت أقضي الوقت، حتى يحين العصر، في إنجاز بعض الواجبات وحفظ القرآن، لأنه يتوجب عليّ أن أخرج مع أغنامي لرعايتها بعد أن أؤدي صلاة العصر!

كثيراً ما كنت أمرّ بغنيماتي أمام أبناء الحي، وهم يلعبون الكرة ويجولون بدراجاتهم الصغيرة، فتتعالى ضحكاتهم «الراعي.. الراعي.. الراعي». كنت أعرض عنهم بزهو مصطنع، لكن بداخلي جرحاً عميقاً، إذ لم أكن مثل هؤلاء، أنعم باللعب والمرح، حتى إذا ما خلوت بأغنامي هجمت على بعضها لأضربها وأشتمها، وأحمّلها سبب حرماني، ثم أبكي بكاءً حاراً!

عادةً ما يكون المصحف معي، لأحفظ الجزء اليومي المرهق منه، والذي يلزمني أن أقضي وقتاً واسعاً لقراءته وإتقان حفظه وتجويده، لأنجو من الخيزرانة في الغد، والوقت الوحيد الذي يمكنني فيه اللهو واللعب ومشاهدة التلفاز هو بعد عودتي من رعي الأغنام، أي بعد غروب الشمس، ولم يكن ذلك الوقت ليستمر طويلاً، فبعد أن أصلي العشاء مع إخوتي ووالدي أنكب على الدروس والقرآن!

مرات كثيرة تلك التي يأتي أبي فيها إلى الغرفة، التي تجمعني

وأخويّ اللذين يكبرانني، لأسمعه ما حفظته من القرآن قبل أن أنام، كنت أبكي بمرارة، لأن أخويّ ينامان بطمأنينة، ويضحكان على ما أعيشه من الرعب، وفوق هذا يحدث أحياناً أن يضربني والدي، لأنني بكيت كالنساء، أو لأنني لم أحفظ القرآن كما يجب!

تنتهي سنوات الدراسة الابتدائية، كانت ست سنوات من أفظع ما يمكن وكان والدي يريد أن أكمل المرحلة التي تليها في المدرسة نفسها، فقد أعجبه حفظي لهذا الكمّ من القرآن، واقتنع أنه المكان الذي سيحفظني، لكنني تعاصرت أمامه باكياً مرة، وصارخاً مرةً أخرى، وشاتماً، ومحتجاً، ومهدداً بالهروب مستغلاً انتقال عمل أخي المتدين إلى مدينةٍ أخرى، ضامناً أنه لن يكرهني على البقاء بهذا المكان، وتدخلت والدتي أيضاً لإقناع أبي، وبعد لأيٍ كبير وافق على أن أدرس المرحلة المتوسطة في إحدى المدارس الحكومية العادية، متهماً إياي بأنني لست من أهل الخير، وأنه غاضبٌ مني لأنني أترك كتاب الله والصالحين، وأطلب الدراسة عند غيرهم، لكن ذلك لم يكن ليعني لي شيئاً، فأي عذابٍ وأي رعبٍ سيكون أهون علي من السنين الفارطات، والآن وقد حانت الفرصة للفكاك من هذا الأسر فلن أتراجع، مهما كانت التهديدات والخسائر، فناضلت وأخيراً حزت ما أريده..

سنوات المرحلة الأولى والثانية من طفولتي كانتا مداراً ضخماً من المفزعات والآلام، فأنا الطفل الذي تحاصره المخاوف من والده وإخوته وأقاربه وأبناء حيّه، وأنا الطفل الذي ألمت به

حالات الرعب حيال المدرسة القرآنية ومن فيها، تلك المدرسة التي مثلت خيبة الأمل الأولى وفقدان الثقة بأية وعود من سماءٍ أو أرض!

عليّ أن أقول إن أشياء كثيرة شكلتني في هذا البدء، وأشياء كثيرة تشكلت بداخلي، فالله لم يكن في تصوري الطفولي حينئذ يخذل الأطفال، ولم يكن غير متوحشٍ منتقم يداه مملوءتان بالجمر والكلاليب والسياط، وفي اللحظة التي يموت الأطفال فإنه سيلتهمهم وسيضحك طويلاً على تقلبهم في ناره الكبيرة، كما يقولون لنا عنه دوماً!

القمعية العنيفة التي واجهتها نفسياً وجسدياً جعلتني أكره كل ما يتصل بالسماء، وأتذكر مرةً أن والدي والمدرسة أكرهاني على صيام رمضان، وحين كان يهزمني الجوع والعطش كنت أخرج من البيت، وبداخل ثيابي شيء من طعام وماء، فإذا تواريت عن الأعين أكلت وشربت، وغالباً ما كنت أنظر إلى الأعلى وأهمس أني أكره كل ما هو فوق. هذا ما تركوه عن الله بداخلي والجأوني إلى التصنع والتمثيل، وبات أكبر أعدائي بداخلي هو ما كان يجب أن يكون أحب شيء إليّ!

لا بدّ أن أقول إنه وسط ذلك الحشد من المخاوف التي عشتها تلك الأيام إلا أن تلك المدرسة قدمت لي جميلاً واحداً وهو أني امتلكت فصاحةً معقولة، وباتت لغتي متجاوزةً لأكثر إخوتي، فهذا حتميّ جداً لطفلٍ حفظ نصف القرآن وكتبه أيضاً مراراً وتكراراً، حتى إني ما كنت لأخطئ في قراءة شيءٍ، وكان عندي من سلامة اللسان ما هيأني منذ البدء لأكون لغوياً، ولأفهم ولألمح في ما

أقرأه وأسمعه من الكلام ما لا يلمحه إلا أنا ممن هم في سني أو حتى أكبر مني بقليل!

مما علق في ذاكرتي من عالمي الصغير حزني البالغ، ووحدتي التي كانت أكبر من أن يخفف وطأتها عليّ دخول أختيّ إلى عالمي، فأنا أعرف أنه لا قيمة للرجل إلاّ بين الرجال حينئذ!

المرأة التي كانوا لا يذكرون اسمها في حديثهم، وإذا ما ورد حديثٌ عن امرأةٍ ما اعتذر بعضهم لبعض وللمجلس من هذه القذارة، فيقولون مثلاً في سياق حديثهم عن شأن ما يخص امرأةً ما: «فلانة.. أكرمكم الله!» ولم تكن أختاي لتخرجاني من ألمي وحزني ووحدتي، فأنا أشعر أنه لا مكان لي كرجلٍ عند أحد، وعليّ حينها أن أتعوّد ألاّ يكون معي أحد، وأن أكونَ أنا.. وأنا فقط!

ومن عالمي ذاك نزوعي إلى الجماليات، التي كنت أحدث نفسي أنه لا يعرفها ولا يفهمها أحدٌ مثلي، فأنا فقط من يبكي إذا رأى مشهد عناقٍ في التلفاز، وأنا من يدس رأسه في الفراش كل ليلة يحلم أنه «ريمي» الذي يهاجر مع كلابه من مكان إلى مكان في المسلسل الكرتوني، وأحلم كثيراً أنني «عدنان» الذي يضم «لينا» ويخلصها من الأشرار في مسلسلٍ كرتونيٍ آخر، وما أكثر ما كان يتندر عليّ أخواني لأنني بكيت وأنا أتابع مسلسلةً أو فيلماً أو رسوماً متحركة، على أنه كان من النادر حقاً أن تتاح لي فرصة متابعة التلفزيون!

ومنه.. قصتي الطويلة الطويلة مع بنت جارنا، تلك القصة

الملأى بالحب العفوي والبحث والفقد والشوق واللهو والضحك، والملأى أيضاً بتضاحك أهلي وأهلها علينا.. حقاً لقد كانت شيئاً جميلاً في طفولتي، ما زلت أتلذذ بتذكره حتى لحظتي هذه، ما زلت أهتمّ بمصيرها رغم أنها لم تعد في قلبي أكثر من أنها صديقة التعب والطفولة الأولى، ولا أنسى هلعي حين قالوا إن أهلها زوّجوها، وهي لما تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد، فكم لعنتهم، وكم شتمتها لأنها استسلمت لهم!

٨

في نهاية ١٩٨٤ أتممت الدراسة الابتدائية القرآنية، وفي صيف تلك السنة قبل والدي على مضضٍ أن أنتقل في السنة التي تليها إلى مدرسةٍ أخرى في الحي، فقضيتُ أكثر الإجازات الصيفية في طفولتي متعةً وفرحاً، وعطف والدي عليّ مرةً أخرى فاشترى لي دراجةً صغيرة أسوةً بالبقية من أبناء الحي، فقد رآني معهم غير مرةٍ وهم على دراجاتهم وأنا أتابعهم بحزن!

الشنيع أن تلك الدراجة لم تعش معي أكثر من ثلاثة أيام، حيث تسلل أحد أبناء الحي إلى فناء بيتنا وسرقها وحتى يزيد في غبني فإنه لم يسرقها ليستعملها، بل ليحطمها ضلعاً ضلعاً.. وحين اكتشفت هذا ضربته حتى كدت أقتله. كنت أعرف أن والدي سيضربني ضرباً أكثر عنفاً لأنني ضيعت مالي، ومن يضيع ماله في منطق العسيري ليس جديراً بالحياة، إنه جديرٌ بالشتائم والسخرية فقط!

الناس كل الناس تمرّ بهم لحظاتٌ يشعر الواحد منهم خلالها بأنه موجودٌ في هذه الحياة ليتألم، وأن عليه أن يتيقن أنه مهيأٌ للشقاء لا غير!

هكذا وبسرعةٍ يمر الصيف، وتحلّ السنة الدراسية ١٩٨٥

وألتحق بمدرسةٍ جديدة، ومن يومي الأول بها فرحت أنه لا ضرب بها ولا عصيّ ولا حفظ للقرآن، أنه لا رعب ولا مخاوف، وأن عمراً جديداً يفتح صدره لي. كنت أشعر أني خرجت من كابوسٍ طويل، وأن وقت التلذذ بالأيام واللعب والحرية أعلن نفسه.. وهذا كله انتقالٌ ترك بداخلي صدمةً عنيفةً جداً، صدمةً جعلتني أتمرّد على أهلي، حتى لا يخطر ببالهم من جديدٍ أن يعيدوني إلى تلكم الحياة المفزعة السابقة، بالرغم من أني بقيت على رعايتي الأغنام وبعض الحرمان من اللعب. لقد كنت أتلذذ بهذه الحياة الجديدة، تماماً كالذي يقتص من الأيام ما اختلست منه من سعادته!

وأيضاً.. انفجر تلك الأيام هوسي بكرة القدم، فكانت هي كل شيء، كل شيء داخل المدرسة وبعدها، وحتى مع أغنامي كنت أصطحب الكرة، فأضخم حلم في حياتي حينئذ أن أكون لاعب كرةٍ مشهوراً في نادي الهلال الرياضي، غارقاً في خيالٍ بعيدٍ أرى فيه صورتي بالصحف، وأرى الأهداف التي أسجلها وهي تعاد في التلفزيون. لقد كنت أدعو بكل صدق وبكاء أن يجعلني الله أشهر وأغنى وأسعد من في هذا الوجود!

بتلك المدرسة أحببت المعلمين، وأحببت الدراسة، وتألقت كثيراً حتى صرت حديث المدرسة، لاسيما بعد ذلك اليوم الكبير، ذلك اليوم الذي يستدعيني مدرس مادة العلوم ويقول لي: «إن مشرفاً علمياً جاء من الرياض لزيارة المنطقة ليرى الطلاب المتميزين على مستوى المنطقة» وأنه سيدعوه ليراني أنا فقط في هذه المدرسة، وعليّ أن أستعد لذلك وألا أخذله.. وبالفعل جاء هذا المشرف، وأذكر جيداً كيف أنه كان يقف بالفصل فيسأل

ويسأل، ولا أحد يرفع يده للإجابة سواي، وكيف استدعاني وطلب إليّ أن أحضر والدي بالغد، وسألني عما إذا كنت أريد الذهاب معه إلى الرياض! فرفضت لأن أبي رفض، لكن سعادتي وتيهي بذلك الموقف لم يكن ليعدله شيء، وكنت أسمع والدي أيامها يقول إن ابني هذا أكثر إخوته ذكاءً وبركة!

مما بقي في الذاكرة أني عشت أيامها كل أشكال العبث والفوضى، وتمردت على أسرتي، لدرجة أنهم ألفوا ألاّ أعود إلى البيت إلاّ في أوقاتٍ متأخرة، يكون قد دنا الليل حينها، وألفت بدوري ضرب والدي إياي، ولم يكن هذا ليمنعني من تكرار ما أريده من العبث!

وقفت يوماً على ناصية الشارع وبيدي علبة معدنية، والسيارات تمرّ واحدةً تلو الأخرى، ومرت سيارةٌ كان بداخلها ذلك الرجل الملتحي الضخم، الذي يشبه مدير المدرسة القديمة، وكانت النافذة التي يجلس إلى جوارها مفتوحةً، فلم أشعر بنفسي إلاّ وأنا أسدد هذه العلبة بكل قوتي لتصيب الرجل وهو بداخل سيارته، فتوقف على الفور واستدار بسيارته يطاردني، لكنني تمكنت من الهرب، وتمكن هو من معرفة من أكون ومن هو والدي عبر وشايات أبناء الحي الذين رأوا المشهد، واستوقفهم يسألهم عن اسمي وبيتي. . جاء إلى أبي واشتكى إليه ما فعلته به، وأقسم له أبي أن يضربني ضرباً أليماً وقدم له الاعتذارات الطويلة، فانصرف الرجل وهو على درجةٍ كبيرةٍ من الغضب. وبالطبع فقد نفذ والدي قسمه، وضربني حتى شعرت بالدوار وشارفت الإغماء، ككل مرة!

ومن الذكريات أيضاً أنه كان لأخي الأكبر مكتبة ضخمة، استطعت الوصول إليها وسرقت منها كتاب ألف ليلة وليلة. . ومن هناك ابتدأ ولعي بالقراءة، والذي انطلقت بعده إلى أغاثا كريستي وقصص الأنبياء وقراءة أية قصة تقع بين يدي!

وبالرغم من أن المدارس جميعاً كانت في بدايات تعرضها لموجة التديين إلاّ أنها كانت أخف وطأةً مما كان يحدث في المدارس القرآنية من إكراه جميع الصغار على التدين وبمنتهى القسوة!

إذن وبعد وقتٍ من هذا التحرر من الرعب والخوف كانت قد تكونت بداخلي الكثير من النقائض، وهذه نتيجةٌ حتميةٌ لما ترددت بداخلي من العالمين النقيضين عالم الرهبانية والعصا والمخاوف والكراهية، ثم عالم الحرية واللهو! . لقد كانت نقائض لا تنتهي، فأنا العابد حيناً والفاسق حيناً آخر، وأنا الناسك والمجاهر، والطيب والمعتدي، والفاضل والسافل، والمنضبط والعبثي، وكل ضدين كنت أنا هما في وقتٍ واحد. . هذا ما انعكس على تعاملي مع الحياة واقعاً وشعوراً!

من تناقضاتي أني مرةً دبرت للسطو على متجرٍ بالحي لأنتشي بدهائي، ولم يكن بي من حاجةٍ إلى شيء، ولم يكن أكثر من استجابةٍ لما في نفسي!

الحكاية: انتظرت حتى اقترب موعد صلاة العصر فدخلت بين مجموعةٍ من الداخلين للتبضع إلى المتجر، ولأن المحالّ التجارية يجب إقفالها وقت الصلاة، فقد اخترت هذا الوقت بالذات، أي ما قبل الصلاة، ثم تسللت إلى واحدةٍ من الثلاجات

الكبيرة بالمتجر وجلست خلفها، وبالفعل لم يمض بعض الوقت حتى خرج كل من بالمكان، وأقفل المتجر للصلاة، وبقيت أنا وحدي، فتسللت إلى خزانة المال وفتحتها وأخذت منها ما يتسع له جيب ثوبي الصغير، ثم عدت إلى مكاني خلف الثلاجة، ولم يمض بعض الوقت مجدداً حتى انتهت الصلاة، وفتح المحل وعاد الناس للتبضع، وحين تكاثروا قمت لأخرج وفي يدي قطعة حلوى دفعت قيمتها ضاحكاً، ومضيت كأن شيئاً لم يكن.. وفي طريقي راجعاً إلى البيت التقيت شحاذاً مسناً يطلب مني ريالاً واحداً ليشتري به رغيف خبز، فيتحرك بداخلي الناسك الراهب القديم وأخرجت كل ما سرقته من المال وتصدّقت به عليه، لأشعر بسعادةٍ لا حدّ لها!

لقد كنت أيضاً الصبي الذي يترنّم بالقرآن، يرتله بأعذب ما لا يجيده أحدٌ في سني، وكنت الصبي ذاته الذي يشتم المؤذن حين يرفع صوته بالأذان، أو إمام الحي عندما يقرأ في الصلوات الجهرية.. وكنت أنا الذي يبكي لأنه رأى قطةً دهستها سيارة، أو رأى فراق حبيبين في مسلسلةٍ تلفزيونية، وكنت أنا أيضاً الذي يعجبه أن يحتال على والده أو أحد إخوته الكبار، يختلس من أكمام ثيابهم المال ويذهب ليشتري به ما يريده من الشوكولا والحلوى.. وكنت أنا الذي يدخل في مضارباتٍ عنيفة مع أبناء الحي، لأنهم سخروا من ملامح طفلٍ ما، وكنت أيضاً ذلك الذي يرمي الناس بالحجارة من وراء ستار!

وبسرعةٍ.. انتهت أيامي بتلك المدرسة الضد، التي استمرت ثلاث سنوات، كانت الانعتاق بعد الكبت والفرج بعد الضيق

والعبث بعد الحصار، والحرية بعد المعتقل، لقد كانتا مرحلتين متناقضتين في كل شيء، ولا يوحد بينهما سوى أنهما كانتا تصطرعان بداخل نفسٍ واحدة.. هذا ما خلفته تانك المرحلتان المتناقضتان بي في ذلك الوقت، ولا أدري هل كان هذا ممتعاً أم مؤلماً أم مضحكاً! كل ما أعرفه أني تعبت تعباً لم يتعبه طفلٌ ممن أعرفهم في البدء، ثم عبثت عبثاً لم يعبثه صبيٌ ممن أعرفهم بعد ذلك!

٩

حين يقوم الزمن من مكانه، فيأخذنا إلى غيبٍ جديد، ويترك أشياءنا خلفه، فإن حداداً كبيراً ينتصب فينا، لأننا سنعرف لحظتئذ من قيمة أشيائنا ما لم نعرفه في أي لحظة قبلها!

ساعة نقف في المطار لنودع أحداً ما فإن عواطف كثيرة، وأشواقاً كثيرة تتحرك لهذا المسافر، مهما كان شخصاً عادياً بالنسبة إلينا، قبل سفره ذاك، وحين نسافر نحن فإننا نكتشف كثيرين، تتدفق نفوسهم بالحب لنا، ما كنا نعرف عن حبهم ذاك شيئاً، وكذا الحال مع مراحل أعمارنا التي نعرف أنها إذا تخطاها الزمن لا تعود!

أوشك الحزن أن يفطر قلبي على مفارقتي مدرسة الحرية والسعادة والعبث، تلك التي قضيت بها ثلاث سنين، هي ما يمكن اعتبارها من عمري، ويا له من مشهد مختلف عن مشهدي الذي كنت أبكي به ليرق قلب أبي لي فيخرجني من المدرسة القرآنية! كنت أبكي رغبةً في الحياة وهروباً من الموت، وبكيت بعد المدرسة الجديدة على الحياة وخوفاً ألا يكون بانتظاري إلا رعبٌ جديد!

عليّ إذن أن ألتحق بالمدرسة الثانوية الأكثر انضباطاً بأبها،

كما يريد أبي، وامتثلت له على الفور لأن أخويّ تخرّجا فيها توّاً ومدحاها كثيراً، ففعلت ولتبدأ السنة الدراسية ١٩٨٨ ولأقتحم هذه المدرسة وهذه الحكاية الجديدة بشخصيتي المتناقضة والملأى بالمتضادات، ولم يكد يمضي الأسبوع الأول حتى صرت أشهر التلاميذ الجدد في المدرسة، عبر مشاكساتي ولعبي واستعراضاتي التي تمليها عليّ هذه النفس المزدوجة بي، ثم إنني كنت أفاخر بهذه الخصلة البيضاء من شعري فأكشفها دوماً، وأحبّ أن يتحدثوا عنها، طلاباً ومعلمين!

على الجانب الآخر هناك،حيث أسرتي عاد الجحيم المرير بداخلها يلوكني فإخوتي ووالدي يرون أني أمرّ في هذه السن بأخطر مراحل المراهقة، ولذا فإنه لا بدّ من قمعي ومراقبتي وحمايتي حيناً وردعي حيناً آخر. لا بدّ أن يحموني، فثمة في باطن وعيهم ما يملي عليهم أنه ما دام ابنهم على قدرٍ كبير من الوسامة والروح المشعّة فإنه معرّضٌ لانتهاكاتٍ جنسية في هذا الواقع الذكوري!

أحد أبناء الجيران حاول أن يعتدي صراحةً عليّ، واشتبكت وإياه في شجارٍ عنيف وتمكنت من إسقاطه رغم أنه يكبرني، ثم تركته وهربت فحمل حجراً ورماني به فشجّ رأسي، وعند عودتي إلى البيت لم أجرؤ على أن أخبر والدي وإخوتي عن سبب هذه الدماء برأسي، واحتملت كل الشتائم والاتهامات حتى لا يقع في نفس أحدهم أن ابنهم ليس رجلاً وأن أحداً ما عامله كمحطٍ لشهواته، وغير هذا ومثله الكثير!

ازدادت رغبتي في الهرب من جحيم أسرتي، ولو أن أحداً

استطاع إقناعي بالفرار إلى مكانٍ أثق به لفعلت، لكنه لم يكن أمامي من خياراتٍ سوى أن أقضي معظم الوقت مع الأغنام أو مع الكرة.. أو لاصطناع أي عذرٍ للخروج ومن ثمّ التأخر قدر ما يمكنني عن العودة إلى البيت الذي أعلم أنه لا ينتظرني فيه سوى سيل الشتائم، وربما الضرب، على أنني لم أكن أذهب إلى أي مكانٍ أكثر من أني أصعد إلى أعلى قمةٍ بالحي تطلّ على الشارع، أبقى هناك أراقب السيارات وأعدها وأتأمل الناس بداخلها!

فرحتي بالمدرسة، هذا العالم الجديد الأكبر حينها بالنسبة إليّ، أنستني الكثير مما أعانيه، ولم أكن أعلم أن ولوجي بناية تلك المدرسة إيذانٌ باقتراب ميلاد حكايةٍ ضخمةٍ جداً في حياتي، أسهمت أشياء عديدة بتعجيل موعدها، فما كانت سوى بضعة أسابيع حتى كنت محط أنظار جماعةٍ أنشطةٍ دينية بالمدرسة، كان يطلق عليها جماعة التوعية، وكان معظم المتفوقين من الطلاب والمؤثرين وذوي الطاقات الفذة في إطارها، ويشرف عليها معلمون متدينون، تبدو عليهم سمات الزهد وتعلو الهيبة ملامحهم..

كلفوا واحداً من الطلاب من منسوبيهم مهمة أن يسحبني إلى أنشطتهم وأن يغريني بأي شيءٍ لآتيهم ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط!

كان اسمه سعيد، وكنت أعرفه منذ أيام المدرسة الابتدائية، لقد كان لبقاً وذكياً، وكانت شخصيته تعجبني، رغم كل ما يحيط تصرفاته من الغرابة، وكان من الطلاب النادرين الذين يمتلكون سياراتٍ في سنّ مبكرةٍ كهذه، وهذه صفة مغريةٌ بالنسبة إليّ!

حدثني يوماً أنه يود أن يفاتحني بأمرٍ خاص وأن المدرسة ليست مكاناً مناسباً، وسألني إذا كان يمكننا أن نلتقي عصراً أو

ليلاً، وعلى الفور تخيلتني كواحدٍ من إخوتي الكبار، لي صديقٌ يأتيني بسيارته ونخرج معاً للتنزه والعشاء والسهر، فوافقت مباشرةً وأخبرته أني سأنتظره مغرب هذا اليوم، وحددت له الوقت والمكان الذي يناسبني أن أكون معه فيه، وبالفعل كنت لحظة غروب الشمس أمشي إلى أسفل الحي لأجده ينتظرني هناك، وبي فرحةٌ وانتصارٌ لا حدّ لهما!

مضينا معاً، وجلنا بالسيارة كثيراً وضحكنا وصرخنا، وبالرغم من هيئة صاحبي سعيد الدينية إلاّ أنه لم يكن ليتردد في فعل شيءٍ من هذا الضحك والصراخ معي ليلتئذ. اشترينا عشاءً بسيطاً، واتجهنا إلى حديقةٍ صغيرة بقمة الجبل، وتناولنا طعامنا هناك، إنها أول مرةٍ أركب بسيارةٍ للتنزه واللهو والسهر والضحك مع واحدٍ من أصحابي، حقاً لقد كان كل شيءٍ ممتعاً وآسراً في ذلك اللقاء، وفي طريق العودة متجهين نحو بيتي أخذ يحدثني سعيد عن الأمر الذي يريدني بصدده، فذكر أن رمضان اقترب وأنه لم يبق سوى بضعة أيام على حلوله، وأن جماعة التوعية تنظم دورةً في كرة القدم وأنه يحبّ أن أشارك في هذه الدورة الرياضية، فأنا بحسب تعبيره أفضل الطلاب الجدد موهبةً وتميزاً في لعب كرة القدم، وذكر لي أن هذه ليست رغبته فقط، بل إنه ينقل تحيات المعلم المهيب الشيخ حميد ودعوته إياي للمشاركة في هذه الدورة الرياضية، التي تنظمها الجماعة في ليالي رمضان بالمدرسة!

فرحت بهذا كثيراً، وخفت منه كثيراً، لكن كل شيءٍ كان يدفعني لأقول له إني سأكون معكم بكل فرح، كان هروبي من جحيم أهلي يجعلني مستعداً لأكون بأي مكانٍ إلاّ أن أكون بداخل

البيت الذي يعاملني كمراهقٍ يجب أن تحاصر كل أفعاله، أو كفتىً وسيم يجب أن يراقب حتى لا ينتهك أحدٌ جسده، وفي الحالتين كنتُ أهيئ نفسي للشتائم والصراخ وربما الضرب أحياناً.. إذن وافقت وسأتمرد على أهلي لأكون مع تلك الجماعة شاؤوا أم أبوا!

مضت الأيام ببطء، وجاء رمضان..

نزاعٌ كبيرٌ حدث بيني وبين أهلي ووالدي تحديداً ليوافق على انضمامي إلى أنشطة هذه الجماعة في ليالي رمضان، وانتهى هذا النزاع بقبوله غاضباً ناقماً شاتماً إياي بأنني عاصٍ، وأني لا أستجيب إلاّ لما أريده أنا، وأني لا أحترم رأيه!

ومن أول ليلةٍ برمضان كنت أصطف مع عددٍ كبير من الطلاب في ساحة المدرسة، ليحدثنا الشيخ حميد عن برنامج الجماعة طوال ليالي رمضان، وقوانين البقاء بها واحترامها، وأن وجود أيٍّ منا هنا يجب ألاّ يكون لمجرد لعب الكرة فقط، فهناك محاضرات وندوات ودروس علم وحفلات وعظية وتذكيرٌ بالله وصلاةٌ وعبادات كثيرة، وعلينا أن نلتزم حضور كل شيء وسيكون للدورة الرياضية وقتها من كل ليلة!

بعد صلاة التراويح من كل يوم، أي قرابة الثامنة والنصف ليلاً يكون الطلاب والمعلمون، المشرفون على الجماعة، قد حضروا إلى المدرسة، لتبدأ حينئذ جلسات الشاي التي تتخللها الطرائف والأشعار الحماسية والمواقف وغير ذلك، ثم يتهيأ الجميع للدخول إلى مسجد المدرسة للاستماع إلى محاضرةٍ يؤديها أحد المستضافين من الدعاة من خارج المدرسة، وغالباً ما تكون عن العذاب والنار والموت، ويضج المسجد كل ليلةٍ بالبكاء والاستعاذة

بالله من الجحيم والشقاء.. وقبل نهاية الوقت بساعة تبدأ المباريات الرياضية، لتجري كل ليلةٍ مباراتان بين فريقين، ويبقى الجميع للمشاهدة والتشجيع، الذي يجب ألا يكون إلا بواسطة التكبير (الله أكبر)، والويل لمن يصفق أو يصفر، لأنه سيكون متشبهاً إذذاك بالكفار!

على عجلٍ مرت ليالي رمضان، وكان فريقنا ينتصر كل ليلة وكنت ألعب بكل حماسة وإقبال وأحرز الأهداف وأتفنن في اللعب، حتى بلغ فريقنا المباراة النهائية في أواخر ليالي رمضان، وأخيراً أحرزنا البطولة وفاز فريقنا بالدورة الرياضية..

كانت المفاجأة تلك الليلة التي فزنا فيها أن المعلم، الشيخ حميد، كان يقرأ اسم أفضل لاعب فينادي باسمي، ثم يقرأ اسم أكثر اللاعبين تسجيلاً للأهداف فينادي باسمي، وأعود إلى البيت ومعي ثلاثة انتصارات، ففريقنا بطل الدورة وأنا أفضل لاعبٍ والهدّاف أيضاً..فأي فرحةٍ في هذا العالم يومئذ لن تكون كفرحتي بما أنا فيه من النشوات، وصرت بعدها أعد ثواني الليل لبيدأ اليوم الجديد حتى أراهم وألتقيهم وأجلس معهم في المدرسة وخارجها، في نهار رمضان وفي ليله!

انتهت الأنشطة، وسيكون ختامها رحلة جماعية للجماعة إلى مكة لأداء العمرة، وعلى من يريد الذهاب أن يأتي بموافقة والده، ووالدي يستحيل أن يوافق، ففعلت كل ما يمكن فعله لإقناعه بذلك، لكنه أخيراً أقسم لي إني لن أذهب وإني لو خالفت أمره فسيسجنني في إحدى غرف المنزل، وإني لن أرى نور الشمس بعد ذلك!

قد نحصل في الحرمان مما نحبه على أشياء أكثر جدوى مما نكسبها لو وجدنا ما نشتهيه، يحدث أن يحرم أحدٌ ما من ركوب سيارة ليكتشف أن هذه السيارة لمجرد غيابها تهشمت بمن فيها، فيعود يشكر الحرمان الذي أكسبه حياته!

مضت الجماعة إلى مكة، وتقطع قلبي لأني لم أكن معهم، وشتمت والدي في نفسي كثيراً، ولعنت كل الأسر والبيوت التي تخنق سعادة أبنائها باسم الأبوة والعائلة، ولولا أن الشيخ حميد قبل أن يمضي همس بأذني أنه ستكون هناك رحلات كثيرة، وأنني سأكون معهم دائماً وأن حرماني من مشاركتهم في هذه الرحلة اختبار من الله، ليرى هل أنا أحب الصالحين حقاً؟ وهل سأتركهم لأنني لم أتمكن من الذهاب معهم؟

يبدأ الفصل الدراسي الجديد الذي انتظرته بفارغ الصبر لألتقي الجماعة وأفرادها من جديد، ورغم أنه لم تظهر عليّ علامات التديّن بعد إلاّ أني كنت لا أفارقهم في المدرسة وخارجها، وأشاركهم في كل الأنشطة، ولا أغيب عن حضور شيءٍ مما يفعلونه ليلاً أو نهاراً، وعلى أسرتي أن تدفع ثمن حرماني من تلك الرحلة بأني لن أكون إلا مع هذه الجماعة كل الوقت إن أمكن!

كانت للجماعة أنشطتها اليومية كل صباح داخل المدرسة، فهناك درس لا يتجاوز الربع ساعة بوقت الإفطار، وهناك صلاة الضحى والجلوس معاً وجوّ الإخاء والحب، الذي لا يعدل لذته شيء، وفي يوم الأربعاء من كل أسبوع نشاط يوم كامل، لا نخرج من المدرسة إلاّ في العاشرة ليلاً، يتخلل برنامج ذلك اليوم اللعب والمحاضرات والأناشيد الحماسية والإخوانية والمواعظ الباكية عن

الجنة والنار والشهادة والموت وحسن الخاتمة للصالحين، وسوء النهايات للعصاة!

في يوم من أيام الأنشطة مع هذه الجماعة تقرّر أن نخرج جميعاً للعبِ الكرة في ملعبٍ خارج أسوار المدرسة، ليشاركنا البعض من الإخوة الكبار، وفي ذلك اليوم تعرّفت إلى واحدٍ منهم يدعى يحيى. لقد كان أكبر مني بست سنين على الأقل، وكنت أحس أنه لم يأتِ إلاّ ليعرفني أنا بالذات، وشعرت معه بالانسجام والمودة البالغة، فرحبت به وبادلته اللطافة. كان يحرص على أن تكون بيني وبينه ثنائية حتى في لعب الكرة يومئذ، وبعد انتهاء اللعب عرض عليّ أن يوصلني هو إلى منزلي بسيارته الخاصة فقبلت، وفي السيارة أخبرني أنه يحب أن نكون صديقين دائماً وأنه، يفضل لو نلتقي باستمرار، وأن نأتي إلى أنشطة الجماعة معاً ونمضي معاً. لقد كنت أشعر أن كل شيء في ذلك الوقت يفتح لي صدره، وأنني مهيأ لأكون أسعد مخلوق في هذا العالم!

وبالفعل كان يحيى يأتيني يومياً وكنت ألتقيه باستمرار، وأذهب وإياه أوقاتاً طويلة نجول بالسيارة ونستمع إلى القرآن، وربما بكينا معاً، وربما جلسنا خارج المدينة فوق تلٍّ أو ربوة، يحدثني عن الآخرة وأنه يحلم لو التقينا هناك في الجنة، ولو أننا نكون في ذلك العالم صديقين حميمين كما نحن الآن في هذه الحياة الدنيا الرخيصة والمزيفة والبالية، والتي لا يهتم بها إلا العصاة والكافرون، أما الحياة الحقيقية فهي هناك.. هناك فقط!

دنت نهاية السنة الأولى على وجودي في هذه المدرسة وكذلك انضمامي إلى هذه الجماعة، التي أعلنت أنها تعتزم بعد

نهاية الاختبارات القيام برحلةٍ خلوية تستمر خمسة أيام، وعلى من يريد أن ينضم إلى هذا المخيّم أن يسجل اسمه وأن يأتي بموافقة والده، وهكذا لن يقف بوجهي أحد هذه المرة لأشارك الجماعة في رحلتها. .

عدت إلى البيت وقلت لوالدي بكل جرأة سأشارك في هذه الرحلة قبلت أو لم تقبل، وأقسمت له إنه إذا لم يأذن لي أن أكون مع هؤلاء الصالحين فسأهرب من البيت، ولن يراني ما دام حيّاً، فسكت والدي ولم يجبني بكلمة واحدة، وحتى يكون موقفي صارماً، فقد زوّرت توقيعه على خطاب الرحلة، وشاركت في هذا المخيم حتى دون أن أقول لأيٍ من أهلي كلمة توديع. . المهم أني فعلت ما أريد، وذهبت إلى المخيم مع الشيخ حميد، وصديقي يحيى وبقية أفراد الجماعة!

١٠

إذاً فقد شاركت في الرحلة مصرّاً على دخول هذا العالم رغماً عن الجميع، فبعض الأبواب صنعت للكسر، لا للفتح!

ما كدنا نستقرّ في المكان المعدّ حتى دخلت جوّ المخيّم، وشعرت أني أمتلك الدنيا بحذافيرها، فهناك الحب والإخاء غير المشروط والتضحيات والإيثار والخشوع وقيام الليل الروحاني وقراءة القرآن والعلم، وللحق فقد كان بدء هذا التجمّع ممزوجاً بنشواتٍ مثيرة، فيحدث أن يتضامّ اثنان ويلتصقا تماماً. . تحت غطاء الحب في الله!

لم يكن عددنا يقلّ عن الأربعين، نقف في إحدى «الفلوات» التي اختيرت لتكون مقر المخيم الذي سيستمر أربعة أيام أو أقل أو أكثر من ذلك، وبصحبتنا عدد لا يقل عن السبعة من أبناء الجامعة الذين لا علاقة لهم بالمدرسة، وإنما جاؤوا للإشراف على دعوة الطلاب الصغار وإدخالهم إلى ما هم فيه من فكرٍ وعمل، وكان وجودهم في هذا المخيم بتنسيق مع المعلمين المشرفين عليه!

صباحاً يتعاون الجميع على نصب «الخيام الأربع»، يتصدرها «السرادق الكبير»، لتأخذ الشكل الخماسي تاركةً ساحةً كبيرةً ما بين الخيام الأربع والسرادق وفور الانتهاء من ذلك ينادي قائد المخيم،

الذي يسمّى «الأمير»، من المعلمين بالجمع صارخاً على الطريقة العسكرية: «مخيّم اجمع.. مخيّاااااام اجمع، مخيّم اجمع..».

فيصطف التلاميذ والمعلمون وطلاب الجامعة بين يديه في الساحة الوسطى، كأنما يعطونه البيعة، ثم يقسّم التلاميذ على أربع أسر، هي أسرة أبي بكر الصديق، وأسرة معاوية بن أبي سفيان، وأسرة عبد الرحمن بن عوف، وأسرة خالد بن الوليد، ثم يعيّن لكل أسرةٍ قائداً من طلاب الثالث الثانوي وواحداً من المشرفين من طلاب الجامعة، ويعيّن أحدهم مسؤولاً عن النشاط الثقافي، وآخر عن الرياضي، وآخر عن الحراسة الليلية، وهكذا تُوزّع مهمّات المخيم، كنا نعيش نشوةً تشبه نشوة إقامة دولةٍ، يُوزع مهمّاتها والمسؤولون عن قطاعاتها!

هنا أتذكر أحداث يوم ليته لم يكن في حياتي، أو شكراً لأنه كان، لا أدري، فأشياء كثيرة لا يمكن حسم مواقفنا أو حتى شعورنا تجاهها.. بدأ ذلك اليوم من الساعة الثالثة قبيل الفجر، حين يقوم المكلفون حراسة المخيم، يوقظون الجميع للتهجد والوتر في جوٍ روحانيٍ وجدانيٍ يذيب كل الحواجز ويصهر الجميع في منظومةٍ واحدة، ويستمر ذلك حتى يصدح أحد الصغار بأذان الفجر، وبعد صلاة الفجر يقوم المشرف الرياضي بفرض التمارين القاسية على الطلاب كنوع من الإعداد الجسدي، ومن ثم تنصرف كل أسرةٍ إلى حلق القرآن والذكر حتى شروق الشمس، ثم يعود الجميع إلى الرياضة حتى يحين الإفطار المتقشف، الذي يلتف حوله الجميع إثر عناء النشاط الرياضي، ثم تنصرف الأسر إلى البرامج الثقافية حتى الظهيرة، وفيها ينتقل الطلاب على مدى

ساعتين إلى ما يسمّى المحطات، وهي عبارة عن أربع حلق دواخل الأسر يلقي فيها الجامعيون دروساً شرعيةً، تتناول عادةً محاور عبادية، ترغيبية، ترهيبية، ثم جهادية، وهنا فإن الجامعيين يقعون بذلك من أنفس الطلاب موقع المسؤول والموجه والقدوة!

ينادي المشرف الثقافي الجميع ليتجهوا نحو السرادق الأكبر للجلوس بين يدي الشيخ المستضاف من خارج المخيم، ليحدثهم حتى الصلاة، وغالباً ما تكون أحاديث عامةً تتناول قضايا الشباب في هذه المرحلة، معرّضاً بالمجتمعات الجاهلية المعرضة عن الله، وعن الحكومات الطاغوتية!

تحين صلاة الظهر التي يُعطى الجميع ما بعدها فترة راحة أو قيلولة مدة ساعتين، ثم يحين الغداء الذي يُتعمد فيه التقشف أيضاً، ومن بعد الغداء وحتى العصر يعود الجميع إلى أسرهم استعداداً لزيارات الخيام المتبادلة، على أن يكون لكل أسرةٍ متحدثها الذي يلقي موعظته على الأسرة المستضيفة، وهكذا تدور الأسر بعضها على بعض زائرةً ومزورة.

نصلي العصر، وبعدها يقدم مجموعة من الطلاب تحت متابعة المشرف الثقافي فقرات ثقافية وفكاهية ضمن ما يسمونه جلسة الشاهي، جرياً على طريقتهم (ساعةً وساعة)، أي ساعةً للدنيا وساعةً للدين، وقبيل أذان المغرب بساعة ونصف الساعة ينطلق الشباب جميعاً إلى الملعب، بعضهم بملابس المجاهدين الأفغان التي حيكت خصوصاً لهذا المخيم، وآخرون يلبسون الثياب السودانية! ويعلن المشرف على النشاط الرياضي ذلك التحدي الذي يعقده كبار المخيم، مشرفو الرحلة، ضدنا نحن الناشئة،

والقادمين بحماسة إلى هذا العالم الجديد الجميل.. شاركت في المباراة بكل حماسة وإقبال، إذ كنت ما أزال أعيش نشوة اللقب الرمضاني، وما هي إلا البداية حتى قيل: حمي الوطيس. ونادى المشرف الرياضي: «تذكروا «رحم الله امرأً أرانا من نفسه قوة»..»، وفي واحد من الاحتكاكات سقطت مجندلاً على الأرض وتمزّق ثوبي، وبالطبع لا بدّ أن أسمع: «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم!».. ما كنا نلعب بغير الثياب، فارتداء الملابس الرياضية من خوارم المروءة، ومبطلات الصلاة، وفي ذلك تشبّهٌ بأهل الفسوق والعصيان من لاعبي الكرة وغيرهم.. ولأنني خرجت من المنزل كاسراً أمر الوالدين فلم يكن عندي ملابس أخرى غير تلك التي تمزّقت، ويا للفاجعة، سأضطر إلى ترك المخيم وأعود إلى البيت.. لكن يحيى أعطاني ثوباً من ثيابه، ليتألف قلبي، ويسجل له عندي يداً بيضاء!

لبست ثوبه وكنت وإياه في طولٍ متساوٍ، ولأول مرةٍ أرى نفسي بثوب السنة، على رأيهم، فما كان يتجاوز منتصف الساق، وتهلل وجه يحيى فرحاً فقد أنقذ الله عقبي وما دونهما بثوبه من النار، لأن الثوب الذي يتجاوز العقبين يفتح أبواب جهنم على لابسه، وأحسست يومئذ أنني أرتدي جلداً جديداً وأنني أتحوّل لأكون شيئاً آخر غير ما أنا هو قبل ذلك الوقت، فلم يكن ما ارتديته مجرد ثوبٍ مستعار!

غربت الشمس، وارتفع الصوت مؤذناً بصلاة مغرب ذلك اليوم، ووقفت في الصف بشخصيتي، ثوبي الجديد. قبل إقامة الصلاة يهمس في أذني يحيى، الذي يقف بجواري، فيقول:

«أنت تصلي حاسر الرأس، وهذا ما لا ينبغي أن تفعله بين يدي الله، فلا تخرم مروءتك والبس الشماغ»، ثم يرفع يديه إلى السماء ويسائل الله لي الهداية بكل خضوع، وأنا أستمع إليه متأثراً بما يبدو من حبه لي وصدقه معي، وشعرت يومئذ بلذة كبيرة للصلاة والخشوع والعبادة!

تؤدى صلاة المغرب، ثم يجلس الجمع أمام تلك الستارة، التي يراد مما وراءها أن يكون مسرحاً، لتقدم مجموعة أخرى من الطلاب حفلاً ثقافياً ساهراً: النشيد الحماسي «شبابنا هيا إلى المعالي»، ونشيد «يا مسلمين الله واحد»، ثم مشهد كوميدي تدور أحداثه حول مراهقات الشباب الغافلين ولعب البلوت والترنم بالأغاني، والمشهد الأخير مشهد النحيب والنواح (فيفتح الستار على شابٍ أعرض عن صحبة جماعة التوعية، واصطحب غيرهم، ثم يقفل الستار على صوت حادث سيارة عنيف (باستخدام المسجل) ويفتح الستار من جديد، لكن هذه المرة على مشهد الجنازة المسجاة أمام الجميع، ممثلين نهاية الواقفين بطريقهم، ويعلو صوت المسجل بسورة «قاف»، ثم يعقب ذلك نشيد روحانيٌّ مؤثر!) لحظتئذ يضج المخيم بالصراخ والبكاء، ويقف أمير الرحلة بعد المشهد، متحدثاً عن الحيات، والعقارب، والنار، وسوء الخاتمة!

ترى ما الذي يملكه مراهقٌ في السادسة عشرة من عمره، يرى مشهد السكرات والموت، تختلط مع عنف المشهد وإرهابه الآيات والنحيب.. يا الله، كم بكيت تلك الليلة التي أذكر أنني وقتئذ ارتميت لائذاً بيحيى مرتعباً هلعاً!

بعد صلاة العشاء تناول الجميع العشاء المتقشف، وعاد الأفراد إلى أسرهم ليعيشوا قليلاً من الجو الإخواني الحزين، وفي العاشرة يؤمر الجميع بالخلود إلى فرشهم، ثم يستدعي مسؤول الحراسة ثلاثة طلاب من كل أسرة، وتشكل مجموعات الرباط والحراسة لتتقاسم ساعات الليل بالتساوي ويوصيهم، إذ يحين وقت كل مجموعةٍ، أن يشغلوا ليلهم بالرباط والتناوب على قيام الليل. وبعد نوم الجميع يقوم أمير الرحلة باستدعاء ستة نفر من الأشداء الأقوياء بقيادة أحد الجامعيين، وتُعدّ خطة الهجوم الليلي على المخيم، وبالتنسيق مع مشرف الحراسة يخرج هؤلاء النفر إلى فلاةٍ قريبة حتى يحين وقت الهجوم عند الساعة الثانية ليلاً.

يخطط المهاجمون الغزاة وينقسمون إلى ثلاث طلائع تدهم الحراس من ثلاث جهات، فواحدةٌ تشغل الحراس بالعراك، والأخرى تأخذ بعض الغنائم، والثالثة تخطف أسيراً، ثم تكون العودة إلى المقر الذي انطلقوا منه، حيث توجد سيارة يضعون فيها الغنائم والأسير، ثم ينطلقون هاربين، وهكذا تنفذ الخطة الهجومية بزيٍ جهادي، ويكون ما كان ويحدث الصدام والعراك والأسر، وغالباً ما تحدث إصاباتٌ شديدة جراء الانهماك في جو الغزو والمعركة، وتستمر الليلة حتى يستيقظ المخيم من جديد لليوم التالي. كان قائد المخيم يأمر بإيقاظنا كل ليلةٍ قبيل الفجر لنحييها بالقيام والوتر، فنصلي ركيعاتٍ دافئة، ثم نجلس متقاربين ملتفين بعضنا ببعض، نقاوم برودة السّحر بهمهمة الآيات القرآنية والدعاء!

ثم يؤمر أحد الصغار، من ذوي الأصوات الجميلة، برفع أذان الفجر، ويقف على صخرةٍ قريبةٍ منّا، ويصدح بالأذان.. ثم

يصطف الجميع للصلاة العذبة، صلاة الفجر.. هكذا كانت أجواء المخيّم، حتى آخر لحظةٍ منه والتي هي أقساها وأجملها في النفوس وأبقاها في الذاكرة. تنتهي الرحلة في جوٍّ بئيسٍ من الوداع المضني، إذ غرق الجمع في العناقات المخضبة بالدموع حتى جاء الرواح، ووقت كانت الشمس تغيب ركبنا سيارات الكبار من المشاركين في المخيّم قافلين إلى بيوتنا!

كنت مع يحيى، وطوال طريق العودة كان يحدثني عن الصدع بالحق!

وقبيل ولوج المدينة قال لي إنه يريد زيارة صديقٍ عزيزٍ عليه، واتجه بالسيارة إلى مكانٍ مقفرٍ موحش.. إنها المقبرة والأموات!

مازدا موديل ٨٢، وبداخلها يحيى وأنا، تتوسط المقبرة، وكل خفقات قلبي ألا يطفئ يحيى مصباحيها، لكنه فعل، ومدّ يده إلى المسجل ورفع الصوت، (شريط هادم اللذات يتحدث عن رحلة العذاب ما بعد الموت)، المتحدث يصرخ: «وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد»، يبكي يحيى، والريح الباردة تنفث كل أشباحها لتصطدم بالنوافذ الزجاجية فتحدث صفيراً مخيفاً.. وفي حلكة الظلام يومئ لي بالهبوط، ثم يومئ.. إذن لا خيار!

قبران توأمان، محفوران لمّا يسكنهما أحد، قال لي: «اهبط، واضطجع، وابك، وخف ما استطعت، فالله لا يجمع على عبده خوفين.. هنا تؤول، وهنا تصير، وترى مقعدك من النار، فابك، وخف ما استطعت!»..

نزلت وكنت في حالةٍ تشبه حالة ما قبل النوبة العصبية أو التشنّج، بينما يقرأ هو سورة «قاف» ويصيح بالبكاء، ولم نعد من

هناك إلا وأنا أريد أن يدلّني يحيى على أي شيءٍ أفعله لأنجو من النار ومن هذا الرعب.. أريده أن يرشدني إلى ما يخلصني من عذاب الله هذا، فقبور الأموات، وظلمة الليل، والنحيب والصراخ، كانت تجتمع على قلبي لتصنع منه ما يشاؤون!

رجعت إلى البيت مملوء الصدر باليقين.. وكأنني من الحاطين رحالهم في الجنة والناس من حوله ينتظرون فصل الحساب!

أواه كم كرهت عائلتي وبيتي، الذي يعجّ بالموبقات والمعاصي كما كان مشرفو المخيم يصفون أمثاله من البيوت، لقد كان مملوءاً بالفساد من تلفازٍ وصورٍ وأصوات الأغاني، وغيرها!

قضيت تلك الليلة الثقيلة مع أهلي وفي اليوم التالي وفور استيقاظي فزعت إلى يحيى لأشرح له الابتلاء الذي أعيشه، وحجم الغربة التي اجتاحتني في بيت أهلي. كان لا بدّ أن نحدثهم عن كل ما يدور في حيواتنا، لأن المؤمن بلا إخوانه سيكون ضعيفاً ومعرضاً للزيغ والضلال.. هكذا كنا نلقي بين أيديهم حتى أسرار أمهاتنا وأخواتنا، لئلا يؤتى الدين من قبلنا!

ما بخل عني يحيى بالرأي، فبعد أن راح يقدم ويؤخر، ويهلل ويحوقل، ثم يبتهل ويدعو على الظالمين من اليهود والنصارى والعصاة والفاسقين وأهلي، وكنت أؤمن معه بصدقٍ وانقطاعٍ، ووجهني بالإنكار قدر ما أستطيع.. بيدي أو بلساني أو بقلبي، ثم أخرج عليهم ومنهم مفارقاً دار الفسق والعصيان والكفر هذه!

رجعت إلى بيتي لأطبق الحق الذي علمنيه المخيّم ويحيى والجميع هناك، الحق الذي يرمي بالعالم كله في النار إلا نحن.. أتذكر كيف صرخت في وجه والدي: «أنت لا تشكر نعمة الله

عليك أبداً. أخرج هذا التلفاز فأنت تغش أسرتك، ومن مات وهو غاشٌ لرعيته فقد حرّم الله عليه رائحة الجنة!».. ثم صرخت بأمي: «والله إنك ستسألين بين يدي الله عن هذه الكبائر التي تربين أبناءك عليها!».

كنت أتذكر وقتئذٍ وصية يحيى: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد» وأذكر شرحه لي مبدأ المفاصلة، مفاصلة الكافرين والعصاة.. كان علمني أن الحق إنما يظهره الله على ألسنتنا، فلنهد الناس إلى صراط الله الكريم، فإن قبلوه وإلا فإنهم لا يستحقون الحياة، وكراهيتهم قربةٌ إلى الله!

أقنعني أن أخي الأكبر، الذي تنكر للحق والخير، وانتكص بعد أحداث الحرم، ماجنٌ، حداثي، علماني، وكل وصفٍ مفاده التكفير.. أما بقية إخوتي فهم من العصاة المجاهرين الفاسقين، الذين لا شك في كفرهم لإصرارهم على ما هم عليه من المعاصي، وبعد أن خاصمتهم جميعاً بقي أن أطبق وصية يحيى فأخرج من المنزل، هارباً وتاركاً البيت والدراسة وكل شيء، لأعيش في إحدى الغرف التي يعيش فيها أحدهم. لقد كانت بالنسبة إليهم فرصةً مناسبةً لضمي إليهم إلى درجةٍ يستحيل معها تركي لهم!

أوصاني يحيى أن أترك الدار، خشية الافتتان بالفاسقين.. فسفكت دموع أمي وهي تتمسك بأطراف ثوبي، وأنا أخرج من البيت، فارّاً إليهم، ولم يكن شيءٌ أهون عليّ من بكاء أمي!

١١

يدمن المرء أشياء لا يعرف عنها سوى أنها تريحه، ولا يكترث حينئذ لماهيتها ولا لموقعها من الصح والخطأ، فليس مهماً أن نصنف الأشياء بين هذين الحدين، فقد تكون حاجتنا إلى الخطأ الذي لا يؤذي أحداً أحياناً أكثر من حاجتنا إلى الصواب!

إذن فكل ما مضى كان داعياً للانسجام التام مع هذه الشريحة، واعتقادها نواة كل خيرٍ في هذا الوجود، ولم يكن عندي أدنى شكٍّ أنهم المخلصون من وعثاء الدنيا ومن جحيم الآخرة، فمن يستطع أن يخلصني من وحدتي وجحيم عائلتي فسيكون جديراً بأن أضحي بكل شيءٍ لأجله، وأن أكون معه وله فيما يريد، فكيف وهو يخلصني من الدنيا ليأخذني إلى الله، ويقدم لي الطمأنينة والسعادة والإخاء والحب وكل ما حرمت منه!

نهاية هذه السنة الأولى بالمرحلة الثانوية تركت سؤالاً عن مصيري بالإجازة، التي ستمتد إلى ثلاثة أشهر، وكيف سأقضيها بعيداً عن المدرسة التي بها سعادتي كلها، وسألت يحيى فتبسّم شاكراً لي حرصي على البقاء مع الصالحين، ثم بشّرني أن نشاط الجماعة سيستمر طوال الصيف وفي المدرسة ذاتها، بل سيكون مكثفاً وفي الفترة المسائية، وسيكون مليئاً بالرحلات وفي نهايته

سيذهب الجميع إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في رحلةٍ تمتدّ إلى عشرة أيام أو أكثر، فكدت أقفز فرحاً وانقضضت على يحيى أعانقه وأحمد الله!

كان نجاحي متواضعاً، على غير العادة في هذه السنة، كنت تجاوزت المواد كلها، لكني لم أكن ذاك المتفوّق أو أقلّه الذي لا يخيفه أن تقترب علاماته من حدّ الرسوب، ولأن أهلي قد استسلموا تماماً لما أسومهم به من الصدام فقد كان نجاحي هذا مبرراً كافياً لذهابي إلى أنشطة الجماعة بالمدرسة، التي قيل لنا بألاّ نسميها جماعة ولا مدرسة، بل لنسم ذلك المكان باسم المركز.

شاركت في المركز وأنشطته من أول يوم به، وحينئذ كنت قد انضويت تماماً في جلبابهم وصرت أقرب إليهم وهم أقرب إليّ من أي شيء، فلم يعد هناك ما يمكن فعله لأكون منهم ومعهم ومثلهم إلا فعلته كلاماً، وعبادةً، وسلوكاً، حتى في طريقة ضحكي، ومشيتي، وجلستي، وحركات أصابع يديّ وهندامي، فقصرت ثوبي إلى منتصف الساق، وتركت للشعيرات المتناثرة بوجهي أن تنمو وتطول، فتكون لحيةً أفتلها بأصابعي على طريقتهم.

كل شيء كان منهم ولهم وإليهم!

كانت تلك السنة إعلاناً ضخماً مني لعصيان أسرتي وإرادتها، فكم ضُربت وهددت، وكم اشتبكت وإخوتي، ولأنني أحمل لسان الدين المقدس فإنني كنت أنتصر نهاية الأمر، حتى على والدي الذي غضّ طرفه عن امتناعي لرعي الأغنام وتوقفي عن أداء أي عملٍ متعلّقٍ بالأسرة، وكيف أسكن مع هؤلاء الفاسقين الكفار.. كيف!

تركت البيت قبل ذلك طوال شهرين، قضيتهما مع أحدهم، الذي انتهت تلك الفترة بموته غريقاً، فخرق قلبي الحزن عليه. مات بعد أن قضيت وإياه شهرين متتاليين، صمناهما يوماً يوماً، وبكينا معاً وخرجنا معاً وجبنا شوارع المدن والقرى في سيارته القديمة معاً!

بعد موت صاحبي لم يكن لي من مكانٍ أهرب إليه، فلا مناص من أن أسكن في المستودع السفلي ببيت أهلي.. أسدّ نافذته المفتوحة بلوحٍ خشبي ويصير موائماً لأفترش به فراشاً، آتيه ساعة النوم فحسب!

كنت في برد مدينتي الجبلية أنامُ في هذا المكان الذي، تصفق الرياح بجدرانه وترتدّ تعوي، ولا شيء أحب إليّ من هذا.. أن أكون على هذا القدر من الابتلاء في سبيل الله، ثم لا تكون ليلةٌ إلاّ أقوم بمنتصفها للصلاة والبكاء، وأن ينقذني الله من الكفر والكافرين!

مرّ الشهر من المركز الصيفي بالمدرسة، وأنا لا تفوتني منه ثانيةٌ واحدة، وهذا يعني أني صرت مهيأً لما هو أكبر من النسك والعبادة والمشاركة في الأنشطة، فجاءني يحيى ذات يوم، وعرض عليّ أن أنضم إلى مجموعة من الأشخاص معه، يجلسون للذكر وقراءة القرآن وطلب العلم مرةً كل أسبوع، وإن هذا من خير الخير وإن الله يغشى ذاكريه برحمته وإن الملائكة تحفّهم بالنور، لأن مجالس كهذه كلها سكينةٌ وروحانية، وبكل حماسة وإقبال قلت «سألتك بالله ألا تجلسوا مجلساً من هذه وأنا لست معكم» فقال لي:

– هنالك واجبات وبحوث وتكاليف وأشياء كثيرة، فهل أنت مستعدّ لكل هذا؟

– إنني على أتمّ استعداد أن أقدم روحي، التي بين جنبي، لأجل ما يراه الصالحون!

سارت الأمور في البدء على هذه الشاكلة، فكنت أحضر إلى المركز كل يوم، وفي واحدٍ من أيام هذا الأسبوع كنت أجلس مع خمسة أشخاص بقيادة يحيى، نقرأ القرآن وبعض التفاسير والأحاديث، ثم نكلّف تحضير بعض الواجبات المتعلقة بالكتب الفكرية وغيرها. استمرّ الحال هكذا حتى ما قبل نهاية المركز ليبلغني يحيى بأن دوره انتهى، وأنه لم يبق بيني وبينه سوى الصداقة والحب في الله والإخاء، وأن عليّ الآن أن أنتقل إلى مجموعةٍ أخرى، عند الشيخ علي، لأنني تطورت وأصبحت صالحاً لمهمّات وعلوم أكبر وأكثر تأثيراً، ففرحت بهذا فرحاً كبيراً وانتظرت فقط أن يأتينيَ الموعد، الذي ألتحق فيه بمجموعة الشيخ علي. كان بديناً، وكبيراً في السن بالنسبة إليّ يقترب من الأربعين، وملامحه ملأى بالغموض والغرابة والحدّة، لا يكاد يبتسم ولا يتكلّم إلاّ بالعلم والوعظ. كان مهيباً وإذا دخل إلى المركز فإن الجميع يلتزمون الصمت احتراماً لهيبته!

في أحد أيام المركز صافحني وابتسم لي، وسألني عما إذا كنت سعيداً بوجودي معه، ولهيبته في نفسي لم أكن لأجيد الحديث فأطرقت مبتسماً، ثم قلت له:

– متى آتيك يا شيخ؟

- سنخرج معاً بعد نهاية أنشطة المركز هذه الليلة لنتحدث، وليعرف كلٌّ منا الآخر أكثر!

ليلةٌ ملأى بالرهبة والزهو، فأنا الخائف المرتبك إلى جواره، الزاهي بمكاني، وعلى صغر سني أجول بالسيارة مع هذا الشيخ الذي يهابه كل من في المنطقة.. تحدثنا طويلاً، وسألني عما أستطيع تقديمه للأمة، وأخبرني بأنه يتابعني منذ البدء، وأنه معجبٌ بي، وسعيدٌ لأنني سأعمل معه في حلقات الذكر الخاصة به!

أوصاني وأوصاني، ثم أعادني إلى بيتي، واتفقنا على أول لقاءٍ سيجمعني به وبالمجموعة الجديدة، التي سأجلس معهم، تحت قيادته وتوجيهاته وتعليمه وتربيته!

حدث هذا، وصرت أكثر أفراد المجموعة التزاماً بالوقت، وحضوراً وحفظاً للقرآن، وتأديةً للتفسير، وقراءةً للكتب، التي نكلّف قراءتها وتلخيصها وإعداد كل ما يطلب منا، وكان يشيد بي بينهم ويقول بأنني تجاوزت الذين سبقوني في هذه الحلق بسنين نشاطاً وإقبالاً، وبعد مرور أربعة لقاءات أخبرني أن هذه اللقاءات ليست مجرد حلقات ذكر، بل هي فوق هذا عملٌ سرّيٌّ منظم على مستوى المناطق كلها، يهدف إلى إقامة كيانٍ جديد، على هذه الأرض، يحكم بشريعة الله وسنة رسوله وتخطط لهدم دول الكفر والظلم، وتعمل لإعادة المجتمع إلى حياض الدين وإخراجه من جاهليته، ثمّ حدثني عن سرية هذا التنظيم ومدى خطورة الحديث عنه، أو البوح بأي شيءٍ يخصه!

يا إلهي.. أي مجدٍ هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرماني الذي

مضى إلى جنديٍ في سبيل الله، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولةٍ جديدة.. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها الله من بين كل الطوائف، ومن الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها إلى النار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد مواتها!

١٢

أظن أن الأماكن التي نحبها هي تلك التي نجد أنفسنا فيها، أو هي تلك التي ننجح من خلالها، وكراهيتنا للأماكن حتماً ستكون بسبب إخفاقنا فيها!

تبرير ارتباطاتنا في حالة الحب يفسد بعض جمال هذه اللحظة، وتبرير نفورنا في لحظة النفور يخفف وطأة الكراهية. إنني أفتش عن التبريرات حين لا أحب فقط!

حديثٌ خاطف عن المركز..

لا يختلف المركز بأنواعه، مركز نهاية الأسبوع، أي يوم الأربعاء، المركز الرمضاني، المركز المستمر طوال فترة الصيف، في أهدافه عن المخيم، بل إن المخيم الفلولي ليس أكثر من نتيجة لما كنا نتلقاه طوال فترة مكوثنا في هذه المراكز.. أيضاً للمركز أمينه أو المشرف عليه، وغالباً ما يكون المعلم المسؤول عن أنشطة جماعة التوعية، ويقسم الطلاب فيه أيضاً إلى عدة أسر، وبأسماء مشابهة ولها الإيحاءات ذاتها، وتدار الحلقات الدينية والفكرية والأنشطة الرياضية العنيفة نفسها، ويميز المركز أنه يحقق، نظراً إلى طول الوقت الذي يقضيه الطلاب فيه، مجالاً أكبر من الانسجام بين مجموع المشاركين، ويحيلهم إلى منظومة واحدة

يحكمها توجيهٌ واحد يتمثل في المسؤولين عن المركز من أمينه وبقية المشرفين من المعلمين المشاركين وطلاب الجامعة، الذين يتولون قيادة المجموعات الخلوية الصغيرة، وتلقينها المنهج الفكري وربطها بالمسؤولين الكبار، في سلسلة هرمية تنتهي إلى أن يدير العمل كله في المنطقة بأسرها لجنة مشتركة أو شخص واحد، يتولى شؤون جميع المراكز في مدينته أو منطقته.

في مراكز كهذه كنا نتعلّم أن كل العالم كافرٌ، وأن الإسلام الحقيقي قائم على مفهوم الولاء والبراء، الذي يعني موالاة المسلمين والبراءة من الكافرين، بل موالاة من هو على عقيدتنا ورأينا من مذهبنا في الإسلام والبراءة ممن هم على غيره!

كانوا يدخلون إلى ضمائرنا عبر طريقين، أحدهما: استغلال الجانب الوجداني، عبر الترهيب والترغيب، والطريقة الأخرى هي ما يكلفوننا إياه داخل المركز وخارجه من البحوث والدروس والمشاركات، وما يلقى علينا من المحاضرات والكلمات، وغير ذلك! وينتهي المركز، وقد خرج المشرفون الحركيون عليه بمجموعة كبيرة جداً من الطلاب المنتمين إلى اللقاءات الأسبوعية الحركية، وأصبحوا مهيئين مجندين لتنفيذ توجه هذه الجماعة، وبدرجة عالية جداً من الولاء، والاعتقاد حيالها بفكرة الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، وغير ذلك أيضاً، وكنت أتساءل كيف يموّنون المراكز والمخيمات والرحلات حتى علمت أنهم يأخذون أموال الدولة، متكئين في سرقتها على الفتاوى الوافدة من تكفيريي بعض الدول المجاورة، التي ترى أن سرقة مال الدولة الكافرة لمصلحة الدعوة والجهاد أمرٌ يحبه الله ويرضاه!

ثلاثة أشهر، هي صيف ذلك العام، مضت وجاءت نهاية المركز الصيفي، وتحين الرحلة إلى مكة المكرمة للعمرة، ثم إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد النبي، وقبور الصحابة، وميادين المعارك التي خاضها المسلمون بالمدينة!

كنت معهم في تلك الرحلة التي تلذذت أيامها بكل ثانية فيها، عبادةً، وإخاءً، وعالماً روحانياً، لا سيما أن الرحلة عن طريق البر وكلنا في تلك المركبة (الباص) نملأ المسافات بالأناشيد والقرآن والذكر والحب في الله، وفوجئت بأنهم يضعونني، في تلك الرحلة، قائداً لمجموعة من الطلاب الذين شاركوا في الرحلة!

كانت رحلةً لم تمرّ بخيالاتي ولا بأحلامي، أني سأعيش متعتها ولذتها، فمن طوافٍ بالكعبة وبكاءٍ عندها، إلى ليالٍ من الروحانيات في الحرم، إلى وقوفٍ أمام قبر النبي بالمدينة المنورة، إلى رؤية قبور الشهداء من الصحابة، إلى تجوال في ميادين المعارك التي قتلوا فيها، إلى زيارةٍ لغار حراء الذي بعث النبي بالوحي منه!

ومرةً أخرى عدت من هذه الرحلة وأكثر نقطةٍ في هذا الكون بغضاً إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمعاصي والكفر، ولتعود الخلافات والمناجزات بيني وبينهم من جديد، ولعظيم ما بي من الإقبال على هؤلاء والإدبار عن أهلي، حدثت الشيخ علي المسؤول عني عما أعيشه فأمرني بترك البيت مجدداً، والنوم في المساجد، وسيعطيني ما أحتاج إليه من المال، فامتثلت لأمره وغادرت بيت أهلي!

١٣

من لا يقف أمام المرآة أعمى، وأعمى ذلك الذي لا يرى في المرآة غير وجهه..

ثمة عميان يملكون عيوناً جميلة وبصراً حاداً!

يمكن القول إنه بنهاية سنة ٨٩ بما فيها من أنشطة مدرسية ومركز رمضاني وصيفي ومخيمات ورحلات إلى مكة والمدينة ولقاءاتٍ خلوية وانضمام تدريجي إلى هذه الجماعة الحركية..

وبحلول السنة ٩٠ أكون قد صرت عنصراً دينياً حركيّاً نسكيّاً خالصاً، وفوق هذا كنت أملاً كبيراً ومفاجأةً لهؤلاء، الذين اعتبروا ما أقوم به من أنشطة وجهد وإخلاص مؤذناً بشخصية قيادية، يمكن أن يهيئ الله على يديه أمراً ما بهذا العالم، أو أقلّه بهذه البقعة من العالم.. زيادةً على هذا فقد انبجست بداخلي موهبةٌ شعرية، وصرت ببعض ما أردده وأكتبه على بدائيته وضعفه شاعرهم المجيد، وطالما جلسوا إليّ يوجهون هذه الموهبة ويصرفونها إلى الحديث عن الأمة وهمومها، وإلى الله والدعوة إليه!

في اليوم الثاني من شهر ٨ تلك السنة يدخل صدام حسين، بجيشه محتلاً الكويت، ويستنجد الكويتيون، الذين تدافعوا هرباً عبر البر إلى السعودية.. وأيضاً فالجيش العراقي حينئذ بدأ

بالدخول إلى الأراضي السعودية، وهذا يعني أن المملكة تواجه حرباً مع العراق، وبالتالي يصدر الملك قراراً بتوقف الدراسة، حرصاً على الطلاب حتى تنتهي هذه الأزمة!

استمرّت الحال هكذا عدة شهور دون دراسة، فكانت فترةً حركيّةً مكثفة مع الجماعة، فترةً ملأى بالقراءات واللقاءات والواجبات.. وبالطبع كنّا نعتقد إثر تعاليم الجماعة بكفر الحاكم، وكفر الدولة كلها. وأصبح كفر الدولة ووجوب عدائها بيّناً، لا سيما بعد استعانة الملك وإخوانه بالقوات الأميركية وقوّات التحالف الكافرة من اليهود والنصارى لإخراج العراق من السعودية والكويت!

كان لعن علماء الدولة الدينيين، وتكفيرهم وشتمهم، أولئك الذين أفتوا بجواز الاستعانة بقوات التحالف، وأيدوا الحكومة السعودية على قرارها، أقل ما يمكن توجيهنا إليه، ثم كان ما كان وانتصرت قوات التحالف وانسحب الجيش العراقي، كل هذا حدث في تلك السنة والتي تليها، أي ما يقرب من ثمانية أشهر، ثم فرض الحصار على العراق!

في تلك اللقاءات الأسبوعية أثناء الحرب كنا ندرس الكثير الكثير من الكتب، لكن أبرزها ما كنا نتابعه، إما يومياً واما نكلّف إعداده أسبوعياً، كالمذكرات التي كان يرسلها المعارض «م. م» وما يقدمه بداخلها من الفضائح التي يزعم أن الدولة ترتكبها، وكان لحادثة خروج مجموعة من النساء في تظاهرة، يطالبن بالسماح للمرأة بقيادة السيارة، نصيب كبير من نقاشاتنا ودراستنا لما يريد أن يصل إليه العلمانيون في بلادنا!

ومن أهم ما في تلك الأشهر قراءتنا المركزة لمذكرات كيسنجر، أما المنهج العلمي الذي كنا نربى عليه، ويكرس لفكرنا من خلاله، فيتغلغل فينا عبر العديد من الكتب على رأسها كتاب الله وتفاسيره من (ابن كثير، في ظلال القرآن الكريم.. الخ)، ومن الكتب أيضاً بعض كتب الأحاديث وشروحها (فتح الباري، شرح صحيح البخاري، الأربعون النووية، جامع العلوم والحكم.. الخ)، وبعض كتب السير (سيرة ابن هشام، زاد المعاد في هدي خير العباد، هذا الحبيب يا محب لأبي بكر الجزائري)، ورسائل محمد بن عبدالوهاب، وبعض كتب العقيدة (الطحاوية)، وبعض كتب الفقه مثل (عمدة الأحكام، زاد المستقنع)، وجميع مؤلفات سيد قطب، محمد قطب، وسلسلة محمد الراشد (العوائق، الطرائق، الرقائق، صناعة الحياة)، وكتب الهندسة النفسية مثل (آفاق بلا حدود) لـ محمد التكريتي، وكتب الثورات ودراستها وتحليلها مثل (حركة النفس الزكية)، وأيضاً بعض الكتب التي تتناول التيارات الفكرية والدينية والمذهبية، مثل (العلمانية)، (موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة)، وكذلك بعض كتب التكفير مثل (الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية)، وكل ما يكتب ويتعلق بالأسرة الحاكمة (آل سعود).. ومما كنا نكلف به، على الدوام، متابعة الحركة الحداثية بداخل السعودية، ومتابعة كل ما يكتبه رموزها، وقصه وجمعه ومناقشته، وإثبات كفر هؤلاء الحداثيين، وعلى رأسهم عبدالله الغذامي، وسعد البازعي، وسعيد السريحي، ومعجب الزهراني، ومحمد زايد الألمعي، وعلي الدميني،

وعبدالله الصيخان، ومحمد الثبيتي، ومحمد جبر الحربي.. والقائمة تطول!

كان احتفالنا بكتاب ع.ق، الذي طبعت منه ثلاثون ألف نسخة كطباعة أولى ونفدت تماماً، احتفالاً كبيراً، وكان شاهداً ضخماً على كفر شعراء الحداثة ومنظريها، ولا ننسى أبداً تلك المحاضرة التي تصدى فيها ع.ق للمفكر والروائي تركي الحمد وبطولته في تكفيره أمام الناس بمدينة أبها!

كانت تلك الفترة بدايةً حقيقيةً للتكفير المعلن، وبدايات الفتاوى القاتلة، والفتاوى التي تفتي بردة البعض من مثقفي المملكة وشعرائها وكتابها ومفكريها، في تغاضٍ من الدولة، ودعمٍ من المؤسسة الدينية الرسمية!

أربعة أشهر من تلك السنة هي المؤجلة من الدراسة، وهي التي كانت الجماعة تدرس كل ما حدث سياسياً وتلقننا خلاصة رأيها، وأربعة أشهر من الحياة الدائمة مع أفراد اللقاء الأسبوعي عاطفةً وانتماءً وفكراً وكلّ شيء، ما يحول بيني وبينهم سوى وقت النوم، وأعود لأنام في المستودع الذي كان أحبّ إليّ من الدنيا وما عليها!

تعرفت معهم إلى كفر الدولة وسيرها السياسي، وكفر الحداثيين وبطولات المشائخ الدينيين (ع.ق، س.ع، ن.ع، م.م) الذين كانوا رموزاً لهذا العمل وحملوا على عاتقهم فضح الدولة التي يعتقدون كفرها، وفضح العلمانيين وكل من يسير في ركابهم، وكم كنا نمجد شجاعتهم في الحق، وصبرهم على السجن وما تسومهم الدولة وتواجههم به!

في تلك السنة لم أترك وسيلةً يمكنني أن أفعلها لأقنع أهلي بأن يشتروا لي سيارة إلا فعلتها، لكن أبي رفض تماماً، ثم كان أن عرض عليّ أخي الأكبر، الذي لا يساورني شكٌ في كفره، أن يشتري لي السيارة مقابل أن أترك هذه الجماعة، وهؤلاء المتدينين، فرفضت في البداية، لكن الشيخ علي، رئيسي بالجماعة، قال لي:

«إن الكذب على مثل هذا الكافر جائز، فقل له إنك ستفعل، حتى إذا أعطاك السيارة فسخرها للدعوة والعمل في سبيل الله».

فعدت لأخي وقلت له بأني أقبل ما يشترطه..

اشترى لي أخي السيارة، ومن أول يوم هربت بها إليهم، وكلما حاول أن يستعيدها فررت بها مرةً، وهدّدته بأن هذه السيارة لي وأنها مسجلةٌ باسمي وأني سأشتكيه للشرطة، فيشتمني ويصفني بالمخادع والكذاب ويشتم الذين جعلوني أخون أخي، وكنت أرد عليه بأنه كافرٌ وفاسق وأن دعاءه وشتائمه يرميها الله بوجهه!

تحطمت السيارة تماماً في حادثٍ مروري بعد خيانتي لأخي بشهرين، وحينئذ كان من المستحيل أن يشتري لي أحدٌ من أهلي سيارة بعدها، ويأتيني الشيخ علي بسيارة وقبل أن يعطيني مفتاحها يقول لي:

- هذه السيارة اشترتها لك الجماعة لتعمل ولتستخدمها في الدعوة والطاعة وتنفذ ما تؤمر به.

- سأحافظ عليها، ولن أسير بها إلا لما يرضي الله ويرضي الجماعة عني!

ثم سارت الأمور على ما سارت عليه في العام المنصرم، فقد

شاركت في كل الأنشطة، وفي المركز الرمضاني، وفي المخيمات، والرحلات، وأخيراً بالمشاركة في المركز الصيفي، لكن في المعهد الديني العلمي هذه المرة، لتكون فرصةً جديدةً للتعرف إلى هذا المعهد الذي سمعت عن المنتسبين إليه ونشاطهم الكثير الكثير!

١٤

الصوص لا يرى البيضة التي يتخلّق داخلها، وحتى يراها لا بدّ أن يثقبها أولاً بمنقاره!

إذن فلا يمكن لأحدٍ أن يعي شيئاً وهو داخله، علينا أن نخرج من الأشياء تماماً حتى نستطيع استيعابها. لا أدري كيف ينظر أولئك، الذين خرجوا من الأرض إلى الفضاء، إلى الحياة وقضاياها وأفراحها وآلامها، أظنهم يرون كل الأشياء صغيرة ومضحكة، مثل هذه الأرض التي يرونها من فوق.. حقاً تفقد أشياء كثيرة قيمتها حين نخرج منها وننظر إليها من فوق، وفي اللحظة ذاتها فإننا نبقى رهائن لما لم نستطع التخلص منه ولا تجاوزه!

المركز الصيفي في المعهد العلمي..

المركز الأضخم في الجنوب كله، مركز المعهد العلمي، وأكثرها شهرةً ونفوذاً، وبه عدد من الأسماء التي يحلم صغيرٌ مثلي أن يلتقيها وأن يكون له بها صلة وعمل، وهذا ما حملته لي الإجازة الصيفية الثانية، فالمسؤول المباشر عني، علي، وجهني للمشاركة هناك للاستفادة من أجواء المعهد الملأى بالجدية

والعلم، والمتميز أبناؤه بالحماسة والعمل الدائب. كنت سعيداً أيما سعادة وأنا أعيش كل هذه اللحظات اليومية، فهنا في المعهد يلزم الطلاب أن يكونوا على قدر كبير من التقوى والعبادة والعلم، حتى لو على سبيل الرياء والنفاق، ليحجزوا أماكن محترمة في أعين الكبار، لاسيما في ذهن الشيخ المشهور جداً، الشيخ ع.ش الذي كان مسؤولاً عن المركز، وعرفت فيما بعد بأنه أحد كبار رموز العمل الحركي التنظيمي، على مستوى البلاد عموماً وعلى مستوى المنطقة خصوصاً!

قرأت وقرأت في تلك الفترة، ولأقل في تلك السنة، ما لا أعتقد أن أحداً في عمري حينئذ قرأه. إني لا يكاد يمر بي اسم كتابٍ ديني من النهج الحنبلي الوهابي أو الفكر التكفيري لم أقرأه، بل لم أناقشه، فعلت كل هذا، وأنا في السادسة والسابعة عشرة وما بعدها، وهذا ما جعلني لافتاً ومحطاً لأنظارهم واهتمامهم كباراً وصغاراً، لتبدأ بذلك صداقات جديدة مع إخواننا في المعهد العلمي..

موسى أقربهم إليّ، فبلغت وإياه من الألفة والصداقة أن كنا نغدو ونروح معاً، وكنا نلتقي في الثالثة كل فجر لنذهب إلى مسجد عبيد الله الأفغاني نقرأ على يده القرآن، الذي أتممت حفظه على يدي هذا الشيخ هناك، وقرأت المصحف بروايتين عنده أيضاً..

ارتبطنا معاً وجدانياً في هذا الإطار المعزول عن العالم الكافر المليء بالطغيان والمعاصي، وبلغ تمسك كلينا بالآخر أنه كان شيئاً معتاداً أن نسمع أن اثنين من إخواننا كشف أمرهما، وهما يتبادلان شهوةً، فنعوذ بالله مما فعلاه، ونكرههما ونهجرهما، ثم يجتهد

الكثيرون في أن يخفوا، ما يستطيعون إخفاءه، مما يدور بينهم، وفي لحظات التجلي والصراحة يعترف بعضهم إلى بعضٍ، فيبكون ويتعاهدون على التوبة، وألا يقعوا في شيءٍ من هذا بعد مجلسهم ذاك!

هناك آخرون كانوا معي وموسى، فكنا مفعمين بالحب والإخاء والعاطفة الجياشة، ولقد كان اقترابنا بعضنا من بعض لدرجة تمثيلنا فريقاً نختلس الأوقات لنكون معاً، ولبالغ ما كانت حماستنا فاعلة وضخمة أننا كنا نشكل جبهةً نقف أمام بوابات المركز، وحين يمرّ الشباب الآخرون من غير المتدينين، وأصوات الموسيقى بسياراتهم، نوقفهم ونتحرش بهم، وكثيراً ما اعتدينا عليهم وضربناهم!

في هذا المركز تعاقب على أذهاننا وأرواحنا عدة أشخاص من حركيي المعهد ومنظميهم تنظيماً دقيقاً، يكرّسون مفاهيم متعددة في دواخلنا، وكان لأسطورية حديث الشيخ ع.ش ما يجعل نفوذه لدينا سحرياً، فكانت له كل ليلة، بعد صلاة العشاء، ربع ساعة يسمونها بالوقفات، يتحدث فيها، والجميع في ذهولٍ مما ينطق به!

وبالطبع يحتلّ الموت والحديث عن الآخرة مقدمة كل وقفة، وكيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الموت بترويض نفسه على ألا يخافه، بل ليتحول في أعماقه إلى أمنيةٍ وحلم، حتى أنه كان يبدأ ع.ش وقفاته بالدعاء «اللهم مزّقنا كما تحب في سبيلك».. وأيضاً فمن القضايا، التي تعاد وتعاد دائماً بطرقٍ كثيرة ومتعددة ومتنوعة، قضية الكفر الذي تتخبط فيه المجتمعات والحكومات كلها في هذا الزمن، والإصرار على أنه لا توجد دولةٌ تحكم بشريعة الله وسنة

رسوله، وأن الدول الإسلامية باتت أكثر شراً حتى من دول الغرب، فهي الجاحدة بعد أن جاءها الحق وأنكرت ما عرفت، واستبدلت كلام الله ورسوله بالقوانين الوضعية واحتكمت إلى الطواغيت. إنها، كما يرددون، جاهلية العصر، الجاهلية التي تجاوز استعداؤها للدين الجاهلية الأولى، جاهلية أبي لهبٍ وأبي جهل، والوليد بن المغيرة!

أيضاً.. الولاء والبراء، الولاء للصالحين، ومن هم الصالحون؟ إنهم من يسير وفق هذا المنهج الذي كانت الجماعة عليه، أما غير هذه التوجهات فهي على ضلالٍ كبير، بل إن كفر الشيعة لم يعد مسألةً تثير اختلافاً، إنهم على كفرٍ بيّن، فهو الولاء لنا، والبراء ممن ليس معنا، واعتباره إلى سوء المصير. لقد كان فيما نستنبطه من كتب الحركات الجهادية في بلدان أخرى، ونشرات بن لادن والظواهري، والجهاد الأفغاني ما يجعلنا على إيمانٍ لا يخالجه شكٌ بأن الإسلام دينٌ غريبٌ في هذا الزمن، وأن أكثر معتنقيه ليسوا حقيقةً عليه، وحتى العارفين به فإنهم كالقابضين على الجمر، ولا يكاد ينجو من الفتنة واتباع الشيطان إلا من اصطفاه الله بعنايته!

امتلأت صدورنا بالكراهية، ليس على الغرب والحكومات كلها فحسب، بل حتى على مجتمعنا وأهالينا وإخواننا، ولم تكن حكاية فلان، من أصدقائنا، أنه اعتدى على أحد إخوانه، أو أنه هرب من بيت والده، أو حتى أنه شتمه ووصمه بالكفر وأنه منه براء، شيئاً غريباً، وكانت تمر السنة والسنتان وأنا لا ألقي على إخواني التحيّة، ولا آكل معهم ولا أركب سياراتهم ولا أحضر أي

شيء مرتبط بالأسرة معهم، وكنا نتجالس أنا والبعض من أصدقائي المتدينين، فيصف كل واحدٍ منا كيف ضرب أحد إخوته أو قريبه، أو ابن جيرانهم، وخيرنا ذلك الذي اعتدى على الخادمة الأندونيسية، لأنها لا تغطي وجهها، وكيف ركلها بقدمه في ظهرها، وشتمها بـ «يا عدوة الله!».. هذه الأجواء التي سحبتني إليها المعهد أنستني عزلتي الأسرية والاجتماعية، التي كنت أعانيها فقد استغنيت بهم تماماً عن أي أحدٍ آخر، أباً كان، أم أماً، أم أياً يكن! فالقراءات التي تغذينا بصرامة الموقف وحديته، تجاه كل ما في الوجود سوانا، والمركز في المعهد، والأصدقاء، والحوارات والنقاشات، واللقاءات، والتطوّر الذي تشهده أيامي يوماً إثر يوم كان كافياً لتخديري، وأن يكون حجاباً مكثفاً، لا أستطيع معه رؤية أي شيءٍ جميلٍ، غير ما أعيش داخله وما أنا مفتونٌ به، ثم شهدت نهاية المركز تلك السنة أهم الانقلابات في سيري معهم، فبعد أن كنت مريداً أتلقى العلم والأفكار، أصبح من المناسب الآن أن أكلّف مهام قيادية على مستوى الجماعة، فكلفني الشيخ علي أن أرعى ثمانية أشخاص من الطلاب الجدد، وأن أقسمهم إلى مجموعتين، أتولى تربيتهم، وتلقينهم ما لقنته أنا في البدء، وبالطريقة نفسها، ففعلت وضممتهم إليّ، ولأنني كنت مؤثراً كما يعتقد الكبار، فقد وفقت بسرعةٍ بالغة أن أؤثر فيهم وأن أدخلهم إلى العمل في وقتٍ قياسي، فصاروا متدينين موالين يحملون الفكر والموقف والإيمانيات ذاتها!

١٥

يقولون في عسيرنا إن «المحشد يشرب السم ويقتل أخاه» يعنون أن المُحرِّض الذي امتلأ صدره بكلام أحدٍ ما فإنه من الممكن أن يتجرّع السم، ويمكن أن يقتل أخاه!

ولأنني كنت ممتلئاً فلم يبق بي من خليةٍ لم يسكنها تعلقي بهذه الحياة، بإيمانياتها ونسكها وحركيتها، وحتى عدوانيتها تجاه كل مفردات أية حياةٍ خارج الإطار الذي أعيش فيه، بل إن فشلي الدراسي المتتابع لم يكن ليوقظني أو ليكون عندي موضع اهتمام أو مبالاة، بل إني كنت أحدث نفسي أن تعثري بالدراسة يعني بقائي في المدرسة فترة أطول، وأكون إذن داخل النشاط والدعوة، اللذين لا شيء أحب إليّ منهما، ثم ما هي قيمة الدراسة والدنيا كلها في قناعتي لا تزن جناح بعوضة ولا تساويها، والحقيقة كل الحقيقة عندي حينئذ أن أنذر محياي ومماتي لهذا الطريق!

هذه ١٩٩١ وسيكون مكاني في المدرسة وأنشطتها ومركزها مكاناً مرموقاً، فأنا الآن من كبار طلاب المدرسة والشيوخ الدعويون الحركيون الكبار يثقون بي، لدرجة أني صرت قائداً لمجموعتين، وهذه سابقةٌ لم يبلغها أحدٌ في هذا السن، كما كان شيخي علي يحدثني، ويطلب إليّ أن أكون بحجم هذه السابقة..

في الأسابيع الأولى من الدراسة يذهب ثلاثة من أصدقائي، الذين عرفتهم في المعهد، وكانوا أحب الناس إليّ وأقربهم، إلى البحر الذي يبعد عن أبها ١٠٠ كيلومتر، فلا يعود منهم إلا موسى!

مات الاثنان، بل هشمت عظامهما السيارة، فتماسكت حتى التقيت موسى، الذي انهار تماماً حينما رآني، وأخذ يلعن نفسه ويصرخ أنه قاتل، وأنه قتل قلبه قبل أن يقتل أخويه، وأن عليّ أن أبتعد عنه حتى لا يقتلني. حاولت دون جدوى أن أسليه وأن أذكره بالقدر وأن هذه إرادة الله، ثم إن حوادث السيارات لا تختار قتلاها لكنه الله يفعل ما يريد، وحين لا يستجيب لهذا أتداعى فأبكي وأبكي معه، ثم أعزم على أن أصوم معه الأربعة الأشهر كفارة قتل الخطأ. قلت له حينئذ: «إنهما لم يموتا، فأحد العلماء يرى أن موتى الحوادث شهداء، قياساً على موتى الهدم، والشهداء أحياء عند الله يرزقون، وأننا سنزورهم دائماً في المقبرة، وسنقف على قبورهم، ونطلب من الله أن يجمعنا بهم في الجنة». لقد قلت وقلت لأسليه وأسلي نفسي لكن فجاجة الموت كانت أكبر من كلماتي كلها!

وأسبوعان آخران..

ذهبت لزيارة أحد أفراد المجموعتين، اللتين كلفت قيادتهما وتوجيههما، ليفاجئني أخوه: «إنه في العناية المركزة، بعد أن أشتكى من صداع حاد، حتى غشي عليه في البيت، فنقلناه إلى المستشفى وهو هناك الآن».

وأسبوعٌ آخر.. كل يومٍ كنت أتوسل إلى أخيه أن يمنحني فرصة زيارته، وأحدثه أنه حين يراني سيقاوم أكثر، لكنه يمتنع

معتذراً بأن أخاه في غيبوبة مستمرة لا يعرف من أتى ومن لم يأتِ، وكل ما يرجوه مني أن أصلي كثيراً وأدعو له فالأمر خطيرٌ كما يبدو!

لم يلتئم حزني على صديقيّ الميتين بعد، ولا على فاجعة موسى بهما وكمده البالغ عليهما حتى تتدخل الحمى الشوكية فتختطف صديقي الثالث.. صديقي الذي كنت أحلم أن يكون نسخةً عني، وأن يكون داعيةً وناشطاً في سبيل الله، لكن الموت يقول كلمته، ويختاره الله ليقتحمني الحزن من الجهات الأربع، ويهرب بي إلى حدادٍ لا حدّ له من الصمت والتأمل وزيارة المقابر والبكاء!

حزني المركب هذا ما كان ليسليني منه وعنه إلا أن ألجأ إلى اللّه أكثر فأكثر، لأتحوّل بمرور الوقت، وبكل هذا الارتباط والصمت والحزن إلى عابدٍ خاشعٍ متصوّف، حتى صرت مثلاً يتحدث عنه الكبار والصغار، يصفّون صلاتي وخشوعي وأني لا أتحرّك ولا يرمش لي جفنٌ، وعن سجودي وركوعي وابتهالاتي، وإطالتي للصلاة، وعن صيامي وقيامي، والحزن والشحوب اللذين يكسوان وجهي، وعن إعراضي عن الدنيا وزينتها، فثيابي وكل أحوالي الرّثة كانت تعبئني بحبّ الله أكثر، وتوحي بأني متجردٌ من الدنيا وزينتها والشيطان ومكائده!

صرت خطيب جمعةٍ، أجول في القرى والضواحي أصلي بالناس الجمعة وأخطب فيهم، وأذكرهم بالحيات والعقارب والكلاليب والجمر الذي ينتظرهم بعد الموت، وأن عليهم أن يغتسلوا من الدنيا وأن يهرعوا إلى الله وأن يفروا منه إليه، ولزمت

المساجد إماماً للصلوات الخمس في حيّنا، وفي رمضان كنت أتجلّى بالناس في صلاة التراويح، وأطير بهم إلى روحانياتٍ لم يكن ليعرفها غيري كما كنت أحدث نفسي بذلك حينئذ.. هكذا كنت على هذا الحدّ من التحيّز للسماء، بكل صدقٍ وإقبالٍ وخوفٍ وحبٍّ وكل شعورٍ ممكن، فمن الصلاة الطويلة بجوف الليل والتوسل إلى اللّه أن يميتني ميتةً حسنةً في سبيله، وأن يجمعني بالذين انفطر قلبي على غيابهم، إلى قراءةٍ وحفظٍ للقرآن عند عبيدالله الأفغاني، إلى دعوةٍ وأنشطةٍ بالمدرسة، إلى قياديةٍ وتربويةٍ خارجها، إلى حضور المحاضرات الدينية عند الخطيبين الشهيرين بالمنطقة (ع.ق – س.م) اللذين كانا يستعديان الدولة وأمير أبها تحديداً، ومن هذه المحاضرات إلى زيارة المقبرة، التي بها قبور أصدقائي الثلاثة، والجلوس عند قبر كل واحدٍ منهم وقتاً طويلاً أناجيه وأعدد الذكريات عليه، وأتشمم أية رائحةٍ ممكنة لأقنع نفسي أنها رائحة الجنة وأنهم في النعيم!

مما أتذكره أني كنت إذا نزل المطر ليلاً أو نهاراً أروغ عن أعين من أكون معهم، لألجأ إلى شِعبٍ من الشعاب أو وادٍ من الوديان، فأكشف رأسي، وأسجد لله تحت المطر حتى يكفّ، وطالما تعرضت لنزلات البرد والحساسية وأنا منتشٍ بهذا الجوّ، وبقيت زمناً طويلاً أكتب تحت اسمي في كل شيءٍ أوقعه «وحدي أعرف رائحة المطر»!

وفي المخيمات أو حتى في المركز كنت إذا رأيتهم اجتمعوا في مكانٍ واحد كان يغريني أن أهرب عنهم للصلاة والدعاء والبكاء ومناجاة الله ورفاقي الموتى.. وفي قمة زهوي بما أنا فيه من

الانصهار، مع هؤلاء، كدت أرحل إلى أفغانستان، حيث جاءني أحدهم، وقال:

«أستطيع استخراج جواز سفر لك، إن كنت تريد الهجرة إلى حياة المجاهدين هناك..»، فطلبت إليه أن يمهلني لأفكر، ولا أدري ما الذي جعلني أعود إليه، قائلاً: «إن الوقت لم يحن بعد لأكون مجاهداً، فما زلت أحتاج إلى تقوية إيماني أكثر».. نظر إليّ نظرة ريبةٍ وانصرف!

إذن فما دمت لم أذهب للجهاد فلتكن هذه السنة هي التي يلزمني فيها الصدح بالحق، وقطع دابر المنكرات، وصفع كل الذين يصدون عن سبيل الله بفسادهم داخل المدرسة وخارجها. كنت حينئذ على درجةٍ حادةٍ من التمسّك بما أنا عليه، جزعاً من غدرة الموت بأصدقائي، مؤمناً أن الدنيا لعبة زمنٍ قصيرة فماذا سأقول لله حين يسألني عن كل هذه المنكرات، التي تلفّ العالم وما الذي فعلته لأخرسها وأخرس أهلها. أما داخل المدرسة فقد كان لي حيز واسع من النفوذ والقوة، باعتبار شهرتي واعتباري من قدامى الطلاب، فجهرت بالحق مرآتٍ.. ومرّات!

يوماً جمعت طلاب جماعة النشاط الدعوي، وأقنعتهم أن ترديد السلام الوطني في الاصطفاف الصباحي خطيئةٌ فادحةٌ من ناحيتين، فهي موالاةٌ للدولة الكافرة، التي تحكم بغير ما أنزل الله، وتوالي اليهود والنصارى، كما أن هذا السلام الوطني أغنيةٌ تؤدى على أصوات الموسيقى والمعازف، وترديدها في المدرسة، حتى دون هذه الآلات نصرٌ للباطل على الحق، وللحرام على الحلال.. وحين سألوني:

- كيف نفعل إذن؟

- حين يبدأ هذا السلام الوطني سأرفع صوتي بأناشيدنا البطولية من باب الوقوف بوجه الباطل.. ولتفعلوا مثلما أفعل!

بقي أن أمتنع عن كل التمارين الرياضية، التي تتطلب التصفيق المحرم، فلا أؤديها حتى يوقف المدرب الصباحي هذا التصفيق، وكان المعلم المسؤول عن الاصطفاف الصباحي كلما بدأ التمرينات الرياضية، أقف ومن أقنعتهم هكذا، دون حراك لا نشارك في التصفيق وإنما نصرخ «الله أكبر» كلما صفق البقية! وكان المعلم كلما نادى بالسلام الوطني (سارعي للمجد والعلياء.. مجدي لخالق السماء) رفعت صوتي ومن معي بكل طاقتنا: «كنا جبالاً في الجبال وربما.. صرنا على موج البحار بحارا».. فلا نكفّ عن هذا حتى يسكتوا ويعلو صوتنا، وبعد غير مرة اضطر مدير المدرسة لاستدعائي، محاولاً أن يوقف فعلي هذا، فقلت: «لن أقف حتى تقفوا عن هذا السلام».. وبعد الكثير من الحديث استجاب المدير وطلب إلى معلم الاصطفاف الصباحي أن يتجاهل التصفيق والسلام الوطني كحلٍ للسيطرة على هذه الفوضى!

بلغت قوتي فيما أراه من الحق أني كنت أنتصب فزعاً في الفصل بوجه المعلمين إذا قال أحدهم عبارةً تصادم الدين أو المتدينين، فمرةً وبحصة التعبير يطلب معلم اللغة العربية إلى الطلاب أن يكتبوا عن مشهدٍ تلفزيونيٍ مؤثرٍ لم ينسوه، فرفعت يدي على الفور وقلت: «أنت تدعو الطلاب إلى الحرام، تحرضهم على متابعة التلفزيون الذي يعجّ بالضلال والمنكرات ولا يحق لك أن تطلب مثل هذا الطلب فاتق الله فينا» فلا يكون أمام المعلم إلا أن

يعفينا من هذا الواجب، لأنه يعرف أني مستعدٌ لمشاجرته وإسقاط هيبته أمام الطلاب، ولأن معلمي الدين، من المشاركين في الأنشطة، يمثلون لي دعماً كبيراً داخل المدرسة، فلا نتيجة من مواجهتي سوى الخسران.. ولم أكن لأشعر بالحياء وكل من في المدرسة ينظر إليّ، وأنا أصبح في شأنٍ ما، فما كان يخجلني مثلاً أن أكون بساحة المدرسة، والجميع يتناولون إفطارهم وأنا في واحدٍ من الأماكن أقرأ القرآن، وحين تمرّ بي آيةٌ تستدعي السجود، جثوت على الأرض، وسجدت متجاهلاً دهشتهم وهمزهم ولمزهم، وبعض الضحكات، لكنني حين أرفع نظري لا يستطيع أحدٌ أن يكمل ضحكته، أو حتى نظره إليّ!

ومرةً.. وجدت بعض الطلاب يتناقلون صورة فتاةٍ جميلة، مقصوصة من مجلّة، لم تكن عاريةً قط، لكن ما تكشف من ساقيها ومن ذراعيها كان كفيلاً بأن أتجه إلى مدير المدرسة وأصيح بوجهه أن يوقف هذا الانحلال، وإلا فسيحدث الكثير، ولدقائق من عودتي إلى الفصل جاء المدير واستدعى الطلاب، الذين كنت قد أخبرته أنهم هم المسؤولون عن هذه الصورة. استدعاهم وعاقبهم، وطلب إليهم إحضار آبائهم في الغد، وخصم الكثير من درجاتهم في جميع المواد، وسجل عليهم ملاحظة سلوكية في ملفاتهم، ولأن الطلاب قد تعرضوا لكل هذه الإحراجات، وهم على علم تام بأني وراء هذا كله، فإن أحدهم عند عودته إلى الفصل خرجَ عن طوره وشتمني بقوله «أنت حيوان» فقمت من مكاني كالمسعور، وهجمت عليه وضربته حتى مزّقت ثيابه، ولم يكن هناك من أحدٍ ليجرؤ على أن يقف معه أو يساعده، فهم يعرفون

عواقب ذلك عندي وعند بقية طلاب الجماعة، وعند معلمي التربية الدينية، وحتى عند مدير المدرسة!

طرد هذا الطالب من المدرسة أسبوعاً، وكان عبرةً لغيره ممن تسوّل لهم أنفسهم أن يقفوا بوجهنا، أو أن يكونوا أداةً لترويج المنكرات والفساد!

المعلمون الذين كانوا يدعموننا كانوا هم أنفسهم من يدير المدرسة ويشكلونها على ما يريدونه، دون أدنى مقاومة من المدير أو غيرهم من المعلمين، مستغلين مواقعهم ونفوذهم الديني في أن يكون لهم المكان كله. أحد معلمينا من الشيوخ أفتى بجواز الغشّ في مادّة اللغة الإنكليزية، لأنها لغة الكفار، وعملنا بفتواه، دون أن يواجه أحدٌ رأيه بكلمة واحدة، حتى معلم اللغة الإنكليزية، الذي كان موقفه مخجلاً وبائساً، بل كان يشعر بالخجل أنه يدرس هذه المادة، ومعلمٌ آخر «يغشش» طلاب الجماعة الدعوية في مادّة اللغة الإنكليزية، والويل لمن يجرؤ على أن يقول بحق شيخنا هذا شيئاً، أو حتى أن ينظر إليه، فهو مؤمن يملي عليه إيمانه إذلال الكفار حتى في لغتهم!

وبكل هذه السلطة لنا في المدرسة كان كل من أراد أن تسير أموره بهدوء ونجاح فإنه لا بدّ وأن يكون معنا في هذه الأنشطة، لاسيما أولئك الطلاب الوسيمون، الذين يخافون على أنفسهم من الانتهاكات الجنسية لجمالهم فإنهم أول ما يبحثون عنه من الحماية أن يكونوا معنا. كانت السيارات تعجّ بهم، وكانت القصص العاطفية على أشدّها مع هؤلاء الوسيمين، تحت مسمى الأخوة والحب في الله، وهذه النقطة تحديداً فجّرت الخلافات الكثيرة ما بين المنتمين

إلى هذه الأنشطة، صغاراً وكباراً، إذ تتكرر نزاعات اثنين على صداقة أحد هؤلاء الصغار المرد!

على كلٍّ فقد اشتهرت هذه المدرسة الثانوية بقوة طلابها الملتزمين بالأنشطة الدعوية في حقهم، وصاروا مثلاً لغيرهم من المتدينين في مدارس أخرى!

١٦

حين تصبح الأفكار سلطة فإنها لن تكون أفكاراً، ستكون سياطاً وعصياً وأكثرها إيلاماً هو ما كان باسم القداسة والدين والأخلاق!

كنت ساعة أخرج من المدرسة ألتقي أصدقائي، أربعة أو خمسة، فنتناول غداءنا في أحد المطاعم، وبعد أن نؤدي صلاة العصر نشرع بالتجوال في شوارع المدينة، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، دون أن يكون لنا أي انتماء وظيفي إلى الجهاز الأمني التابع للدولة، وإنما نحن متطوّعون، نغير المنكرات، فلا نقف عند إشارة مرور بسيارتنا ولا نرى أحداً يدخن السجائر أو يستمع إلى الموسيقى إلا أوقفناه، ووعظناه، وذكرناه بالموت والنار، ومددنا له بأحد الأشرطة الوعظية، فإن قبل تركناه ودعونا له بالهداية، وإن أبى فعليه أن يحتمل شتيمتنا ودعاءنا عليه، وربما تصل الأمور أحياناً إلى تأديبه وتلقينه درساً جسدياً، لا ينسى بعده كيف يتعامل مع الدين وأهله!

دخلت ورفاقي يوماً إلى أحد الأكشاك الصغيرة، التي تعد السندويشات السريعة والجاهزة، واتجهت توّاً إلى التلفزيون وأقفلته

فقام أحدهم وفتحه، فعدت وأقفلته، لتبدأ بيني وبينه معركتان، أولاهما كلاميةٌ، أصفه فيها بالفسق ومعاندة الله، وأنه تأخذه العزة بالإثم، وأخيراً اتهمته بالكفر، وهو يصفني بالمتطفل والمتحكم في حريات الآخرين، دون وجه حق، ثم المعركة الأخرى، معركة الأيدي، ولأنني لن أكون وحيداً طبعاً فقد لقي ما لقيه.. وليست مرةً ولا اثنتين نطلب لقاء صاحب متجرٍ أو مقهى لنناصحه في مجلاته وسجائره وتلفازه ونؤنبه: كم هو ينشر الشرّ، ويتحمّل ذنوب كل من يشتريها منه إلى يوم القيامة! ثم نذكره أن ماله حرامٌ حرام، فكيف يربي أطفاله من السحت، والذين تنمو أجسادهم من السحت فإن النار أولى بهم.. وكثيرٌ يستجيبون إلى وعظنا، وقلّةٌ تعلو أصواتهم وأصواتنا لنحيلهم على الله، داعين عليهم أن يبتليهم الله في أطفالهم وأسرهم وعافيتهم وأموالهم، لأنهم جحدوا نعمة الله عليهم، واستبدلوا الشكر بالكفر!

هذه حادثةٌ حضرتها..

الكثير من أصدقائي يعملون لدى الشرطة الدينية، وكانوا يبيحون لأنفسهم أن يتدخلوا في كل شيء من خصوصيات الآخرين، أن يتهموا، وأن يوقفوا الناس، وأن يفتشوا بيوتهم ومحالهم، ويتدخلوا حتى في شعر رؤوسهم فيحلقوه، أما النساء فيلاحقونهن بالتوبيخ واللمز، كي يرتدين الحجاب، ويمنحون أنفسهم الحق أن يقتحموا سيارات الشباب، فيصادروا ما بها من أشرطة الأغاني وغيرها، وغير هذا كان يفعله هؤلاء، وكنت أشاركهم، متطوّعاً، بل كنت أقضي الكثير من الوقت معهم، في مراكزهم التي يحضرون إليها المضبوطين، أقوم بالوعظ أحياناً

وبالرأي أحياناً أخرى، على أن الدولة لدينا لم تعطهم كل هذا النفوذ على الناس!

حدث أني كنت معهم في أحد المراكز المناوبة، وكانت إحدى ليالي الإجازات الأسبوعية، تحدثنا وتذاكرنا الله، وككل ليلةٍ يأتي الأعضاء الميدانيون ببعض المذنبين. هذه المرة سمعنا صراخاً بالباب، عرفنا أنه أحد أعضاء الشرطة يحاول إدخال شخصٍ ما إلى المركز وذاك يماطله، فقمنا لندخله بالرغم عنه!

أول ما أجلسوه على المقعد أخرجوا كل ما في ثيابه، نقوده وأوراقه ومحفظته الشخصية وبطاقاته، ثم أقفلوا عليها في أحد أدراج المكتب، وبدأوا التحقيق معه:

- الأخ العضو ضبطك في سيارتك رافعاً صوت الغناء.
- تقول سيارتي، هي سيارتي ورفعت صوت الغناء في سيارتي، يعني في ملكي.
- ألا تعرف أن الغناء حرام؟
- لا أعرف.
- تتكبر على الحق؟
- يا شيخ هذا شيء يخصني.
- الآن ستعرف هل هو شيء يخصك أم لا يخصك..

كان شاباً في العشرين من عمره، أنيقاً، تبدو عليه علامات الرفاهية، وكانت خطيئته هي سماع الأغاني، ولسوء حظه فقد جادل هؤلاء الأعضاء وقاومهم، ثم قال ما قاله للعضو المسؤول فأخذوه وأدخلوه أحد الحمّامات، وضعوه هناك وسط روائح الغائط

والبول، في مكانٍ لا يتجاوز عرضه المتر وطوله المتر ونصف المتر، بغية إذلاله حتى لا يتكبر على الحق مرةً أخرى!

بعد ساعتين من جلوس هذا الشاب بكل كرامته في هذا المكان، أخذ يطرق الباب بكل قوة: «أخرجوني من هنا».. يصيح وهو يغالب البكاء، فطلبت إليهم أن هذا يكفي، وسألتهم بالله أن يتركوا لي التفاهم معه وأن أتولى أنا قضيته..

فتحت له باب الحمّام، وعندما خرج بكى! فأخذته بيده، وجلست وإياه، أنظر إليه ولم أستطع أن أقول له ولو كلمة واحدة، ولأول مرةٍ أشعر أن خطأً ما قد فعلناه هذه الليلة، فناولته كل أغراضه وودعته، وقلت له بلا شعور وهو يدلف الباب: «سامحني.. سامحني، على الأقل أنا يجب أن تسامحني».. نظر إليّ بتعجب ومضى صامتاً، لم ينبس بكلمة واحدة!

تساءلت تلك الليلة أية نصيحةٍ هذه التي تبرر إهانة الآخرين وطعن كبريائهم وكرامتهم، وأي حقٍّ هذا الذي يجعل من الدين سوطاً يذل الناس إلى هذا الحدّ.. لكن هذا التساؤل لم يكن ليقف بوجه حبي لهؤلاء، وشبق الجلوس معهم، فتآمرت على سؤالي وتناسيته، وحدثت نفسي أن الله يعزّ من يطيعه، ويذل من يعصيه!

هكذا كانت هذه السنة، سنةً من التصوّف والحق والعمل والدعوة، والانضباط بالصفّ الحركي، وهكذا صرت مناراً عبادياً قوياً على غيري من عصاة الله، رحيماً وحنوناً على كل من معي!

هذه السنة شهدت فشلاً دراسياً ذريعاً، فالاختبارات النهائية لم أحضر أكثرها، والذي حضرته لم أكن لأعرف عن تلك المادة

شيئاً، فقد كنت خارج المنزل عند الاختبارات، إثر خصام حاد بيني وبين أهلي، نتيجته المعتادة أن أترك البيت شهراً أو شهرين، أنام في المساجد وعند الأصدقاء!

ظهرت نتائج العام، وأنا مع الجماعة في مخيّم خارج المدينة. جاء أحد الطلاب بنتائجنا لنتحلّق حوله ضاحكين، وحين أعلن اسمي أعلن معه أني محرومٌ بكل المواد، عدا مادة الرياضيات، التي أحرزت بها الدرجة كاملةً، وتقدير الممتاز، لأنها المادة الوحيدة التي أعشقها وأستوعبها دون مذاكرة، لمجرد الحصص القليلة التي حضرت الشرح بها، فضحكنا وضحكنا حتى غلب الدمع عيوننا، وأصبحت نتيجتي الدراسية طرفتنا طوال تلك الرحلة!

وهذه السنة أيضاً شهدت أول حجّة، لأكمل أركان إسلامي بهذه الرحلة التي ذهبت فيها وأفراد لقائنا السرّي، مع شيخنا علي. كانت من أمتع الرحلات، وأكثرها عبادةً وتبتلاً وقرباً من الله، لو لم يكن بها من الوعظ إلا أني رأيت كل هؤلاء البشر يلبسون البياض، يبكون بين يدي الله يستغفرونه من ذنوبهم، وكنت أقنع نفسي: «هؤلاء حتى لو بكوا واستغفروا فإن الخلل الكبير في عقيدتهم، وانتماءاتهم إلى دولٍ كافرةٍ لن يجعل لأعمالهم عند الله من حظ. إنني ورفاقي فقط من صفت عقيدتهم، وعلينا أن ندعو لكل هؤلاء ومن في الأرض أن يتوبوا، وأن يستيقظوا من سطوة الكفر وأهله عليهم وأن يثوروا على جاهلية هذا الزمن، ويؤوبوا إلى الحق الذي نسوه أو تناسوه»..

في صيف تلك السنة كانت لي مشاركةٌ أخرى في مركز

المعهد العلمي، لكن هذه المرة بنكهةٍ جديدة، فأنا الآن من الكبار ومن مشاهير العباد والمتصوّفة، ولي إجلالي عندهم جميعاً شيوخاً ومريدين، فلم أعد ذلك المرح الذي يطارد الكرة ويتألق في وجدانيته وحبه لإخوانه، بل صرت الصامت الحزين الناسك! أتذكر أحدهم حين أمسك بكتفيّ بشدة قائلاً: «سألتك بالله علمني هذا الصمت، الذي تقتلني وتحييني به!».

في المعهد هذه المرة كان لي أن أشارك في الوقفات والمحاضرات والخطب، وأن أبدو في أعين أبناء الجيل الجدد خلاصاً، وأن يكون لي من الاستثناءات عند الجميع ما لا يكون إلا للمهيبين والدعاة والذين يخشى غضبتهم الكل، إذ آمنوا أني ممن يصلون الأرض بالسماء، وأن دعوتي أشد خطراً على من أدعو عليه من الرصاص!

وفي المعهد هذه المرة انفجر خلافٌ ضخم بين اثنين من زعمائه الكبار، ففي أحد الأيام الماطرة والشيخ ع.ش لم يكن في المركز، عند صلاة المغرب، فأمر الشيخ الآخر ف.أ بأن يجمع ما بين الصلاتين المغرب والعشاء، لأن هذا ثبت عن النبي، وعملنا هذا سيكون من إحياء سنته، ففعلنا..

حضر الشيخ ع.ش قبيل العشاء، وحين دنت الصلاة فوجئ أن أحداً لم يؤذن للعشاء، وأن أحداً لم يذهب إلى المسجد، فتساءل غاضباً عن هذا، فقيل له إننا جمعنا ما بين الصلاتين، استجابةً لرأي الشيخ ف.أ.. كان المطر حينئذ قد توقف، وشعر الشيخ ع.ش أن هناك من ينازعه إدارة الأمور، فنادى في الجميع وصلى بهم العشاء، التي قد صلوها مرةً أخرى، ثم قام بعد الصلاة

ليتحدث عن المترخصين في أمور الدين عن غير علم، وأنهم لربما مشوا بالناس إلى الضلال والزيغ عن جادة الدين!

سمع الشيخ ف.أ كلامه ليأتي اليوم الذي يليه بالأحاديث والأدلة، أن ما فعله كان مبنياً على علم، وأن النبي جمع الصلاتين في المطر، بل جمع في غير بردٍ ولا مطر، ليقوم ويسكته الشيخ ع.ش وتتحول أجواء المركز إلى عراكٍ كنت أشك في مصداقيته، وأن الخلاف العلمي هو ما يحركه!

شعرت مرةً أخرى أن هذا العالم يتراجع بعيني، وأنه يتكشف عن سوأةٍ أخرى، وتألمت كثيراً لهذه الجنة أن تخترقها هذه الضغينة حتى إن الطلاب انقسموا قسمين، أكثرهم مع هذا وأقلهم مع ذاك، وأخيراً فإن الشيخ ف.أ خسر كل شيء، ولم يعد قادراً بعد وقتٍ من هزيمته على الحضور، فقد كان لصنمية الشيخ ع.ش في أذهان الجميع ما جعل خصمه شيطاناً رجيماً!

دنت نهاية الصيف، الذي لم يبق منه سوى أيام، وقررت أن أنجح في الاختبار البديل. يسمونه اختبار الدور الثاني، فكنت أحمل كتب المواد السبع التي أخفقت فيها معي أدرسها في كل وقتٍ ممكن. بعد نهاية المركز أذهب إلى أحد المساجد في المدينة، فأسهر به أدرس وأدرس.

وفي أحد اختبارات الدور الثاني عرض عليّ أحد المعلمين أن يقدم لي المعلومات حتى أنجح، فشتمته ووصفته بالغشاش، ولم يكن عندي من شكٍ أني سأتجاوز كل المواد، فقد درستها كما يجب، مطمئناً إلى أن لي من الذكاء ما يمكنني من النجاح..

عند انتهاء الاختبارات كان مركز المعهد العلمي يختتم

نشاطات صيفه ذاك برحلة إلى مكة والمدينة، وكالعادة كنت أول المشاركين.. سافرنا في اليوم الذي ستظهر نتائج المكملين اختباراتهم البديلة في الصحف، طلاب المرحلة النهائية في الثانوية، وفي منتصف الطريق وقف الباص عند أحد المتاجر الغذائية المختصرة ليعود منها بالصحيفة وبها الأسماء. نادى بأسماء الطلاب المكملين واحداً واحداً، ثم نادى باسم ظننته أول الأمر اسمي، كنت واقفاً على الاسفلت عند عجلاتِ الباص، فخررت ساجداً، سجوداً طويلاً شاكراً لله أني نجحت، ولم أرفع إلا وهذا الذي ينادي بالأسماء يقول مبتسماً: «لست أنت، إنه اسمٌ آخر في قسمٍ غير قسمك، اسمك غير موجود وهذا يعني أنك لم تنجحْ!».. حينئذ انفجر الجميع ضاحكين على سجدتي الخائبة، وضحكت أول الأمر، لكنني بكيت بعد ذلك بكاءً بالغاً، وشعرت بالخذلان وكرهتهم جميعاً للحظة، وأحسست أنهم لم يحترموا مشاعري. هذا الشعور سيهزم في نفسي ولن ألتفت إليه كسابقيه لتعلقي بهم، وتناسيت هذا الجرح الذي بقي الطرفة التي يلوكها الجميع! كنت أحسست للحظة أن جداراً حصيناً لهم في داخلي تشرخه هذه الضحكات، وأخذت أنظر إليهم، كيف يضحكون من خيبتي هكذا وكأنني مجردٌ من أي شعور، فطأطأت وحبست حرقتي!

انتهت الرحلة التي لم يفارقني الألم بها رغم كل محاولتي لتجاوزه، وعند عودتي إلى أبها وفور دخولي البيت، لم يجب أبي التحية، ورفض مصافحتي لأنني لم أنجح في الاختبارات، ثم وجدت منه رسالةً ملقاةً على فراشي.. وليس من عادة أبي أن يلجأ

إلى غير القسوة والضرب والخصام، لكنه قد بلغ يأسه مني حدّ أنه لم يعد قادراً على أن يخاطبني حتى بالعنف والقسوة!

قرأت الرسالة التي باشرني فيها بكل وضوح أنه سيقرر طردي نهائياً من البيت، وأنه لا يشرّفه أن أكون ابنه، وأنه سيتبرأ مني ولن يكون لي في نفسه من مكان. قال إنه سيفعل كل هذا وأكثر بعد أن يمنحني فرصةً أخيرةً، هي السنة القادمة، وأنه لا خيار أمامي سوى أن أنجح وأخرج من هذه المدرسة وإلا فسينفذ كل تهديداته!

استلقيت وشعرت برغبة جامحة في البكاء. إنني أخسر كل شيء.. دراستي وأبي وأمي وإخوتي وكل شيء، كل شيء. أحسست أن شيئاً ما يستيقظ بي، لا أعرف ما هو لكنه يدفعني إلى ندمٍ رهيب، جعلني أقوم إلى والدي لأقبل رأسه، وأعاهده أنه سيرى مني ما يسرّه وأني سأتغيّر وسأكون كما يريد، فلم يجبني لأنه لم يكن واثقاً بأنه أكبر حضوراً في نفسي من أولئك الذين أقضي معهم تفاصيل حياتي كلها، وتساءلت مجدداً لماذا تتحرك بي كل هذه العاطفة تجاه أسرتي التي أعتقد فسقها وعصيانها. لقد قطعت على نفسي وعداً أن ألتزم الدراسة وأن أثبت لكل الذين ضحكوا من فشلي أني قادرٌ على نجاحٍ كبير!

١٧

إذن عليّ أن أفي بوعدي لوالدي، وأن تكون هذه السنة ١٩٩٣ نقطة استعادةٍ لطيب نفس أبي وأمي، ولا أدري حقاً هل ستسعفني إرادتي على أن أتنازل عن بعض الوقت الذي أعيشه مع الجماعة من أجل دراستي هذه السنة أم لا!

كنت مهيأً لأي توتر حاد ما بيني وبين هؤلاء رغم كل تمسكي بهم وحبي لهم، وأي احتكاكٍ سيوقد التساؤلات التي تجاهلتها طويلاً وأعميت عقلي عنها، حتى لا تُخدش صورتهم التي تمثل لي خلاصاً كبيراً، لكن هذا الاحتكاك وقع..

السنة الخامسة التي أقضيها في المدرسة، حزيناً لتأخري وفرحاً ببقائي في المدرسة للمزيد من الدعوة وهداية الطلاب، وعند ابتداء السنة جاء إلى الأنشطة مجموعةٌ من الطلاب الصغار الجدد، ولأن لي جاذبيتي، التي كانت مذهلةً بالنسبة إلى الشيوخ الكبار، كيف أن هذا الصغير يملك القدرة على اختراق أي أحد، فالجميع يحبونه. التفّ عليّ هؤلاء القادمون الصغار جميعاً، وكلهم كانوا يرغبون في أن يكونوا في سيارتي، وأن يكونوا في أي تقسيمٍ داخل المركز أنا فيه..

الكثير منهم على قدرٍ مدهشٍ من الوسامة، والكبار الذين في

سني مكلفون رعايتهم، فكل واحدٍ من هؤلاء الصغار يتعهده أحدنا باللطافة والصداقة ليجتذبه إلى العمل الحركي السرّي كما حدث معي تماماً، لكن هؤلاء الصغار لم ينصاعوا لدعاتهم، وإنما تحلقوا حولي واجتمعوا على التحيّز لي، وهذا ما أثار ضغينة قرنائي وحقدهم!

ما مضت عدة أسابيع من الدراسة إلا وأنا متهمٌ بالميل نحو المرد والصغار الجميلين، وأن لي قلباً يتبع الهوى، وأن وجودي مع فلان وفلان كان افتتاناً بجمالهما، وأنه لا يستبعد أن يكون بيننا أمرٌ غريزيٌّ ما، ويا للقدر، إذ انقلبت في أعينهم من الناسك المتصوّف والعابد الزاهد إلى الفاجر الذي يطارد الغلمان، ودار هذا التشويه، وتفاقمت هذه الوشايات، التي أطلقها وروّجها قرنائي، الذين صارحني أحدهم بذلك، بل هددني أني لو تعرضت للصغير الذي يعنيه هو فسيوقفني عند حدي ولو باستخدام يده!

كبرت ضغينتهم واتهامهم لي بهذه الغرائزية والشهوانية حتى بلغت الشيوخ الكبار، الذين لم يترددوا في مواجهتي، فاصطحبني مسؤولي الشيخ علي في طريقٍ طويل، يعظني ويذكرني بالله وحين سألته:

- ما الأمر؟

- الأمر شهوانيتك وحبك للصغار والمرد وتعلقك بهم وتعلقهم بك!

فثارت ثائرتي ولأول مرةٍ أخرج عن طوري وأتجاوز تقديسي لهذا الشيخ لأقول له بحدة:

«أهلي نشّأوني على الرجولة والقيم قبل أن تأتي يا شيخ لتذكرني بها، وتتهمني بالإخلال بما نشأت عليه كل عمري!».

غضب الشيخ علي غضباً كبيراً وأمرني بالتوقف عن مصاحبة هؤلاء، والكفّ عن أخذهم بسيارتي وتوصيلهم ومرورهم في بيوتهم مؤكداً أنه قد كلّف برعايتهم الأشخاص المناسبين.. إلخ، وفاجأته: «أعتذر عن طاعتك لأن استجابتي لأمرك هذا تدينني وتجعلني في موضع الخطأ حقاً وأنا لم أخطئ ولن أتوقف عن صداقتهم ما دمتم لم تثبتوا سوى هذه الوشايات الحاقدة!».. وفوراً ساومني الشيخ على وجودي في التنظيم والعمل الحركي وأن عصياني له يعني خروجي من هذا التنظيم، فأجبته «أخرجني كما تشاء، أنت تعرف أنك تظلمني ولن أتراجع».. وقبل أن يعيدني إلى بيتي قال: «أنت موقف حتى تمتثل للأمر.. هداك الله!»..

أخرجوني من العمل، وتحولت المسألة عندي إلى تحدٍّ متعلّقٍ برجولتي وكرامتي، فتقطعت ألماً لكنه لم يكن بوسعي أن أستجيب لما يريدونه، فأنا جبليٌّ يؤثر الموت على الهزيمة العلنية، وكان عنادي هذا دافعاً مباشراً ليبدأ أقراني في رصد مجموعةٍ من الدلائل والإثباتات على ما يدعونه من شهوانيتي ليرفعوها إلى الشيوخ كي يتخذوا بحقي قراراً يمنعني حتى من حضور أنشطة المدرسة الصباحية والمسائية والرمضانية والصيفية!

كتبوا وكتبوا التقارير ورفعوها إلى الشيخ علي، والشيخ علي رفعها بدوره إلى المسؤول عن أبها، الشيخ ع.م، كتبوا أنني أردد أبيات الشعر الغزلية وهؤلاء المرد الصغار يسمعون، وأنني مرةً كتبت اسم أحدهم على جدار، وأني مرةً التصق جسدي بجسد

أحدهم ونحن نتصافح، وأني مرةً خرجت وأحدهم بالسيارة خارج المدينة ولا أحد يعرف ما فعلناه، وأني كنت أبيح التقبيل.. إلخ

كل هذه التهم دفعت بالشيخ ع.م لأن يتخذ بحقي قرارين، أولهما استبعادي من جميع أشكال الأنشطة في المدرسة، وثانيهما هجراني من قبل الجميع، فكل من يتحدث إليّ أو يصطحبني أو يتلطف لي يكون قد عصى أمر الشيوخ جميعاً، وامتثلوا على بكرة أبيهم، وصرت خارج الأنشطة تماماً وخارج قلوبهم بفعل هذا الهجران القاسي!، وبالرغم من كل هذا فإن اعتذاراً واحداً وإقراراً بالتوبة، وأن أستغفر الله عما بدر مني كان كفيلاً بأن ينهي كل الخلاف، لكنني رفضت وصرخت بوجه كل من جاءني: «إني لم أخطئ وستعرفون أنكم ظلمتموني يوماً ما!»..

كان لهذا الاستبعاد والهجران فائدته، حيث استمر ذلك الهجران طوال الفصل الدراسي الأول. هذا يعني أني كنت وحيداً، وكانت وحدتي تلك محرّضاً على الاهتمام بدراستي، وينتهي الفصل الأول، وأنا من المتفوقين على مستوى المدرسة، حاملاً تقدير الامتياز، وضمنت تجاوز السنة كلها والخروج من هذه المدرسة، التي تحولت إلى جحيم وقهرٍ وألمٍ وظلم!

من شناعة هجرانهم إياي أنني لأكثر من مرةٍ يخذلني صبري فألحق بهم في المركز، أو في رحلةٍ، أو أي نشاط، فلا يصافحني أحد، ولا يفسح لي في الجلوس بينهم أحد، ومرةً أتيت إلى المركز فاستدعاني المسؤول عنه وطردني على مرأى ومسمع من الجميع.. لقد كانوا واثقين بتعلقي بهم، وصدق إيماني وحبي لله والدين، وكل ما كانوا يريدون الحصول عليه هو إقراري بما قيل،

ثم اعتذاري والوعد بألا أكون إلا مطيعاً لهم في أيٍّ مما يريدونه، لكنني ومع كل نوبات البكاء والوحدة والضيم التي مررت بها طوال الوقت لم أتراجع!

بعد شهرين قرر الشيخ ع.م أن يسمح لي بالمشاركة في المركز، وأن ينتهي هجراني خوفاً عليّ بأن أضلّ وأتركهم تماماً، وهكذا أعادوني إلى الأنشطة، وبقي الشيخ علي على موقفه من استبعادي من العمل التنظيمي، فعدت إلى الأنشطة لكن بقلبٍ جريح وكبرياء مكسورة!

لم يعد لهذا المكان في نفسي فتونه السابق، بل إني اعتدت الوحدة والبقاء مع كتبي وأطفال إخواني، والجلوس مع أهلي الذين تراجعت عن الاصطدام بهم وتركت تكفيرهم وشتيمتهم.. كنت أحتاج إليهم، ولأنهم أهلي فقد غفروا لي كل ما فعلته، واحتفلوا بتميّزي الدراسي كثيراً، وباقترابي منهم من جديد أكثر!

تلك الفترة القاسية دفعتني للاهتمام بالقراءات الشعرية والأدبية، وصرت أكتب شعراً كثيراً، رقيقاً، وحزيناً، أعبر فيه عن وحدتي وغربتي وتمسكي بالدين، حتى وإن هجرني إخواني، كما كنت أحلم في شعري بالموت، والتخلص من كل هذه الآلام والمتاعب، وأن أنصر الأمة، لأن أكبر ردٍّ على كل من اتهمني أن يأتي يوم باستشهادي في سبيل الله، ليعرفوا أني صادق، وليندموا على كل ما فعلوه!

كل هذه المواجع كانت تتمثل شعراً، لا أفتر عن كتابته، وترديده وبثّه على من ألتقيه منهم، فمرةً يعجبهم ويرقون له، ومرةً يرجعون لشيوخهم ويحلفون لهم بالله أني اكتب عن الهوى

والتقبيل والحب. لقد اشتغلت بهذا الشعر، حتى إني كنت أهرب من فظاعة وحدتي إلى مكتبة النادي الأدبي في أبها، فأقرأ للشعراء كثيراً، ومرةً أو مرتين أعطيت المسؤولين هناك بعض قصائدي، فنشروها في مجلتهم الدورية!

النار التي تخلق في جوف الشاعر لا تكفّ عن لسعه، فما توقفه من غوايةٍ إلا لتفتنه بغوايةٍ أخرى.. فمع الشعر ولجت عوالم الروحانيات الأخرى، فتعلمت اليوغا، وصرت أقضي الساعات الطويلة أتعلم التركيز وخفض الطاقة وتصعيدها، وعزل الأعضاء عن الإحساس، وشحن الإرادة.. وغير هذا، لقد كنت أعيش هذه الطقوس كل ليلةٍ تقريباً، إذ لا خياراتٍ أخرى لديّ، غير الشعر والميل إلى هذه الروحانيات والقراءة، مع ما أعيشه من النسك وزيارة المقابر وقيام الليل والقرآن، وبهذا أكون قد تركت كل الأنشطة وأدمنت وحدتي وطقوسي، وبدأت باصطحاب بعض رفاقي من الفصل، الذين لم يكونوا متدينين، بل كان أحدهم مدخناً، فراج الكلام عند الشيوخ بحقي أني أصطحب الفاسقين والمدخنين، وأنها بداية نكوصي وتركي للدين وأهله.. اصطحبتهم، ولم يكن يعنيني كل ما تعلمته من التكفير والتفسيق للناس، بل إني تنازلت عنه، وصرت أتعمد إغاظتهم بجيئتي وذهابي مع من يرونهم فساقاً وكافرين، فالوحدة والعذاب الذي تعودته والكبرياء المخدوشة، التي لم تعد لتسمح لي بأن أكون معهم في أنشطتهم، التي أعلنت كراهيتي لها عندما ألحّ عليّ أحد الأصدقاء، طالباً إليّ العودة إلى المركز، وما تردد أن يقول لي: أنت مثل من قال الله فيه: «فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه

يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا»! . .

مرت السنة، بفصلها الأول، ورمضانها، وفصلها الثاني، ونجحت وتخرّجت، وودعت هذه المدرسة، التي بصقت عليها، ولعنتها كثيراً، ومع أني بقيت متديناً إلا أن علاقتي بأفراد الأنشطة والعمل السابق تهرأت، ولم يعد منها سوى المجاملات إن اضطررت إليها، ولأنهم خافوا كثيراً أن يخسروني، فقد حاولوا إعادتي إلى العمل الحركي، ولكن عند غير الشيخ علي، فقبلت وعدت مع مجموعةٍ أخرى وشيخ جديد لم أقض معه سوى صيف تلك السنة حتى اعتذرت منه وقلت: «اني لم أعد قادراً على احتمالكم، واحتمال أي ماضٍ يربطني بكم فاتركوني، ودين الله للجميع، سأعبد الله بعيداً عنكم، وها أنا مقبلٌ على الجامعة. ستمرّ هذه الأسابيع القليلة لتبدأ الدراسة، وسترون أني سأكون فوق ما تريدون وأريد، فأنا أحب الله والنبي والدين، حتى لو لم أكن معكم»! . .

انتهت مرحلةٌ من حياتي، لا أدري كيف أصفها، ولا أعرف حقاً، مع كل ما فيها من التعب والكمد، هل كانت محطةً إيجابيةً أم سلبية . . كنت جريحاً، وأعرف فقط أني كنت صادقاً، وأني خسرت أهلي وخسرت سنتين دراسيتين فشلت بهما لأجل هذا الصدق، وأعرف أنني أخيراً كرهت حتى الأنشطة والأشخاص، الذين ضحيت لأجلهم بكل ما في عالمي من أهلٍ وأقارب ومجتمع!

أعرف أني سعدت حتى لم يكن ثمة من هو أسعد مني، أو سأقول إني توهمت السعادة حتى لم يكن ثمة من هو أكبر وهماً بالسعادة مني، ثم إني شقيت، حتى إنه لم يكن ثمة من هو أكبر شقاءً مني!

١٨

إذا لم تعرف نوع المشاعر في داخلك، وعجزت عن التحيّز لحزنك أو فرحك، لإقبالك أو إدبارك، لابتسامتك أو دمعتك . . فلن تكون بحاجةٍ إلى البعد أو الهجرة كحاجتك إليه في تلك الحال!

اللحظات، التي أيقنت بها تماماً، أني خرجت من أسوار هذا المبنى إلى الأبد، من هذه المدرسة، بكل ما فيها من أنشطة وذكريات، كانت لحظاتٍ متضادة متناقضة، فأنا سعيدٌ كالذي انعتق من غرفةٍ صغيرةٍ كان يظنها أجمل ما في العالم لأنه لا يعرف غيرها، ولمجرد خروجه منها اكتشف كم كان أسيراً، وحزينٌ لأني ما زلت حتى تلك الساعة أخدر نفسي بأن الشيطان هو من أفسد تلك الجنة، وهو فقط من دخل بيني وبين الصالحين، فنزغ بيني وبينهم، وجعل بيننا كل هذه القطيعة، وكل هذا النفور!

كان صيفاً غريب الأطوار، فأنا الذي ما كان ليجد الدقائق البسيطة ليمنحها دراسته وخصوصيته، صرت بمعزلٍ عن كل شيء، وتمر الأيام طويلةً أحاول أن أشغل نفسي بأي شيء، باختيار الجامعة المناسبة، بترتيب غرفتي، التي منحني إياها أهلي بعد أن

بدأت العودة إليهم، تاركاً ذلك المستودع السفلي تحت البيت، وجدّ أيضاً أني جرؤت مرةً ومرتين وصرت أذهب إلى ملعب كرة القدم، مع أخويّ اللذين يكبرانني، ثم انكسر الحاجز فصرت أتجه إلى ذلك المكان يومياً.

ومع كل هذه القطيعة بيني وبين أفراد الجماعة السابقة إلا أنهم لم يكفوا عن استعدائي بترويجهم الباطل عني، وفي الوقت نفسه فإني بقيت متمسكاً بما أنا عليه من دين، غير أني كنت متسامحاً متنازلاً عما أعتقده في داخلي من كفر المحيطين بي، فحاجتي إليهم بررت أن أغفر لهم كل شيء، كما كانت حاجتي إلى جماعة الأنشطة السابقة تبرر لي أن أرى هذا العالم بمن فيه كفاراً!

لطول الوقت ولعذاب الفراغ، الذي أعيشه لاسيما في الليل، فإني هيأت لنفسي جدولاً للقراءة والاطلاع، متعمداً أن يكون منهج هذه القراءات جديداً، مختلفاً عن النسق السابق، فبالرغم من إقناعهم إياي بأن الشاعر نزار قباني كافرٌ ومنحل، وأن عبدالله البردوني قوميّ ملحد، وأن غازي القصيبي، ومحمد الثبيتي، ومحمد زايد الألمعي، ومحمد جبر الحربي، وعبدالله الصيخان، كل هؤلاء حداثيون كفرة، ومن يقرأ لهم لا شك سيتأثر بضلالهم وجحودهم بآيات الله ورسوله، بالرغم من كل هذا إلا أني أدمنت ما كتبوه ويكتبونه، وصرت أتابعهم، وأحاول تقليدهم والتفكير في ما يقولونه!

قرأت أيضاً في تلك الأيام كل أعمال المنفلوطي، خصوصاً الروايات التي ترجمها عن الأدب الفرنسي، وقرأت الرافعي، والعقاد، وطه حسين، وبعض الروايات العالمية لإرنست

همنغواي، وفيكتور هيغو، وكازانتزاكي، وماركيز، وغيرهم.. وبالطبع فإن كتب هؤلاء كلهم لم تكن متاحةً سواءً لأن دخولها ممنوع، وتصادر ممن تضبط معه، أو لأن مدينتي أبها لم يكن بها من التقدم الثقافي ما يجعل الحصول على المتاح من هذه الأعمال سهلاً، لكنني كنت أستطيع الوصول إليها عبر البائع اليمني الذي يعمل عندنا، فكنت أعطيه المال، حين يذهب في الإجازات إلى أهله في اليمن، ويعود لي ببعض ما أوصيه من أسماء الكتب والمؤلفين. كان يدخلها عبر الحدود بكل سهولة، بالتهريب أحياناً، وأحياناً من خلال علاقته القوية بالعاملين على المنافذ الحدودية، التي تربطنا باليمن، أو بطريقته التي ما كنت أهتم بمعرفتها، المهم أن يأتيني بما أريد، وأن يحصل على ما يريد!

إذن فمع هذه الأسماء وغيرها اكتشفت عوالم جميلة، لم يكن هناك من شيء يمكن أن يعدل نشوتي بها، وكثيراً ما كنت أغلق عليّ باب غرفتي وأبكي، غارقاً مع حزن بول على فرجيني، أو مع مأسوية فيكتور هيغو، أو عبثية الراقص زوربا.. وهكذا!

كانت هذه الكتب مخلصاً كبيراً لي من الوحدة، ومهرباً مناسباً من الخصمين، جماعة الأنشطة المتدينة، وبقايا من جحيم أهلي الذين يلجئونني إلى الهرب في كل مرحلة من حياتي. لقد كنت أقضي من الوقت الساعات، فمن الثامنة أو التاسعة كل ليلة وحتى تشرق الشمس والكتاب في يدي، ليمرّ الصيف كلّه على هذه الشاكلة!

كان تغيّر ذهنيتي، إلى حدٍّ كبير، عبر هذه القراءات الجمالية،

وكانت عودة الأسئلة، التي تجاهلتها من جديد، محرّضاً للبحث عن كتبٍ فقهيةٍ تتحدث عن الجانب الآخر من الذي كانوا يتعمدون إخفاءه بكل وسيلةٍ ممكنة، فإن انكشف وسموه بأنه بدعة وأنه ضلالة وأن علماءه على زيغ كبير!

قرأت «فقه السنة» لسيد سابق، و«الحلال والحرام في الإسلام» ليوسف القرضاوي، واطلعت على فقه ابن حزم والشوكاني. .وغيرهم، وصدمت حين اكتشفت أن الموسيقى، التي حرمتها على نفسي كل هذه السنين، جمالٌ يستحيل أن يحرمه الإسلام، وأنه لا ضير في أن أقص لحيتي، أو حتى أن أحلقها، وعرفت أن تغطية المرأة وجهها ليست من الحجاب في شيء، وأن التصوير والزينة مما لا يثير غضب الله، وأن الحياة جميلةٌ، وتستحق أن يكون المرء أنيقاً ومحباً ومتسامحاً. أما قضايا التكفير فلم تكن عندي موضع اهتمامٍ البتة، على أني عرفت أن التكفير طريقة الخوارج ومنهجهم، إنّها اعتقاد القتلة باسم الله على مر التاريخ!

انتصر الحب والجمال الذي غرقت فيه عبر الشعر والروايات، والجانب الآخر الجميل من الدين، الذي يسوق الناس باتجاه الحب والجمال والموسيقى والشعر. .

لا أنسى بهذا الصدد أني التقيت أحدهم بمحض المصادفة، وكنت ما أزال أبادله صفاء النفس، فهو يبدي لي من المودة والحب الكثير، فتحدثنا وتحدثنا، وكشفت له عن بعض هذه التطورات في آرائي، وعلى سبيل أن أفاجئه بما تعرضنا له من التعتيم على الرأي الفقهي الآخر شرحت له: «الغناء الذي يصورونه

من الكبائر في أذهاننا لم يجرؤ أحدٌ من الصحابة ولا من التابعين على تحريمه، بل إن النبي نفسه لم يحرّمه، وإن المذاهب الفقهية الأربعة لم تقل بذلك قط، وإنه لا دليل من القرآن ولا من غيره يدل دلالةً بينةً على تحريم الغناء والموسيقى». . ثم شرحت له كيف اغتالوا فينا الجمال بعملهم على باب سدّ الذرائع، واستخدامهم لكل ما يمكن أن يفضي إلى اعتزال العالم والتقوقع عليهم، فصدم وصار يفتح عينيه فيّ بذهول. لم يكن مقتنعاً ولم أشعر بأنه صدقني البتة. . وكل ما فعله أن تركني واتجه مباشرةً إلى الشيوخ، وليصبح كلامي هذا دليلاً جديداً على شهوانيتي وأنني جنسيٌّ خطير على كل من يجالسني من الصغار، وعرفت فيما بعد بكل هذا، لكنه لم يكن ليزعجني فقد بات هؤلاء أقل عندي من أن أكترث لما يقولونه، بل إنه صار مدعاةً لضحكي!

وأيضاً قبل أن تنصرم إجازة الصيف تلك، وقعت لي حادثةٌ مع الشيوخ السابقين وأعضاء الأنشطة المتدينين، زادتني كرهاً لهم ونفوراً منهم، على أني لم آت لهم، ولم أفتش عن رضاهم، وكنت قد عقدت في نفسي النية أني لن أبحث عنهم، فما أنا فيه من الجمال والحياة لا يتنافى مع الدين الذي لم يفهموه، أو أدركوا أن فهمه بهذه الطريقة سيوقظ العقول، التي لن تستجيب لاستعمارهم إلا وهي غارقةٌ في العتمة!

هاتفني أحدهم، يخبرني أنهم يعتزمون تأدية فريضة الحج إذا ما كنت أرغب في مصاحبتهم، ففكرت مليّاً، ولأن بقايا حبٍّ ما زالت تدور بها الذكريات في داخلي، ودار في خلدي أنني أقوى منهم، وأستطيع أن أكون معهم دون أن أتنازل عن آرائي وموقفي

فأجبتهم إلى ذلك، ولم أكن لأعلم أن هذه المبادرة منهم ستنتهي بصفعة أخرى!

قبل الرحلة بيوم كلّفهم أحد شيوخهم أن يصطحبوا معنا ناشئاً جديداً، وكالعادة سيكون في منتهى الحسن والجمال والفتون، وبامتثالهم لأمره تحرك الحقد القديم، فراغوا إلى كبارهم يسألونهم «كيف نأخذ هذا الصغير، ومعنا فلان – وفلان هذا أنا – إننا نخاف على هذا الجديد منه، أن يقع في ما لا نحتمل مسؤوليته، وأن يقع هذا الناشئ في الهيام بهذا الشهواني» ويجيء الرد مباشرة من كبارهم باستبعادي، ولم يترددوا في أن يخبروني! بصقت بوجه من نقل إليّ بشاعتهم تلك ذلك اليوم، ولعنتهم أجمعين، وأقسمت: «والله إني لأشرف منكم ومن شيوخكم ألف مرة!»..

١٩

القيء سيكون عافيةً كبيرة حين يدخل إلى أحشائنا طعام فاسد!

الجامعة.. أدخل منتصف ١٩٩٤ أسوارها لأول مرة طالباً بكلية اللغة العربية، ملتحفاً بثوبٍ أسفله على العقبين تماماً، متوخياً السنة، لابساً فوق شماغي (العقال). كان معي أحد أصدقائي ممن تخرجنا في الثانوية معاً، وهو أيضاً ممن كان مع الجماعة، ثم تمرّد عليهم وتعرّض لبعض ما تعرضت له، ولعل هذه النقطة فقط هي التي جمعتني وإياه لنكون في بداية الأمر صديقين داخل الجامعة، وبعد أسبوعين، ولأننا بتنا كباراً فإن هذه الصداقة تطورت لنلتقي صبحاً ومساءً، نتشاكى ما عانيناه فيما مضى، ونتبادل التأييد فيما هو الآن، وربما استغرقتنا لذة الانتقام منهم بالشتائم واللعن!

الجامعة..

أذكر أننا في اليوم التالي كنا قد حصلنا على الجداول، وبدأنا التوجه إلى قاعات الدرس. كنت مهتماً أن أخرج بمظهر وإيحاء المتدينين، لما يمنحنيه هذا الشكل من الراحة والأهمية، يبدر هذا مني دون أن أعيه امتداداً لتعبير الذهنية، التي بقيت آثار المتدينين

السابقين فيها، وبالطبع فقد شعرت بأنني كبرت كثيراً، فبالرغم من تأخري سنتين عن موعد الجامعة، فشلت فيهما في الثانوية، إلا أنني أحس الآن بأني كبيرٌ جداً، وأن لي كياني المستقل. إنني الآن طالبٌ جامعي!

الجامعة . .

لذتي بتعلم اللغة العربية على أصولها لم يكن لها من نهاية، ولذتي مع مرور الشهور الواحد تلو الآخر بكسب أصدقاء من الجامعة أيضاً كان لها طعمها الخاص، وسعادتي بتجاوز الفصل الدراسي الأول، وسعادتي بقضاء رمضان ولياليه، على وجه التحديد في ملاعب كرة القدم مشاركاً في الدورات الرياضية، التي يتخللها الكثير من الموسيقى واللهو وأشكال أخرى من أشكال الحياة!

الجامعة . .

مضت السنة الأولى، وانتهى الفصل الدراسي الثاني، وفي جمجمتي الكثير من الكتابات الأدبية، وجنون اللغة العربية وآدابها وموروثها، وكل أجوائها فعشقتها، وصرت أتتبع ما يوصي به المحاضرون من القراءات، وبدأ اسمي يدور في جنبات الجامعة كشاعرٍ لديه ما يقوله، فكنت أحمل نصوصي وأذهب بها إلى النقاد في قسم النقد، لقد كانوا سعداء بي، وعلى رأسهم ذلك الدكتور الأردني، الذي كان يحتفظ بقصائدي ويعود ليوصيني دائماً بما ينقصني، وكذلك كان يوليني اهتمامه محاضر البلاغة، البرفسور المصري الذي مدّني بكل الكتب والدواوين التي أحتاج إليها، وحتى ما لم يكن بحوزته من الكتب كان يفتش عنه أو يعود به من

إجازاته ليعطيني إياه، ولم يكن ليقبل فلساً واحداً مقابل أي كتاب، ويقول دائماً بأنني أستحق أكثر من هذا وأنه فخورٌ بما يفعله معي!

الجامعة وسنتها الأولى، التي انصرمت شهدت تغيراتٍ تدريجية، ومع نهايتها كانت هذه التغيرات امتداداً لشكل الحياة التي بدأت أنتهجها، وأستعيض بها عن كل ما مضى، فالتغيرات الشخصية التي تجلت في مظهري المتأنق تطورت للبس العقال والتخفيف من اللحية، أي تقصيرها، وكذلك لبس الثياب الجميلة والغالية، كما جرؤت وصرت ألبس الملابس الرياضية في أوقات اللعب، وفي غير أوقات اللعب، وأطلت شعري، وصبغت بياضه القديم بالصبغة السوداء، ثم قصصته على طريقة القصات الحديثة، وأما ما يخص المجتمع فقد اقتحمته من جديد، وتعلقت بأصدقاء جدد من الجامعة، ومن خارجها، وحتى من أصدقاء الكرة!

صالحت إخوتي الغاضبين، وعدت إلى المشاركة في رحلاتهم واجتماعاتهم والولائم الأسرية، التي كان يتناولني البعض فيها باللمز والنبز، وأني تغيرت وأضلني الشيطان واتبعته، فها أنا الآن ألبس الثياب الأنيقة، ولحيتي قصرت، ولم أعد أمانع في أن يعلو صوت الموسيقى في حضرتي، وعدت إلى متابعة كرة القدم ولعبها ومشاهدتها بالتلفزيون، وفي نهاية تلك السنة كنت قد عدت إلى الموسيقى والغناء والتعلّق بهما، وانكسر هذا الحاجز بداخلي، بدايةً على المستوى الديني، فقد اقتنعت بأن إلهاً جميلاً لا يمكنه أن يحرم الجمال، وما هو الجمال إذا لم يكن الموسيقى والغناء، ثم كسر الحاجز على أرض الواقع حين سهرت في إحدى الليالي مع بعض أصدقائي في الجامعة وبرفقتنا أغنية عبد الحليم حافظ

(زي الهوى) فسمعتها كاملةً، وغنيتها مع عبدالحليم، ومن يومي الثاني اشتريت الشريط، واقتنيت معه بعض الأشرطة الأخرى، وصارت كل أجوائي بعد تلك الليلة موسيقيةً ما أمكن، مهووساً بأم كلثوم، وفيروز، وطلال مداح، ومحمد عبده، وكاظم الساهر، وفايزة أحمد، ونجاة الصغيرة، وميادة الحناوي، وماجدة الرومي.. وغيرهم!

هذه الانقلابات التي استمرت فترةً طويلة، والتي خرج شكلها النهائي في نهاية السنة الأولى من الجامعة، كان لها أثرها في المتدينين الحركيين السابقين، وكان لا بدّ أن تكون لهم ردة فعلٍ، ما كنت أدري كيف ستأتي، لاسيما وأنا أتعمد ذلك وأجاهر بهذه التغيرات، فلم يكن ليخجلني أو يخيفني أن يروني بقصة شعري ولحيتي الخفيفة وثيابي الجديدة، أو حتى بملابس الرياضة، بل يحدث أن نلتقي مصادفةً بسياراتنا فأرفع صوت الموسيقى ما أمكنني ليسمعوه، ومراتٍ كثيرة جاءني بعضهم يناصحني، ويذكرني بسابق الدين والعهد فأسمعه حتى ينتهي، ثم أطلب إليه ألا يتدخل بعد هذا في ما لا يعنيه!

أولى ردات فعلهم خرجت بأن أرسلوا إلى والدي رسالةً، اكتشفتها في ما بعد، قلبت سعادته، باعتدالي وتغيّر نهجي الحاد ونجاحي في دراستي، إلى شقاءٍ وهلعٍ على ابنه، فقد كتبوا له أني انحرفت بفعل المخدرات، وأني متورط في الشهوات والغرائز، وأن لي علاقاتٍ جنسية شاذة. لم يتركوا تهمةً، يمكن أن تسقط ابناً من عين أبيه إلا كتبوها، وأبي رجلٌ لا يجيد إغلاق أذنيه، فبلغت الأمور عنده حدّ أنه صار يعيّرني بتغيري ويشتمني، ومرةً طردني

من البيت، ومرةً قصم قلبي حين أيقظني لصلاة الفجر فتأخرت قليلاً، ليهجم عليّ ويضربني ضرباً عنيفاً، ويلعنني ويحلف بالله إنه يكرهني، وإنه لا يأذن لي بالبقاء في بيته بعد اليوم!

تشردت تلك الأيام من جديد، ولولا بكاء والدتي وعذاباتها ما كنت لأعود، عدت وآخر ما يمكن أن يحدث هو أن ألقي التحية على والدي، الذي ما زالت كلمته «أكرهك» تمزق أذني حتى اليوم، وحتى إن ألقيتها فإنه لا يجيبها!

آخر ردات فعلهم أن غدروا بي، غدرةً رخيصةً لا تليق بغير ما هم عليه من الكراهية والعدوانية.. حدث أن جاءني منهم أربعة أشخاص إلى بيتي، يزعمون أنهم يريدون التحاور معي، فرحبت بهم ليدخلوا بيتي، لكنهم أصروا على أن أخرج معهم في سيارتهم، ولأنه لم يكن بوسعي أن أسيء الظن بأحدٍ قط، فلم يخطر ببالي أي سوءٍ تجاههم..

ركبت معهم سيارتهم، وكان الحديث يمرّ بمجاملاتٍ مريبة، ونحن نتجه إلى خارج المدينة، حيث قالوا بأنهم يودون أن نجلس على إحدى قمم الجبال، نتحدث هناك كيفما نشاء.. وعند أول وصولنا إلى المكان الذي اختاروه تغيّر أسلوبهم معي، ونزلوا من السيارة ليشدني أحدهم من ثيابي، ثم تحلقوا عليّ أربعتهم، ليقولوا لي إنهم لا يفعلون هذا إلا لأنهم ما زالوا يحبونني، وأنهم لن يضربوني الآن إلا ليخرسوا لسان الشيطان الضخم الذي في داخلي، فربما توقظني من شهواتي وضلالي ضرباتهم، فسألتهم فوراً:

– وهل هذا هو الحوار الذي دعوتموني إليه؟

– لو حاورناك بالكلمات فإن شيطانك سيلهمك من الكلام ما يتعذر علينا أن نقنعك بأن ما أنت عليه سينتهي بك إلى أن تتنكر لله ودينه ولنا!

– افعلوا ما شئتم فوالله إنكم عندي أحقر من أن أدافع عن نفسي بينكم، وسيجيء اليوم الذي تدفعون فيه ثمن فعلتكم هذه.

فانفجر أحدهم غاضباً:

– ألا تسمعون هذا الوقح كيف يحدثنا، عليه لعنة الله وعلى من أزاغ قلبه عن الحق!

انهالت عليّ سيولٌ من اللكمات، والرفسات، والصفعات، ومرغوني بالأرض، وكلما ازدادوا عنفاً زدت صمتاً، وما توقفوا عن شراستهم تلك حتى بدأ الدم يغشاني، ويلون ثوبي الأبيض بحمرته، فكفّوا وكان آخر ما فعله أحدهم أن ركلني بقدمه في صدري بأعنف ما يطيقه، ثم تركوني ممدداً هناك ومضوا!

قمت بعد اختفائهم وما بجسمي خليةٌ واحدة لا تؤلمني، وبوجهي وسائر جسدي من الكدمات والدماء ما كان يكفي على الأقل للبكاء من القهر والألم! قمت وتحاملت على نفسي، ومشيت حتى بلغت الشارع ووقفت أحرك يدي، ربما يقف أحدهم لي، ويعيدني إلى بيتي، لكن منظر الدم وحمرته بثيابي لم يكن ليشجع أحداً أن يغامر ويأخذني معه في سيارته! أخيراً وقف لي أحدهم، وحين رآني فتح فمه مذهولاً مما يكسوني من الجروح والدماء، وسألني على الفور:

– أتريد المستشفى أم الشرطة؟

– أريد بيتي مشكوراً. .

حاول كثيراً أن يقنعني بالذهاب إلى أيٍّ منهما لكنني قلت له إن ما يراه «ليس أكثر من أني سقطت من فوق بعض الحجارة الجبلية وأحتاج إلى العودة إلى البيت ومن هناك سأذهب بنفسي إلى المستشفى»، ففعل وأوصلني إلى بيتي دون أن يفتح فمه مجدداً، كأنما يريد أن يتخلّص مني بأسرع ما يمكن!

دخلت بيتي وتخفيت عن أهلي متسللاً إلى غرفتي حتى غيرت ثيابي، وأما ما بوجهي من الكدمات فقد أقنعتهم بأني سقطت فعلاً من فوق بعض الصخور وأنني بخير، لكنني حين خلوت بنفسي وهدأت واستعدت كل ما حدث وكل تفاصيل العنف الذي تعرضت له كدت أجنّ من الغضب والحنق. لقد كانت تلك اللحظة، رغم كل قسوتها، أشبه ما تكون بلحظة المفاصلة النهائية، فماتت لهم بداخلي حتى الذكريات الجميلة، ولم يعد بوسعي أن أتخيلهم إلا من خلال ركلةٍ أو صفعةٍ أو لكمةٍ، أو كلمةٍ بذيئة!

إذن فبالرغم من كل هذه التحولات، على المستويات الشخصية والدينية والاجتماعية والدينية، إلا أني بقيت في معظم أموري شخصيةً محافظة، وحتى صيف تلك السنة الجامعية الأولى لم أبلغ حدّ التخلّص النهائي من انتمائي إلى المتوحشين السابقين، بل إنني ما زلت أشعر بهذا الديني القابع داخلي، يشعرني بالطمأنينة ويربطني بالله على طريقته الخاصة، التي رفض معها أن يكون بينه وبين السماء أية وساطات عبر هؤلاء، الذين تحولوا في عيني إلى شياطين الأرض، وصاروا أكبر أعدائي وخصومي في هذا الوجود!

هكذا كانت السنة الأولى، وحتى الثانية من الجامعة، تحمل هذا الانفكاك النهائي من قبضتهم، وإن تكن النفس ما زالت داخل الدائرة، لقد كان انفكاكاً صعباً ومؤلماً، لكنه كان باتجاه الحياة والجمال والموسيقى والأصدقاء..

انتهيت منهم، وصرت إنساناً جديداً عليه أن يعتني بدراسته، وأن يتمتع بالحياة، وأن يعلم أن الله لا يجعل بينه وبين أحد أنشطة، ولا جماعة، وليس بحاجة إلى الشيوخ ليربطونا به، وأننا لسنا بحاجة إلى أي من هذا لنصل إلى الله ونعبده بالطريقة التي نخمن أنه يحبها. اقتنعت أن استعداء الأهل والمجتمع الدولة، والعمل على تقويض كيانها، وأن تكفير الناس لم ولن يكون مما يريده الله أبداً!

سنتان.. شهدت في الأولى الانعتاق من بوتقتهم، وفي الأخرى الإقبال النهم على السهر، واللعب، واللهو، والجمال، والحياة بكل أشكالها، وأيضاً فإني ما زلت الشخص المتدين، لكن بطريقتي وبمنهجي، ولا أقبل أبداً أن يظن أحدٌ ما أني غير هذا المتديّن، وأن كل ما أعيشه حلالٌ، وما دمت أتحرّك داخل الحلال فأنا لم أتبع هواي، ولم أخرج عن الدين!

٢٠

في عسيرنا يجب أن يجلس صاحب العلم والكتابة في رأس المجلس، إذ يعتقدون أنه يعرف عن الحياة أكثر من ذويه وقبيلته، الذين يلون غبار الحقول ثيابهم، فيجب أن يفسحوا له في المكان، الأنظف والأعلى، الذي يليق به. «في بيت آل فلان أستاذ» إذن فسيحملون إليه الهدايا في كل مناسبة!

الكتب الجديدة، والقراءات الأخرى، والرياضة، والسهر، والرفاق، والأسفار، والسيارة الأنيقة، التي اشتراها لي أهلي، كل هذه الأشياء وغيرها، كانت انفجاراً كبيراً بداخلي، جعلني أتعلّق بالحياة وجمالياتها، حتى إني ما كنت لأترك يوماً يمرّ دون أن أوقع تاريخه بلذةٍ ما، وصرت على هيام بالشعر والتجوال بالسيارة في الطرق المظلمة، خارج المدينة، أكثَر من أي شيء. كنت أبتعد عن أبها بعض الليالي أحياناً مئة كيلومتر، فمعنى أن تغمرني العتمة وأنا رهينٌ بسحر فيروز، أو أية موسيقى، ألا تستدير سيارتي لتعود إلى أبها إلا وقد قارب الفجر على أن يفقأ عين العتمة!

آخر سنتين من الجامعة شهدتا أحداثاً كثيرةً، يمكنني أن أصفها بالجميلة والشفافة، فقد صرت طالباً معروفاً لدى الجميع محاضرين وطلبة، وشاركت في أمسيةٍ شعرية، حضرها ألف طالبٍ

على الأقل، ربّت كتفيّ تلك الليلة الدكاترة، والتفّ عليّ الطلاب، وشعرت بنشوةٍ، لا أدري أي وصفٍ هو ذاك الذي يليق بها!

شفعت مرةً لأصدقائي بالدفعة عند أحد الدكاترة، الذي خصم على الجميع خمس علامات، لأنهم لم يستجيبوا لأمره في شأنٍ ما، وقبل شفاعتي، فصاروا مدينين لي بهذه اليد، ونصبت بعدها ناطقاً باسم الدفعة..

حانت لحظات التخرّج، وانصرمت المرحلة الجامعية، التي كانت في معظمها ناعمةً هادئةً، باستثناء سنتها الأولى، وبعض سنتها الثانية، وفيما بعد نجحت في إقناع أهلي بشخصيتي الجديدة، وأن ما أنا فيه لم يكن مجرد تمرّدٍ على أولئك السابقين، وإنما هو تمددٌ علمي أخرجني من الضيق إلى السعة، ومن التشدد إلى التسامح، ومن ظلمة الكراهية إلى فناء الحب، الحب لكل الناس!

وتخرّجت سنة ٩٧، في آخرها، وتسلّمت وثيقة التخرّج، ولبست عباءة التكريم، وحملت شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها، شاعراً لي قيمتي في هذه الجامعة التي فارقتها، وفارقت الأصدقاء، الذين ما زلت أعيش بذاكرتهم، إنساناً جميلاً مفعماً بالحب والإقبال على كل فضاءات السعادة!

كنّا أربعة أشخاص، نحن الذين اتفقنا أن نقدم على السفر إلى خارج المملكة لأول مرة، ذلك السفر الذي كان يحرّمه رجال الدين تحريماً كبيراً ولا يبيحونه إلا لغرض الدراسة أو العلاج.. وجهّز صاحبنا سيارته، وفي اليوم التالي كنا متجهين من أبها إلى الرياض، ثم إلى الشرق نحو إحدى الدول العربية المجاورة،

قاصدين عاصمتها الفاتنة.. وفي اليوم الثالث، وبعد أن قضينا يوماً بالرياض، دخلنا بلداً آخر، وصرنا في هذه العاصمة المثيرة، ولأول مرةٍ في حياتي أرى النساء هكذا دونما حجاب وبشكلٍ علني!

كم ضحكنا حين رأينا بعض الفتيات يقدن السيارات بسرعة فائقة. أذكر أنني صدمت بحق حين دخلت أحد المتاجر، لشراء بعض العصائر، فرأيت إحداهن تلبس «الشورت» الرياضي مكشوفة الشعر والذراعين والفخذين والساقين وبعض الصدر!

اتجهنا إلى أحد الفنادق في شارع ضخم، ولم نكن لنعلم أن الفندق الذي قصدناه، مخصصٌ لنزلاء الدعارة والخمرة. كنا مهتمين فقط بمكانٍ ننام فيه بعد هذه الرحلة الطويلة. اكتشفنا هذا حين استيقظنا، وعند خروجنا لتناول الطعام التقينا في ردهات الفندق بعض الفتيات الروسيات، اللواتي كنّ شبه عاريات، وإحداهن كانت تشير إلي بفمها، وتقبل في الهواء، ولا أدري أي ذهولٍ كنت أعيشه حينئذ. لقد كانت دهشةً جعلتني أتجاهلها وكأني لم أرها البتة، ثم عقدت اجتماعاً حاداً مع أصدقائي وقلت لهم: «إن فراقاً بيننا أن يسلم أحدنا نفسه لأيٍّ من هؤلاء البغايا، ولقد اتفقنا منذ البدء أننا أتون إلى هنا من أجل السياحة والنزهة فقط!».. كنت ما زلت حينئذ متديناً، وكنت أمتنع عن هذه الممارسات وأكرهها وأهرب منها، بدافع ديني لا بدافع إنساني، فكنت أرفض حتى علاقات الحب بين رجلٍ وامرأة، وأتحدث عنها على سبيل الشرف وهزّ أعراض الآخرين، وأنه لا شيء يسمى حباً إلا ذاك الذي يأتي بعد الزواج، العلاقة المباحة التي أحلها الله.. فقط!

اختلفت مع كثيرين بهذا الشأن، بل ساومت بعضهم في صداقتنا ليترك حبيبته، لأنها ليست زوجته، وكنت أذكره بأن الله لا يحبّ هذا ولا يرضيه، فبعضهم يستجيب، وبعضهم يرميني وهذه الفايروسات، التي ما زالت عالقةً بجمجمتي، ويمضي لحياته..

في تلك المدينة المغربية عشنا أسبوعاً كاملاً، لم نترك سوقاً، ولا ساحةً، ولا مكتبةً، ولا شارعاً لم نجل به، وفي أحد الأيام ذهبنا إلى إحدى الحدائق المائية، ورأينا الكثير من الفتيات، فكان أصحابي يستمتعون بهذا، وأما أنا فألوذ بالفرار، وأقنع نفسي بأن النظر إلى المرأة محرّم، وأنني حتى وإن تركت أولئك المتدينين، فإنني لن أترك الله معهم!

قررنا العودة في اليوم السابع من رحلتنا، فامتطينا سيارتنا قافلين، وبلغنا الرياض في الثامنة ليلاً. تناولنا عشاءنا، وجلنا في المدينة قليلاً، ثم انطلقنا على الفور تجاه أبها، لكننا ما كدنا نقطع ٣٠٠ كلم، وندخل مدينة الأفلاج حتى اصطدمنا بأحد أعمدة الكهرباء في حادثٍ عنيف، نقلنا على إثره جميعاً إلى المستشفى، وأنا في حالة غيبوبة تامة. كان صاحبنا الذي يقود السيارة مسرعاً، ولم يتمكن من تدارك مفاجأته بـ «الدوّار» فوقع الحادث.. وأخيراً بقيت فترةً فاقداً الذاكرة، ثم بدأت باستعادتها تدريجياً، غير الكسور الثلاثة التي أصيب بها عظم كتفي اليسرى، والكدمات المتفرقة هنا وهناك في سائر جسدي!

سيارتنا تهشمت تماماً، وليس لدينا من المال ما يكفي لنعود إلى أبها بالطائرة، فهاتف أحد الأصدقاء أهله، فجاؤوا فوراً بسيارتهم، وبعد أن اطمأنوا إلينا حملونا، وأكملوا بنا طريق العودة!

ساعة وصولي إلى أهلي، وكتفي ونصف صدري في الجبس، ويدي داخل اللفافة، كادت تجنّ والدتي وهرع إليّ والدي وأخواتي وأخواني يسألونني عما أصابني بهلع، ولم يعرف أحدٌ من أهلي أني كنت خارج السعودية، لقد أقنعتهم أني كنت في الرياض، للبحث عن وظيفة بعد التخرج، وهذا ما جعلهم يتألمون كثيراً لما أصابني، أما لو عرف أحدهم بأني كنت خارج السعودية فَسَنُتَّهمُ فوراً بأن هذا الحادث لم يقع إلا لأننا سكارى!

في نهاية صيف تلك السنة كنت قد تقدمت بأوراقي الجامعية إلى الدولة، وطلبت التعيين بوزارة التعليم، معلماً في إحدى مدارس المنطقة الشرقية، وقبيل بدء الدراسة بأسابيع نشر اسمي في الصحف، مع المعينين في وظائف التعليم، وكانت وظيفتي في المنطقة الشرقية، ففرحت فرحاً بالغاً، فأنا الآن موظفٌ، وسأرحل عن هذه المدينة بكل ما فيها ومن فيها!

سأترك ورائي كل الذكريات السوداء والبيضاء على السواء، وسأمضي إلى هناك حيث تنتظرني حياةٌ أخرى. كان وقع الخبر على أهلي أليماً جداً، وفي اليوم الذي سافرت فيه، تاركاً أبها، ومتجهاً إلى وظيفتي في المنطقة الشرقية بمدينة الخبر، رأيت لأول مرة دموع والدي، ورأيت الصمت والندم يخرسان لسانه، كأنما هو نادمٌ على كل قسوته التي سامني إياها!

لم يكن مني إلا أن قبلت جبين والدتي ووالدي، ثم رحلت، وبالرغم من الحزن العظيم الذي بداخلي إلا أني كنت محتفلاً بالتخلّص من كل لحظة عشتها في هذه الأرض، التي نسيت حتى طبيعة مشاعري تجاهها!

هناك في المنطقة الشرقية.

هناك عشت حياة العمل والتسكع، فكنت أعود بعد نهاية الدوام إلى الشقة الصغيرة، التي تجمعني بأربعة أشخاص آخرين، اضطررت إلى أن أكون معهم حتى نقتسم أجرة السكن، فأنام حتى السادسة مساءً، ثم يحين إذ ذاك الخروج إلى الشاطئ، أو الأسواق، أو الملاعب، أو حتى إلى الحدائق والمتنزهات، ومعي بعض الرفاق، أو كتبي، أو موسيقاي، أقضي الشهر والشهرين على مثل هذه الحال، لا يزيد إلا أن أذهب إلى البحرين مرةً، فأحرم نفسي من السكْر والمراقص والنساء، لأنها عندي حرامٌ كبير، ولم أستطع حتى تلك اللحظة، وحتى ما بعدها، التخلص من سطوة هذه الشخصية المحافظة بداخلي، ولم أستطع أن أكون مثل أولئك، الذين يفعلون كل شيء، ثم لا يلزمهم إلا أن يرددوا بعض كلمات التوبة والاستغفار، فيعودوا بعدها أكثر شبقاً إلى ما كانوا عليه!

شهران مضيا، ثم زرت أبها عن شوقٍ بالغ إليها وإلى كل ما فيها، وكأن شيئاً لم يكن بالأمس، وقضيت مع أسرتي أسبوعاً كاملاً، عدت بعده إلى وظيفتي، ولأكمل السنة كلها هناك، وقبل نهايتها يصاب والدي بأزمة قلبية تلزمه المستشفى عشرة أيام. كنت قلقاً، ولا أعرف لماذا يتعمد أهلي ألا يخبروني لماذا يمتنع والدي عن الحديث معي، وبعد إلحاح أخبرتني أختي أنه في المستشفى، وأنني سبب ما أصابه! أناْ سبب ما أصابه! أجل، فالندم والشعور بالحسرة والفقدان جعلا والدي في حالةٍ من البؤس والحزن دفعت به ليصعد إلى غرفتي، وحين رأى ثيابي

وكتبي وبقاياي في البيت خرّ مكانه، لتنقله سيارة الإسعاف إلى المستشفى، ولحسن الحظ أنهم تداركوه، ونجا والدي بأعجوبة من الموت!

حين عرفت هذا لم أستطع، من شدّة الألم، حتى المجيء لزيارته ولأطمئنه أني بخير، وأني أحبه وسأعود إليه! كان الأمر أكبر من أن أتعامل معه بغير الفجيعة، والامتناع عن كل شيء!

فاجأني بأنه هو من جاء، بعد أن تماثل للشفاء واستعاد عافيته، وقضى عندي بضعة أيام، أحسست أنه يحاول التكفير عن كل قسوته التي لم تثمر سوى هذه القطيعة الحادة طوال هذه السنين، وهروبي المتكرر منه، وقبل أن يغادر أخذ مني العهد بأن أفعل كل شيء لأعود إلى أبها، فوعدته أنني سأتقدم بطلب النقل والرجوع للسكن معه في بيته!

ولم تنته السنة إلا واسمي من المنقولين إلى مدينة أبها، فما كنت لأحزن، ولا لأفرح، حدث هذا وكفى!

من أيامي في الشرقية..

كانت ثمة شجرةٌ اشتهرت باسمي، فصار الأصدقاء جميعاً يسمونها «شجرة العسيري» وأصبحت علامةً ومكاناً للمواعيد «أين نلتقي؟».. «عند شجرة العسيري»، «أين كنتم؟ من أين أتيتم؟» «كنا على الشاطئ عند شجرة العسيري، أتينا من هناك، من عند شجرة العسيري».. كنت كل ليلةٍ إذا دنت الثانية عشرة حملت كتابي وأوراقي، وذهبت إلى شاطئ مدينة الخبر، وجلست هناك في مكانٍ محدد لا أغيره، هناك تحت إحدى الأشجار، رافعاً صوت

الموسيقى بسيارتي.. وجهي شطر البحر، وبصري صوب السماء، مسنداً ظهري إلى الشجرة، غارقاً في ألف ألف نشوةٍ وخيال!

ومن أيامي في الشرقية..

مرةً ذهبت لزيارة أحد الأصدقاء في مستشفى «المواساة»، وفي الاستقبال دار حديثٌ غريبٌ بيني وبين الفتاة التي تعمل على الجهاز، كان مليئاً بالنظرات التي أربكتني وأربكتها، وقبل أن أمضي طلبت مني رقم هاتفي، فاعتذرت بفجاجةٍ، وبدوت كأنني أتهرّب، مدعياً أنه لا هاتف عندي. خفت أن أقع في حبّ هذه الفتاة، وأنا الذي يحارب كل أصدقائي على علاقاتهم بالفتيات، معتقداً أن هذا يُغضب اللّه، وللحق فقد ندمت فيما بعد، ثم عدت إلى المستشفى بعد زمن فما التفتت حتى التفاتةً إليّ، وأدركت أني خدشت كبرياءها!

ومن أيامي في الشرقية..

أني سكنت طوال أربعة أشهر في مساكن جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، في واحدة من غرف الطلاب الذين تعرفت إليهم هناك، ففعلوا كل شيء ليزوّروا لي بطاقة طالب، ونجحوا في ذلك، وصرت من المقيمين الرسميين في الجامعة، أشارك الطلاب في سهراتهم، ورقصهم، ولعبهم، وهمومهم، وحتى فقرهم وفاقتهم!

أذكر أننا كنا نجتمع حتى نكون ستة عشر، أو ما يقارب هذا العدد، والستة عشر في غرفة واحدة صغيرة، نتناول عشاءً جاء به أحد العائدين من زيارة أهله الساكنين قريباً من مقرّ الجامعة. كنا

نمدد أسلاك الدش (الستالايت) من بعض البنايات المجاورة، نوصلها إلى الغرف كي نتابع الفضائيات، والمباريات التي كان يخوضها المنتخب السعودي، في بطولة قارة آسيا أو تصفيات كأس العالم..

ومن أيامي بالشرقية..

رحلات النزهة، التي لا تنتهي، مرةً إلى البحرين، وأخرى إلى الجبيل، وثالثة إلى الأحساء، ومرةً ذهبنا إلى الكويت. كانت الكويت، رغم قسوة أجوائها، وفظاظة صحرائها، مريحةً مرحّبةً بي، فارتحت كثيراً لها وتخيّلت أن لي قدراً ما بهذا المكان!

سنةٌ حافلةٌ بما لا يمكن أن يعيشه المرء مرتين تبخّرت مع أول ثانيةٍ حطت بها الطائرة على مدرج مدينة أبها، عائداً ومودعاً تلك الأيام والذكريات إلى الأبد..

٢١

اللعنة الأولى التي أصابت الأحياء أنهم لم يعرفوا عن مجيئهم شيئاً، وأنهم لم يختاروه، واللعنة الأخيرة التي ستصيب الأحياء أنهم، وحتى آخر لحظة من حياتهم، لن يعرفوا إلى أين سيذهبون، ولن يختاروا من ذلك شيئاً.. الحياة التي لا خيار لأحدٍ في ابتدائها، ولا في انتهائها، لن يكون لها معنى إذا لم يتمكن من اختيار ما يرغب فيه في خلالها!

ها هي أبها مجدداً..

١٩٩٩ تسجّل أشياء جديدة لي في هذه المدينة، فمن أول يوم دخلت إلى بيت والدي مجدداً، أخذ يطالبني بالزواج، جازماً بأنه سيموت، وأنه لن يكون مرتاحاً، ولا راضياً لو مات قبل أن يساويني بإخوتي فيزوجني مثلهم!

الزواج في مجتمعنا..

الزواج في مجتمعنا يعني أن تخبر أهلك بموافقتك على الفكرة، لتبدأ الأخت أو الأم بالتفتيش عن المرأة، التي تعتقدان أنها ستناسبك!

هنا لا يمكن أن تتكون قصة حب، ولا لقاءات، أو صداقة، أو يمكن أن يخرج المرء مع التي يقرر أن يعيش معها حياته ليتناولا العشاء في أي مكان، وليسهرا ويسجلا ذكرى لا يحاصرها عقد الأسرة!

هذا يمكن أن يحدث في أي مجتمع في العالم إلا هنا، مع أن آباءنا عاشوا في ما مضى الزمن الذي التقوا فيه الفتيات في الحقول والمراعي وكانت لهم مغامراتهم، وتزوجوا عن حب واتفاق.. لكن الحال تغيّر، ففي وقتنا فإن الأخت أو الأم هي التي تحدد للمرء الفتاة المناسبة، ثم يتفق الأبوان على زواجهما، وإذ ذاك للمرء أن ينظر إلى هذه الفتاة، وتنظر إليه، فإن راق كلاهما الآخر في هذه النظرة العاجلة، تقرر الزواج وإلاّ فلا أكثر من ذلك!

كل يوم ووالدي يأتي باسم واحدةٍ من بنات القرية، أو من بنات أصدقائه، واصفاً إياها بأنها تستطيع أن تستقبل الضيوف، وأنها تجيد الطبخ والكنس، وكل أمور البيت، فأرفضها لأنني لم أكن لأفتش عن خادمة.. وأختي وأمي أيضاً تحدثتا معي بشأن العديد من الفتيات، ولم أكن أقبل أيّاً منهن حتى حدثتني أختي عن فتاةٍ تحب اللغة، وتكتب الشعر، وتصفها بأنها جميلة جداً، كما أنها موافقة على الارتباط بي لما تسمعه عني، ولما قرأته من شعري..

حدثت والدي في الأمر: «إن كان لا بد من الزواج الآن، إرضاءً لك، فلتكن هذه الفتاة» وبرغم أنها من قبيلةٍ غير قبيلتنا، وبعد نقاشاتٍ وانفعالاتٍ كثيرة من والدي محتجاً على اختياري، أو

لنقل على اختيار أختي الذي أعجبني، وافق والدي، ولم تمض سوى أيام إلا ونحن في بيت أهلها لرؤيتها.

جمالها الباهر، وروحها الطيبة، وملامحها البريئة، دفعتني للموافقة وللحق فإنها أول فتاة يمكن أن أجلس معها، ناظراً إليها، متأملاً ملامحها، أفعل ذلك وأنا لا أشعر أن ما أفعله حرامٌ سيسقط السماء!

عدت إلى والدي، وقلت: «أجل.. تناسبني»، وربما لو رأيت أية فتاة حينئذ لكان لي الموقف نفسه، فيكفي لأقول هذه الكلمة أن أرى امرأة، أية امرأة!

صارت زوجتي، وسأقول دائماً إن قدراً جميلاً جاء بها إلي، فلم تعد طريقة مجيئها مهمة مع كل ما تحمله من الصبر، واحتمال جنوني وأطواري، وتغيراتي التي لا تتوقف. هي رائعة، وتملك استعداداً هائلاً للصبر والتضحية، ولن أخسرها أبداً، فهي قادرة على أن تبذل الكثير من أجلي، وفي كل مرة أريد تخليصها مني، ربما وجدت من لا يحملها كل هذه المتاعب مثلي، تعود لتتمسك بي أكثر وأكثر.. أسميها القديسة، وأثق أن الوقت سيمنحني نفسه لأقدم لها شيئاً، ولأشكرها على أن احتملت خطيئة هذا المجتمع كله، وخطيئة أهلها وأهلي، ثم احتملت احتجاجاتي وجنوني ومغامراتي المستمرة!

عودتي إلى أبها كانت تعني عودتي إلى رفاق الجامعة القدامى، وتعني عودتي إلى ملاعب كرة القدم، وتعني أيضاً اتفاقي وصديقي القديم، الذي درست وإياه في الجامعة، وكنا قد تمردنا على الجماعة الدينية في الثانوية، على أن نستأجر شقة صغيرة،

لتكون للمتعة. جعلنا فوقها طبق الفضائيات، ووضعنا فيها ألعاب البلايستيشن، وبعض الكتب، والألوان، وأدوات الرسم، ومسجلاً، وأشرطة أغان، وفرشاً للنوم، لمن شاء أن يأتي إليها في أي ظرف. بقينا في هذه الشقة سنتين، وهي تؤوي سهراتنا، ونستضيف بها أصدقاءنا المشتركين، للسهر، ولعب الورق، وغير ذلك!

كانت كل هذه الأحداث خلال السنتين الأوليين بعد عودتي، والثانية منهما تحديداً شهدت زواجي. زواجي الذي كان قصةً من المعاناة والخلافات الطويلة مع والدي، الذي يريد أن يقرر، نيابةً عني، كل شيء.. حقاً لم يكن لي من هذا الزواج إلا أن قالوا هذه لك وأنت لها، هكذا اتفقنا جميعاً ورأيكما آخر ما يعنينا، ولدهشة التجربة الجديدة لم أكن لأفكر أصلاً بهذا المنطق، فاحتملت كل النزق والتدخلات، والمشاكل ليتم هذا الزواج!

في ليلة الاحتفال بالزواج عاود والدي قسوته من جديد، ولسببٍ تافه لا يعدو كوني كنت أريد أن أبيع سيارتي المتهرئة وشراء سيارة أخرى أحسن حالاً لزواجي راح يلعنني، ويدعو عليّ، ويطردني من البيت.. في ليلة كهذه بقيت تحت كمامات الأوكسجين ساعتين فاقداً الوعي.. لا أذكر إلا أني استيقظت وأخي بجواري، وحين سألته ما الذي حدث، قال إني انفعلت حتى سقطت مغشيّاً عليّ ونقلوني إلى المستشفى!

في اليوم التالي، وهذه الفتاة باتت زوجتي، تشاطرني فراشي، اتفقت وإياها على أن نسافر لبضعة أيام، على طريقة «شهر العسل»، وبالطبع فإنني، من خلال تلك الشخصية الدينية التي

بداخلي، قررت أن نتجه إلى مكة المكرمة والمدينة، كي نبدأ حياتنا بطاعة الله، حتى يوفقنا ويرزقنا الأطفال الصالحين، والمال الكثير الحلال. قضينا ثمانية أيام ثم عدنا على الفور إلى غرفتنا التي أخليت لنا ببيت والدي!

من ذكريات بدء الزواج أني قلت كلمة الطلاق، مازحاً مرة أو مرتين، وفي الفقه، الذي كنت رهينته، أن من يقول هذه الكلمة فإن الطلاق يقع سواءٌ أكان قائلها مازحاً أم جاداً!

ذهبت لسؤال بعض الفقهاء عن الأمر، فقالوا لي إن الطلاق وقع وإن هذه المرأة لم تعد زوجتي شرعاً! هذا ولم يتجاوز عمر زواجنا الشهرين، فكدت أجنّ، وبقيت على هذه الحال حتى سألت مفتياً آخر، فقال إنه لا حرج عليّ في ما قلته. تجاهلت كلام السابقين، وذهبت إلى كلام هذا على شكٍّ بالغ!

ومن ذكريات بدء الزواج أني كنت على اعتقادٍ جازم أنه لو كان على المرأة أن تسجد لأحد، فعليها أن تسجد لزوجها، وأن المرأة التي تنام وزوجها غير راضٍ عنها تلعنها الملائكة حتى تطلع الشمس، وكنت أؤمن بأن المرأة ناقصة عقلٍ ودين، وأنه يجب كبحها وإيقافها، وألا يكون بيدها مالٌ ولا قرار، حتى إني كنت أعتقد أن تقبيلها أو حتى لمسها ينقض الطهارة، وأنه يجب عليّ بعد مجرد لمسها، ولو عن غير عمد، أن أتوضأ وإلا فإن صلاتي باطلة!

كل هذه النظرات، اللاإنسانية وغيرها، كانت اعتقاداتٍ إيمانية داخلي. إنها ثقافة المجتمع الذي أعيش فيه، وهذه الثقافة هي

بعينها التي تحرم المرأة من أبجديات الحياة، وهكذا فهي مخلوقٌ لا كيان له، ولا وجود، حتى إنه لا يصلح أن يكون لها أي إثباتٍ قانوني، إلا من خلال الرجل، وهي بالتالي لا تستطيع أن تحصل على وظائف مميزة، ولا أن تنتقل من مكان إلى مكان إلا بوجود رجل، يكون من أهلها يسمى «محرماً»، وعليها أن تغطي سائر جسدها، ووجهها، ويديها، ورجليها بالسواد، حتى لا يرى منها شيء!

هذه التصورات وأكثر كانت من صميم تعاملي مع زوجتي، فهي العار، والشرف، والنقص، والخطيئة، ومجرد لمسها ينقض الوضوء، ومرورها بين يدي المصلي يقطع الصلاة ويفسدها، كالكلب والحمار تماماً، فهذا ما تعلمته، سابقاً منهم، أن المرأة والكلب والحمار تقطع الصلاة!

كان أكثر ما يؤمن به الناس أن يتواصوا بالأمثال التي تحقر المرأة، وتقلل من قيمتها كإنسان، فيسمون المرأة بـ «الحرمة»، ويقولون «املأ البيت حميراً ولا تملأه حريماً»، ويقولون «المرأة غصنٌ معقوفٌ إن أقمته كسرته، وإن تركته بقي معقوفاً»، وللأسف فقد آمنت المرأة نفسها بكل هذا أيضاً، واعتادته، ورفضت الخروج منه، وصارت المرأة ذاتها تتهم كل من يدعوها لكسر هذا الشر والجهل، أنه إنما يريد أن يخرجها عن عفافها وحجابها، فبقيت مستعبدةً بما هي فيه، مستعذبةً أن توصف بالجهل، ونقص العقل، وأن يعتذر المتحدث، إن أورد اسمها في مجلس، كأنما يعتذر بأنه قد تحدث عن قذارةٍ لا تليق بآذان الجالسين، وبكل هذا كنت أنظر إلى زوجتي، وبكل هذا كانت زوجتي تتقبلني!

وفي نهاية السنة الأولى من زواجي قرر والدي أن يتزوج بسيدة أخرى، فخرجت من البيت، وأخذت أسرتي الصغيرة لنستأجر شقةً صغيرةً، في بيتٍ قديم جداً، ولأنه الخيار الوحيد فكان علينا أن نعيش بين الفئران والصراصير والحشرات، في هذه الشقة البالية، التي لا تطاق رائحتها، ولا أي شيء فيها!

٢٢

كثيرون، يمرون بنا في هذه الحياة، يمكننا أن نتجاهلهم، ثم للحظة ما نتوقف عند البعض منهم، لأن قدراً ما ينتظرنا برفقتهم، وكثيرون يعيشون معنا سنين طويلة ولا نكترث لهم، ولا نشعر بأهميتهم، ثم يحدث أن نلتقي شخصاً ما، لخمس دقائق فقط في العمر كله، لكنه يكون أقرب إلينا، وأهمّ من كل أولئك!

منصور النقيدان سمعت عن هذا الذي كان مع آخرين، مثل أولئك الذين كنت معهم، لكن هناك في المنطقة الوسطى. لم يكن كادراً بأي تنظيم حركي، وإنما مع متشددي التكفير. لم يكن إخوان م.ن الدينيون يحملون رؤية ثورية بخصوص علاقتهم بالسلطة والحكم، والتي كانت سبباً في القضاء على أكبر رموزهم عام ١٩٢٦م في معركة شهيرة، مزقهم فيها الملك الذكي، عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله.

إخوان منصور النقيدان الدينيون لا يدخلون أبناءهم مدارس الدولة لاعتقادهم باحتواء مناهج التعليم على طرق غربية، وبأنها مخالفة لنهج السلف الصالح، وإلى فترة قريبة جداً كان عشرات منهم لا يستخرجون بطاقة شخصية بسبب الصور، ولهم أفكارهم

الخاصة ورؤيتهم لحزمة من المسائل الدينية والثقافية والاجتماعية، كان لها مسوغاتها الدينية على سذاجتها. ظهر فيهم شخص واحد شكل بنفسه تياراً، وكان أتباعه والمعجبون به ما بين مد وجزر، غير أن صرامة تعاليمه وشدتها لم تكن تسمح للبعض بالصمود والثبات، وكلهم كانوا كالعادة من جيل الشباب. لقد كان للشيخ ع.ح أفكاره الخاصة، التي يخالف بها معظم المتدينين هناك والذين واجهوه بالقطيعة والنبذ.. أفكاره المخالفة هذه مثل: عدم ركوب السيارة، والامتناع عن استخدام الكهرباء، كما أنه لا يؤمن أبداً، وهذا يتفق معه فيه الدينيون هناك، بأن الإنسان أمكنه الصعود إلى القمر، ويرى ع.ح بأن الطائرات والمخترعات، وكل أشكال الطاقة ليست إلا سحراً، سينسفه الله يوماً ما!

كان منصور النقيدان لسنوات ست يراوح مابين أفكار إخوانه المتدينين حيناً، والإعجاب بـ ع.ح حيناً، والانخراط معه بخصومة حيناً آخر، وأخيراً كان لمنصور النقيدان نصيبه من القطيعة والنبذ من إخوانه، فقد كان كثير الأسئلة، متمرداً مخالفاً لمشايخه معتنقاً لتعاليمهم بحماسة، أحرجت شيوخ الجماعة!

كانت تلك القطيعة هي الثقب الذي مكنه من أن يكون أكثر حرية واستقلالية في البحث والتفكير والتغيرات اللاحقة في مسيرته. سمعت عن هذا الشخص، الذي تمرّد على كل ما ذكرته، وعلى كلّ الذين سرقوا منه عمره، كما سرقوا مني عمري، وها هو تنشر له صحيفة الحياة مقالاته، ويعمل محرراً لدى صحيفة سعودية، ويكتب عن تجربته بكل شجاعة، ويفتت كل القيود التي كبلوه بها علنا وعلى مرأى ومسمعٍ منهم، ومن الدولة ومن الناس

أجمعين، فجعلت أبحث عن كل وسيلة ممكنة للوصول إلى منصور النقيدان هذا الشخص الذي عاش الوجه الآخر من تجربتي!

افتعلت قضيةً للنقاش، وأرسلت إلى بريده الإلكتروني أطلب لقاءه، كنت يائساً، وأحدث نفسي: «إنه إن يكن مثلي فإنه سيكون أكثر وجعاً من أن يجيبني إلى أي حوار!»، لكن المفاجأة كانت أن يجيء الرد فوراً بأنه لا يمانع من لقائنا، وجاءت رسالة الرد مصحوبةً برقم هاتفه، وعنوان الفندق الذي يقيم فيه..

في اليوم التالي كان منصور النقيدان إلى جانبي في سيارتي، كان معتدل القامة ذا لحيةٍ خفيفة، في الثانية والثلاثين من عمره، رقيق الصوت، جذاباً ومهيباً، وكل ملامحه وطريقته في تقليب عينيه ملأى بالأسى وبحب الناس، كان يقول كل ما لديه، وكأنما لا توجد قوةٌ على هذه الأرض لتثنيه عما يريد أن يعبر إليه، أو أن يعبر عنه!

أحببته كثيراً، وشعرت أن طاقةً ما تقنصني يستطيع هذا الرجل أن يمنحنيها، لقد كان م.ن مقاتلاً حقيقياً، ولم يكن قط ليقبل الهزيمة أو يستسلم للوجع.

وكذلك عرفت في تلك الفترة شاعراً عبثياً جداً، لا شيء عنده في هذه الحياة أكثر قيمةً من الضحك والمتعة واللذة والسهر، عرفته وفي الأسبوع التالي من تعارفنا أخبرني بأنه سيسافر إلى اليمن، إذا ما كنت أرغب في الذهاب معه، ولأنني تعودت اقتحام الأشياء التي لا أعرف نهاياتها فقد وافقت فوراً!

يا للمفاجأة، عبدالعزيز المقالح، سيد الحداثة يجلس أمامي، ويتحدث إليّ وأتحدث إليه، ويطلب إليّ أن أسمعه الشعر، فيصفق

ويبتسم ويقول لي: «أعد، أعد..»، احتفل المقالح بي أيما احتفال!

كنت أعرف بأنني شاعر مبتدئ، لكنه ولثلاثة أيام نتردد إليه، يوقد فيّ التمرّد الشعري، محتفياً بي، ومتحدثاً عني، وعن أسلوبي أمام العشرات من الحاضرين، وإذا دنا الليل جلست إما إلى عالم اللغة، اليمني الكبير، محمد عبدالسلام منصور، يقرأ معي أوراقي واحدةً واحدة، يقول لي: «أصبت هنا»، و«لو أنك فعلت كذا هناك..» وإما إلى الرجل العذب، خالد الرويشان، يشرح لي كيف يمكن للإنسان أن يمطر حباً، فتحيا به الأرض الموات، وأخيراً، وقبل أن نمضي تنبأ محمد عبدالسلام بأن ستكون لي كلمة لا تشبهها الكلمات، وأخذ المقالح يربت كتفيّ، هامساً في أذني، أنني سآتيه يوماً ما وقد تغيرت كثيراً.

عدت من اليمن، وأنا في حالةٍ من الذهول بما عشته هناك وبلقاء محمد عبدالسلام والمقالح وباهتمامهما بي، وأعرف أني رجعت وبداخلي نيران أججها هذان الرجلان، فأقبلت على القراءات والكتابة والشعر، وعقدت العزم على ألا تأتي الفرصة الثانية للقائهما وأنا كما أنا!

لا أدري أيهما كان أشد وقعاً على نفسي أهي زيارتي لليمن، أم افتتاني بقتالية منصور النقيدان، أم أن الأمرين تزامنا في حياتي، فكانا سبباً لكل ما جاء بعدهما. بهذا التحريض من م.ن على الكتابة، والتحريض من اليمنيين على الشعر عصبت جبيني، وأقسمت ألا يكون لي في هذه الحياة من حظّ سوى هذا الطريق!

النقيدان والمقالح وعبدالسلام،كانوا يستمعون إليّ، ويؤكدون

أن لدي ما أقوله، وبدافع من م.ن كتبت أول مقال، وبعثت به إليه، لينشره في الصحيفة، وما كانت الأرض لتتسع لفرحتي واسمي يوقع مقالاً في صحيفة شهيرة، كتلك التي يعمل بها منصور النقيدان، وبعثت بأول نص شعري ونشرته الصحيفة أيضاً!

كان المقال، ثم المقال، ثم الثالث، ثم العاشر، وفي الربع الأول من سنة ٢٠٠١ أصبحت كاتباً رسمياً في صفحة الرأي، ثم كانت القصيدة الأولى، والثانية، والعاشرة تنشر في هذه الجريدة أيضاً!

كل هذا بعد مرور سبعة أشهر فقط على لقائي الأول م.ن، أكون كاتباً معتمداً، وكل هذا بعد مرور ستة أشهر على لقائي الأول للمقالح صرت شاعراً معروفاً، خصوصاً في المنطقة، وشاركت في عدة احتفالات، أثبت من خلالها أني قادرٌ على تحقيق نبوءة هذا الشاعر الكبير، المقالح. في تلك الفترة كنت أناضل لأقدم مقالاتٍ تمكنني من اقتحام هذا العالم، وبعد أن صار اسمي مطروحاً، وبدأ ضوء الإعلام يتناوله شعرت بالنشوة والانتصار والفرح، وأنني وجدت السبيل الذي يمكنني عبوره إلى تعويض كل ما فاتني، ورد كل الصفعات والهزائم لكل من باشرني بها يوماً ما!

بدأت بالكتابة عن المفاهيم الدينية المغلوطة، وكيف استثمر البعض تمثيله للدين، إما من خلال منصبه، وإما من خلال مظهره في أن يكون لسان السماء في الأرض وما بين الناس، وركزت كثيراً على أن الإسلام لا يمكن أن يكون ديناً كهنوتياً، وأن من يعمدون إلى مثل هذا التسلط على الآخرين يسيئون إلى صورة

الديانة كلها في أذهان الآخرين، وتحدثت عن قضايا الشباب والانغلاق، وما يؤدي إليه من انفجاراتٍ نفسية لن يجني مغبتها سوانا، وكنت أشرح مواقفي بجرأة وصدامية، وتحدثت كثيراً عما يدور في التعليم من نفوذٍ لهؤلاء، وحاولت كشف كل ما يمكن كشفه، ولكثرة ما كانت مقالاتي حادةً فإن واحداً كان يصرح له بالنشر وثلاثة تمنع وهكذا!

كلفتني الكتابة والشعر الكثير من الضوضاء والخلافات الاجتماعية، وتردد اسمي ما بين الناس، وفي أذهانهم كأنموذجٍ للعلمانيين الأشرار، الذين يريدون أن يفسدوا في الأرض ويجعلوا عاليها سافلها، لقد كانت هذه الفترة من الكتابة تأخذني إلى انحسارٍ اجتماعي، وبالرغم من كل ما حصدته من النشوات والتبجيل إلا أني كنت أعرف أن غضباً، وخصوصاً من قبل الدينيين الذين كنت معهم، سيكبر ويكبر ثم لا بدّ وأن يحاولوا إيقافي أو أن يتسببوا لي بأي أذى!

إذن قد انتشر اسمي انتشاراً جيداً، كشاعرٍ، وكاتبٍ متمرد خرج بشكلٍ مفاجئ. ودفع هذا بالنادي الأدبي إلى استضافتي لأول مرة في أمسيةٍ شعرية. في كل شيءٍ أحققه كنت أشعر بأن احتفالاً أكبر ينتظرني، وأني أسير باتجاهه، حدث كل هذا في سنة واحدة، كانت من منتصف السنة الألفين حتى منتصف الألفين والواحد، لأكون منذ تلك اللحظة أحد الكتاب والمثقفين، الذين لا يستطيع أحد أن يتجاهلهم، على الأقل على مستوى المنطقة هنا في الجنوب، ومن منصور النقيدان والليلة الأولى معه، ومن اليمن ولقاء عبد العزيز المقالح ومحمد عبدالسلام، ومن المقال الأول

في بريد القراء، والقصيدة الأولى بعد عودتي من اليمن تبدأ رحلةٌ، لا أعرف كم ستطول وإلام ستنتهي، هي جميلة وأثق بأنها ستكون حافلة بالنشوة والنصر!

بدأت من تلك النقطة، بدأت هكذا كأن شيئاً ما كان يدبر لها أن تحدث في ذلك التوقيت بالذات!

٢٣

ما لا تدفع ثمنه.. سيكون أي شيء إلا أن يكون لك!

الثمن..

كل هذا الثمن بسبب مقالة..

كتبت، وفي الربع الأول من عام ألفين وواحد، مقالاً تحدثت فيه عن الموسيقى، وذكرت بعضاً مما قيل في فضائلها، من رموز الثقافتين العربية والغربية، قديمهم وحديثهم، فأوردت نقولاتٍ عن أفلاطون، وفولتير، وعن الشافعي، والشوكاني، وابن رشد وغيرهم، عن أثر الموسيقى وترقيقها للطبع وتهذيبها للنفس، ثم تعجبت كيف يجرؤ البعض من هؤلاء المتأخرين على تحريمها ووصفها بالشر، ثم طلبت من وزارة التعليم أن تعتمد لدينا مادةً تثقيفية موسيقية، فنحن المكان الوحيد في العالم الذي لا يفهم أهله مما يسمعونه شيئاً، وذكرت أخيراً أن الحياة بدون الموسيقى ستكون فوضى عارمة.. وهكذا دار المقال من أوله لآخره!

فلأنني قلت هذا عن الموسيقى.. حدث أن اجتمع ثلاثون، من المشائخ الدينيين، واتجهوا إلى شيخ قبائل عسير، وطلبوا إليه إحضاري لمحاسبتي، أو على الأقل إحضار والدي، واستجاب

سيد القبائل لهم، فاستدعى والدي الذي بادروه بقسمهم: «والله إننا وددنا لو أنا أعطيناك فدية عدوّ الله ورسوله هذا، وأنه ليس ابنك!» فتجمد والدي في مكانه وسأل:

- ما الذي فعله ابني؟
- إنه يحلل ما حرّم الله ويجاهر بهذا في الصحيفة العلمانية!

ولأنني قلت هذا عن الموسيقى..

كاد والدي يجنّ، والدي الذي لا يعرف سوى قانون القبيلة وأعرافها يعود إلى البيت، ويرسل إليّ أحد إخوتي ليقول لي: «لا تدخل بيتي بعد اليوم، الشيوخ الدينيون وشيخ القبيلة قالوا إنك تحارب الله ورسوله»، ويأتيني أخي ليؤدي الرسالة، وأفظع من هذا فقد أقنعوا والدي بأن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويتبرأ مني ويقيم ضدي دعوى الردة عن الدين، ولو أن أخي الأكبر تدخل واضطره إلى التراجع لكان فعل!

يتردد إليّ أهلي، واحداً تلو الآخر، يؤنبونني، ويتهمونني بأنني ألحقت بهم العار، وأنهم لم يعودوا قادرين على أن يلتقوا الناس، وأنا أشاركهم في اسم العائلة، حتى إن أحدهم أقسم بوجهي: «والله إني أستحي أن أقول للناس إنك أخي!»، وأمي التي تزورها النساء من كل مكان ليتشفين بها لم تعد قادرة حتى على أن ترد عليّ التحية!

ولأنني قلت هذا عن الموسيقى.

لم يتوقف هاتفي عن الرنين، وكلما أجبت أحداً «مرحباً» باشرني بـ «لعنة الله عليك يا عدوّ الله.. والله لتدفعن ثمن ما كتبت» وآخر «حين نلصق وجهك بالتراب ستعرف لذة الموسيقى»

وآخر «يا علماني، يا حقير، يا ديّوث، يا ابن الشيطان ووليّه» . . وآخر وآخر . . أسمعهم ساكتاً وكل خوف الدنيا في صدري!

ولأنني قلت هذا فقد توافد الشيوخ على بيتي، يهددون، ويعظون ويأخذون عليّ المواثيق ألا أكتب بعد اليوم من هذا شيئاً، وآخرون منهم جاؤوا إلى مقرّ عملي يلقون محاضراتٍ عن حرمة الغناء، ويصفونه بأنه بريد الزنى، وأن من يحلّه فإنه يحلّ ما حرّم الله، ومن يحلّ ما حرمه الله فهو كافرٌ صريح الكفر! يقولون هذا وأنا أحد المستمعين صامتاً وكل خوف الدنيا في صدري!

ولأنني قلت هذا . . يجيء شيخٌ مشهورٌ من المدينة الكبيرة، فيلقي محاضرة في أكبر المساجد في أبها ليثبت حرمة الغناء والموسيقى، وكفر من يقول بتحليلها من العلمانيين والحداثيين، وتأخذه النشوة بالحق، الذي يتصوّره، فيرفع يديه للسماء ثم يبتهل عليّ ذاكراً اسمي . . كان في المسجد ألفان من المستمعين يؤمنون على دعائه: «اللهم جمّد الدم في عروقه، اللهم أرنا فيه عجائب قدرتك، اللهم العن العلمانيين والحداثيين واجعل كيدهم في نحورهم، واخزهم في الدنيا والآخرة، اللهم اكفنا بهم واقتلهم ورمّل نساءهم ويتّم أطفالهم . . إلخ» ولبؤس والدي وحظه السيئ فقد جاء إلى هذه المحاضرة ليستمع إلى الخير، فكان أن استمع إلى كل هؤلاء يدعون على ابنه بالهلاك، فيخفض رأسه خجلاً ويبكي، ثم يعود، وهو على وشك أن يتوقف قلبه، لا يدري أيشفق عليّ أم يلعنني معهم . . كل هذا وأنا صامتٌ وفي قلبي كل خوف الدنيا!

ولأنني قلت هذا . . تواطأ مديري في العمل مع المسؤولين في الإدارة العامة، وفوجئت بنقل وظيفتي خارج مدينة أبها في

مكانٍ شاقٍ جداً ومرروا انتقامهم هذا حتى دون علم مدير التعليم، وكان في هذا ما يدعوهم للاحتفال، أن نالوا مني أنا الذي أحارب السماء ومن فيها، وأجاهر أمام الله بتحليل الموسيقى!

فعلوا هذا، بعد أن قاموا بكل ما يمكن القيام به داخل المكان الذي أعمل فيه، كتوزيعهم لمقالاتي في ما بينهم، مع التعليقات التي يكتبونها عليها، مثبتين علمانيتي وكفري، ومثل استفزازاتهم لي بالنقاشات، التي تصل إلى حدّ أن ينهض أحدهم من مكانه ليعتدي عليّ، ولولا أنهم يعتقدون أن لي علاقة حميمة بأمير المنطقة لنفذوا تهديداتهم، وبالفعل، فلما بلغ الأمر مبلغه هذا، توجهت إلى الأمير خالد بن فيصل بن عبدالعزيز وشرحت له الأمر، وكل ما تعرضت له، فأنصفني، وأعادني إلى أبها، بل أمر بترفيعي إلى رئيس لأحد أقسام الإدارة!

أمير هذه المنطقة، خالد بن فيصل، شخصيةٌ نادرة، يحمل داخله الكثير من الحس الإنساني، يبدو عاطفياً وشفافاً وشاعراً رقيقاً، وفي الوقت نفسه يدير عمله بحزم. كان من أوائل الذين حاولوا التنبيه إلى خطر الدينيين المتطرفين وما يفعلونه، وما يطمحون في الوصول إليه، ومواقفه الكثيرة لمصلحة الثقافة والفكر والإنسان مواقف بيضاء، لا ينكرها إلا من اعتادوا أن يجحدوا كل شيء!

بقيت شهرين لا أستطيع رؤية أبي ولا الاقتراب منه، وفي أحد الأيام فاجأته وقبلت رأسه ويده، فلم يلتفت إليّ ولم يرفضني لكنه بقي سنة كاملة لا يتحدث معي، ولا يقبل أن يجلس في مكانٍ أنا فيه، ولا أن يجلس حول مائدةٍ أنا جالسٌ إليها!

حدث كل هذا لأنني كتبت مقالةً صغيرةً في الصحيفة، أقول فيها بأن الموسيقى روح الحياة، وأن الخير للأجيال الآتية أن تتعلم الموسيقى التي حرمناها!

انتهت الزوبعة بعد عدة أشهر، لكن النتائج كانت وخيمةً جداً، فقد كان هذا المقال انتحاراً اجتماعياً علنياً، فلم يعد هناك من أحدٍ يود الاقتراب مني، ولا أن يدخل إلى بيتي، ولا حتى أن يستقبل أسرتي التي لا ذنب لها إلا أنني عائلها!

خسرت المجتمع كلّه، وبقي اسمي بمنتديات الانترنت وجبةً دسمةً للشتائم والدعاء واللعن والتكفير، وعشت شهرين لا أخرج من البيت إلا ومسدسي في جيب ثوبي متوقعاً أن يؤذيني أحدهم!

كنت قد كتبت مقالاتٍ أثارت ضجةً كبيرة أيضاً، لكنها لم تكن بحجم ما فعلته هذه المقالة، وذاك لأنهم يعتقدون اعتقاداً تاماً أن التعليم ملكٌ لهم، وأن من يدعو لإدخال الموسيقى فيه مثل من يعتدي على بيت الله الحرام!

كتبت قبل هذا تحدثت عن الأنشطة المدرسية الحركية، التي تغتال عقول الطلاب بدلاً من أن تقدح بها شرارة الإبداع، وألمحت إلى أن الدولة الطالبانية هي الأنموذج الذي تحلم به مثل هذه الجماعات في المدارس، مستغلين بلدنا، ومستغلين ما تمنحهم إياه من الخصوصية. هوجمت أيضاً، لكن نبوءاتي هذه لم تكن لتثيرهم بحجم ما أثارهم فضح شيوخهم، وتحليلي للموسيقى، وطلبي من المسؤولين عن التعليم إدخالها إلى المناهج!

قاتلت تلك الفترة، وعرضت نفسي لمخاطر كبيرة، وبدلاً من الانكماش طلبت أن ألقي محاضرة بمجلس الأمير، الذي يفتح

صالونه كل يوم أحد للمثقفين، وجاءت الموافقة وقدمت عنده وعلى مسمع ومرأى من الجميع محاضرة، أتحدث فيها عن «المرأة والمقابلات الرمزية لها في الشعر العربي المعاصر»، وسار الناس بالحديث عن هذه المحاضرة، وأن هذا الذي يتحدث عن الموسيقى بالأمس ويحللها يتحدث اليوم عن المرأة، ليخرجها من بيتها وعفافها ويحيل نساءنا إلى عاهراتٍ يجلسن وراء المكاتب، وتظهر صورهن في الصحف، ويخالطن الرجال في كل مكان!

٢٤

إذا أراد شيءٌ ضخمٌ أن يغير جلسته.. فالكثير سيدفعون ثمن رغبته هذه، والعالم حين يغير جلسته فلن يدفع الثمن سوى الإنسان!

الثلاثاء ١١/٩/٢٠٠١..

في مكتبتي الصغيرة جالساً، وبيدي رواية غازي القصيبي المشهورة «العصفورية»، كانت الرابعة مساءً بتوقيتنا، وكان التلفزيون مثبتاً على قناة الجزيرة الإخبارية كالعادة.. خرج المذيع فجأةً ليقول إن أميركا تتعرض لاختطاف طائراتٍ مدنية، وتنتقل الكاميرا للمتابعة.. الطائرة الأولى تصدم برج التجارة العالمي، والثانية البرج الآخر، وثالثة هناك البنتاغون. حدث هذا خلال ساعتين فقط!كنت أتابع الأمر مذهولاً فزعاً!

منظر ذاك الذي ألقى بنفسه من أعلى البناية ينزع القلب من مكانه! وتخيلي للراكبين بالطائرات، التي تصطدم بالبناية، ومجرد الخيال كان مبكياً ومأسوياً!

انهيار المبنيين، على من فيهما، بدا شيئاً فظيعاً وكارثة لم أتمكن حتى من التعليق ولو بكلمة واحدة على ما أراه، سوى أن أصرخ وحدي كالمجنون «لا.. لا.. لا..»!

اتجهت أصابع الاتهام إلى غير جهة كان تنظيم القاعدة في طالبان أكثرها احتمالاً، ولم أكن لأتخيل أن هذا صحيح، كنت أسخر أن كيف يمكن لابن لادن ومن معه أن يلكموا أميركا على وجهها، وهكذا بكل بساطة في ساعتين، وبعد وقتٍ تظهر أشرطة الفيديو، التي يعترف فيها بن لادن بفعلته ويصف مخططه، وكيف كانت النتائج أكبر مما كانوا يريدونه، وفي هذه الأشرطة تأتي بعض اللقطات لتدريبات هؤلاء الشباب الصغار، وأناشيدهم الحماسية، وجلساتهم على الأرض والخطب والصيحات التي يتداولونها في ما بينهم.. هذه المشاهد بعينها، هي تلك التي كنت أعيش أجواءها في المخيمات أيام كنت مع جماعة الأنشطة!

إذن فالتسعة عشر، الذين فجعوا العالم في هذا اليوم من سبتمبر، كان من المفترض أن أكون عشرينهم، لو أني بقيت معهم، واستجبت لأولئك الذين كانوا يريدون أن يقنعوني بالرحيل إلى أفغانستان! ولكنت واحداً من الذين هدموا كل هذه الطوابق على رؤوس من داخلها! ولكنت واحداً من الذين مزقوا المسافرين داخل الطائرات التي اصطدمت بالبنايات الثلاث! ولكنت طرفاً في جريمة من أكبر جرائم التاريخ بحق الإنسانية مهما كانت المسوّغات السياسية أو الدينية أو غيرها. كنت أريد أن أصيح بوجه العالم كله: «إني كدت أكون معهم لو أني لم أنج بنفسي في الوقت المناسب!»..

كنت أريد أن أهاجم أبي وإخوتي وأهلي وجماعتي ومجتمعي، وكل الذين لاموني على تركهم، وعلى كل تغير حدث في حياتي، لأقول لهم: «الآن يجب أن تقولوا إنني عظيم، على

الأقل، لأنني عرفت طريق الجريمة مبكراً، ولم تكن لي فيه ولو خطوة واحدة! الآن يجب أن تعتذروا جميعاً عن كل ما وجهتموه لي من العداوات والشتائم والاضطهاد، فلقد كنت وحدي من يعرف الشرّ الذي يختفي وراء مظاهر هؤلاء، تلك المظاهر الخادعة، فلطالما قلتم بأنني ضللت وأني انحرفت، وأني تركت الهداية والدين واتجهت لحرب الله والخير، فما أنتم قائلون لي اليوم وأنتم ترون جريمة الذين فارقتهم ولمتموني على ذلك طويلاً طويلاً، وما أنتم قائلون لي بعد أن مجدتم هؤلاء كل هذه السنين، ووصفتموهم بالصالحين وهم بفعلتهم من يهدد بلدانكم وأطفالكم ونساءكم ومستقبلكم والعالم كله يودّ لو يمزقكم لأنهم جاؤوا من بينكم.. ما أنتم قائلون لي بعد أن أطريتموهم على كل ما بدواخلهم من الفظاعة وآذيتموني بكل ما تعرفونه لأني حملت إليكم الموسيقى والأغنيات والحب والإنسانية!»..

كان في ما حدث من هزيمةٍ للإنسان في تلك الحادثة انتصارٌ لموقفي هنا، كان انتصاراً مرّ الطعم، فلم أكن أقلّ فجيعةً من أي شخصٍ يرى هذه الطوابق تنهار على شخصٍ يعنيه داخلها!

تغيرت نظرات الكثيرين نحوي، مع أن الناس وبعد أن تبين الأمر وصرح بن لادن غير مرة بأنه هو من فعل ذلك، قد انقسموا نحو هذه الحادثة قسمين، فالأول معارضٌ لهذه الفعلة مقتنع بأنه لا ديانة ولا إنسانية يمكن أن تبرر هذا الفعل، مشيراً إلى ما ينتظرنا من الحروب والانهيارات الاقتصادية، وكان يشتم بن لادن ومن معه، ويقسم على أن هذين البرجين اللذين سقطا لن يعيد بناءهما سوى مالنا الذي ستبتزّه أميركا بكل وسيلةٍ ممكنة، وما زال حتى

اليوم يتساءل: ما الذي قدمه ابن لادن وهؤلاء لكل من قتل في أفغانستان ثم العراق والبقية تأتي.. أما القسم الآخر فإنه حتى هذا اليوم يرى بن لادن بطلاً تاريخياً، ويدعو له ويسأل الله أن يحفظه وأن يمده بالعمر حتى يحرر العالم كله من الكفر والكافرين، وأما الأبرياء ومن لا ذنب لهم ممن ماتوا فإنه يعلق على هذا بأن من قتلوا بأميركا ليسوا شيئاً أمام كل الأرواح التي اغتيلت في فلسطين والشيشان والبوسنة وغيرها بمباركة بل دعم من أميركا بزعمه، فإن يقتل منهم هؤلاء فقد قتل من المسلمين أكثر، لقد كان هذا منطقه وما زال، ثم كانت في الأحداث، التي تلت ذلك، من إسقاطٍ للنظامين في أفغانستان والعراق، وما كان من القتلى والانتهاكات الإنسانية تضخيمٌ لمواقف القسمين السابقين، ووجد كل فريقٍ منهما ما يجعله أكثر إيماناً بموقفه من ذي قبل!

أذكر أنني تحدثت مرةً ما بين أصدقائي في العمل وانتقدت بشدة بعض الشيوخ، الذين يصفون غير المسلمين بأنهم أحفاد القردة والخنازير، وذكرت أن في هذا إساءة إلى الإنسان والديانات كلها، فلم تقم ديانة حقيقية هدفها الإنسان لتشتم أحداً أو لتقتل آخر فانتهى الأمر باتهامي بالعمالة وأنني متأمرك أدافع عن اليهود والنصارى.. إلخ!

وأذكر أني كتبت عن الولاء والبراء، هذه الفكرة التي نمت في اعتقاد المسلمين بأدلجات سياسية، كتبت عنها لأوضح كيف أنها حملت ما لا يمكن أن يكون هناك إله حقيقي ولا نبي حقيقي ويرضى بما يتشدق به مثل هؤلاء عن الولاء والبراء، فكيف يمكن أن يبيح الإسلام الزواج بامرأة مسيحية أو يهودية ثم يأمر بكرهها،

وسقت على هذا الكثير من الأمثلة، ثم تساءلت أية عقيدةٍ هي التي يمكن أن تكون مسوغاً لقتل الناس الذين لا علاقة لهم بأوساخ السياسات، وهل يمكن أن يكون مبدأ القتل والغيلة حلاً يعجب الله من أي طرف سواءٌ أكان فاعله مسلماً أم يهودياً أم نصرانياً، وككل مرة يجب أن يقال بأنني أنقض الدين وأنني أدس السمّ في الدسم وأنني أحاول فتح البلاد المقدسة للكافرين القذرين، وأن مساعيّ العلمانية والحداثية والإلحادية التي تريد هدم الثوابت وتفتيت الإسلام وهزمه باتت واضحة وجليّة!

لقد كان موقف السعوديين، شعباً وحكومةً، موقفاً محرجاً فخمسة عشر من أبنائها يقضون مضجع العالم، ويوقدون حرب الدماء، وبات الإنسان السعودي، بعد أن كانت له معاملته الخاصة واحترامه الاستثنائي في كل بلدٍ من بلدان العالم وعلى الخصوص أميركا، بات مثيراً للشبهات ومتهماً لمجرد أنه سعودي، بل ربما واجه بعض الإهانات.. أو الكثير منها!

ووجهت الاتهامات الكثيرة إلى التعليم وإلى المتدينين وإلى أشياء كثيرة، وفعلت الدولة كل شيء بصدق، لتثبت أنها ترفض ما حدث، وأنها ستستأصل شأفة كل من أوقد ناراً للحرب والعداوة، ووضعت في اعتبارها الكثير من التعديلات، التي بقيت في ما بعد مثاراً للجدل ما بين الصراخ الديني، الذي يرى في فعل الدولة هذا انبطاحاً للغازين بثقافتهم وسياستهم أرضنا، وبين أولئك المستنيرين الذين يهتفون بضرورة أن نستيقظ قبل أن يوقظنا العالم بصفعة ربما تكلفنا الكثير من الدماء والأرواح، ولم يخطر ببال الدولة أن من فعلوا بأميركا فعلتهم تلك سيكونون قادرين على أن يفعلوا ببلدنا،

الأضعف من حيث الإمكانات والاستعدادات الأمنية، ما هو أدهى وأكثر ألماً ومرارة، وسارت الأمور بالكثير من المماطلات حتى وقع ما وقع في السعودية، واكتوت بلدي بالنار التي لم تخمدها من قبل!

أما أنا في شخصي فقد صار الطريق الذي انتهجته أكثر وضوحاً في عيني، وصرت أشدّ إيماناً به عما مضى، وتيقنت أن الإنسانية هي الخلاص لهذا العالم، وأن عليها أن تتخلص من كل الأيديولوجيات كما تخلصتُ منها لتحمل داخلها الحب للكون كله، ومع أني ما زلت داخل دائرة التديّن بشكلٍ ما لكنني وصلت حينها إلى الإيمان بما هو أدق، فكان الإسلام عندي شكلاً من أشكال الإنسانية والجمال، ولا أقبل أن يصفني أحدٌ بأنني مسلم على غير هذا المفهوم.. وبعد شهرين فقط من تلك الحادثة، ومن بلوغي هذا الحدّ من التعامل مع الدين، كقيمة إنسانية، صليت إحدى المرات صلاة الجمعة، واستمعت إلى الخطبة التي كان يتحدث فيها الخطيب عن اللحية، فجعلها أهم ما يمكن أن يرضي السماء عنا أو يغضبها، ووصف حالقيها بالمخنثين وأنهم يتشبهون بالنساء، فخرجت من المسجد فوراً، وذهبت لأجلس عند عتبة واحدٍ من صالونات الحلاقة حتى تنتهي الصلاة، وفور فتح الصالون طلبت إليه أن يحلق ما بقي من لحيتي، حتى لا يكون لدي أية بقايا يمكن أن تذكرني بفهم هذا الخطيب الأحمق أو تلك الجماعة، التي عشت معها تلك الفترة!

٢٥

صرت أنتظر الصيف، ففي كل مرة فيه يكون بانتظاري قدرٌ واسع، ويشهد في كل مرةٍ تحوّلاً بالغاً إما بحياتي كلها، وإما بطريقة التفكير التي أتعاطى بها الحياة بجميع أشكالها، وصيف هذا العام المليء، عام ثلاثاء القيامة، كسابقيه يفغر فمه عن مفاجأةٍ جديدة، ويأتي إلى أبها العالم الكبير عبدالله نور، هذا الذي ملأ ذاكرات المثقفين به!

كان الأب الأكبر لجيل الحداثيين القدامى، شعراء ونقاداً وروائيين ومفكرين، لكنه لم يُنصف نفسه، ولم ينصفه الآخرون. لم يَنصف نفسه بهروبه الدائم والمتكرر من الأضواء والإعلام، ولم ينصفه الآخرون، إذ مرّ أكثرهم من تحت يده ثم نسيها، بل هاجموه كثيراً واتهموه بمكانته وحظوته عند البعض من رموز الدولة، وشككوا في مصداقيته بالرغم مما يعرفونه عن سجنه المتكرر، والقضايا التي ألصقت به مراراً، ولفرط مزاجيته وامتلائه بنفسه لم يكن ليأبه لشيء من هذا!

في الرابعة والسبعين من عمره أسمر طويل القامة، روحه كلها جمالٌ وميلٌ إلى المرح والحب والموسيقى، وفي أول مرةٍ أراه في النادي الأدبي يتحدث عن الشعر وجمالياته، ويتفنن في إلقائه

وتنغيمه.. سألته تلك الليلة عن اختلال مفهوم الحداثة في أذهان أبنائها وممثليها والمدعين بأنهم رموزها، فظنوا أنها مجرد الثورة على اللحظة المنصرمة والتمرد على كل شيء، وأنها لا تحمل داخلها قيماً إنسانيةً هي أكثر التزاماً وحباً مما يمكن أن يدور بذهن أيٍّ من معاديها، وكأن هذا السؤال أثار بنفسه شيئاً فحدّق بعينيه الواسعتين إليّ طويلاً، ثم دافع عن الحداثيين في جزءٍ من كلامه وأيد ما ذهبت إليه في سؤالي في جزءٍ آخر، لكنني شعرت بأنه عقد في نفسه شيئاً ما نحوي!

مرةً أخرى وبعد ثلاثة أيام من تلك الليلة وجدته في واحدٍ من مكاتب النادي يجلس إليه البعض ممن حاصروه بالأسئلة، فجلست معهم ثم أشرت أستئذن بالحديث فتبسم لي وأشار بالسماح، فطلبت منه أن يرينا شيئاً مما يقال عن أسطوريته في إلقاء الشعر، فسكت قليلاً ثم قال: «لنغيّر موضعنا هذا لتسمعوا شيئاً..».

استجبنا له وسرنا وراءه نحو الصالة، فجلس وعلى الفور أغمض عينيه، ثم انفجر كبوابات سدٍّ ضخم يمسرح قصيدةً للشاعر الفلسطيني، فواز عيد:

«صفق الراقص.. فاصطفت على الجنبين جدرانٌ ونخلٌ ويدان

واستدار الليل خوصاً ووجوهاً تتلوى.. دان دان!»

سُحرت بما رأيته من الإيمان بالشعر والذوبان معه إلى هذا الحدّ، حدّ تسايل الدموع من طرفي عينيه، وحدّ الحركات الهوائية المؤثرة، وحدّ سطوة هذه الحنجرة، التي تقفز كنافورةٍ فتصبّ كل مائها على آذان السامعين!

حين انتهى. . انتهت معه قدرتي على الكلام، وانصرف عن دهشتنا إلى حديثٍ آخر كأنما هو يهرب من أن نقول له حتى «أبدعت»، وسألته أن يأذن لي بالجلوس معه، فقال إنه لا يملك سيارةً تعيده إلى الفندق وعليّ أن أفعل هذا إن شئت. فعلت ومنذ تلك الليلة وأنا أستيقظ في الثامنة كل صباح، ثم لا أتركه طرفة عينٍ حتى أعيده إلى نومه في الفندق في الثانية عشرة ليلاً. . هكذا كان صيفي ذاك، ولشهرين كاملين، برفقة هذا الفيلسوف الأسمر!

مما علمنيه أنه لا حقيقة في هذه الحياة، وأن الإنسان هو من ابتكر كل هذه المآزق، التي يعيشها فهو من ابتكر كل قصص الخوف، وهو من أكره من في الأرض على مخترعاته الهلامية، ثم قتل كل من لم يقل له «معك»، وتعلمت منه كيف يمكن للمرء أن يتناول الكلام الجميل، وكيف يصممه ويفسره، وكيف يمكننا التعرف إلى أصول الكلمات والحروف وغير ذلك، وتعرفت معه إلى الكثير من أساطير الثقافات العربية والغربية والشرقية، وحدثني كيف تدخلت هذه الأساطير في الكثير من الجماليات، والكثير من التشوّهات في ذهن الإنسان وكيفية تناوله للحياة، بل أهداني كتابين، أحدهما معجم للحضارات، والآخر معجم أساطير. اصطحبني مراراً إلى المجالس الثقافية التي يدعى إليها ليلقي محاضرةً أو غير ذلك، وكان يرفض أن يصحبه غيري وأن يكون معنا غيرنا!

سمع مني شعراً كثيراً، وقال عني كلاماً جعلني في أقصى حالات افتخاري بنفسي، وأجرى بعض ملاحظاته على شعريتي بشكلٍ عام، وحين عرف قصتي منذ البداية مع المتدينين الحركيين

صفق لي ووصف أن ما فعلته معجزة وأنني أستحق أن يكون لي شأن، وذكرني دائماً بأن العبقرية هي أن يستطيع المرء الحصول على ذاته والتخلص من استعمار كل هذه الثقافات والعادات والأعراف والآخرين، وأنه لا توجد عبقريةٌ مطلقة، لكن كل من تحسس نفسه بعيداً عن صلتها بأي شيءٍ خارجها فهو عبقريٌ لأنه تمكن من أن يكون وحده ولو في بعض الجوانب. . ومعه عرفت كم ضاع من عمري، وكم هذه السنون الثماني والعشرون التي مضت مسروقة مني، فلم أعرف طيلتها عمن أكون شيئاً!

شعرت أنني أستيقظ من سحرٍ استمر كل هذا الوقت. بدأ مفعوله في طفولتي والآن فقط أصحو منه، وحين تأكدت أني حقاً لم أحظ بحياتي في ما مضى، وأن الآخرين من حولي سرقوها شعرت بشيئين متناقضين، بالانبهار والبكاء المرّ، تماماً كذلك الذي يرمى في زنزانةٍ طوال ثمانٍ وعشرين سنة، ثم يخرج منها ولا يعرف لماذا أدخل إليها، فيتساءل «ترى من سيعوضني عن كل هذه السنين؟ وضياعها لمصلحة من؟ وأية عدالةٍ هي التي جعلتني في هذا المكان وفي هذا الوقت؟ وأي قانونٍ سيعيدني إلى طفولتي لأعيش حياتي التي اغتصبت كل هذا الزمن منها؟!»، ثم أشعر بالفخر والخيلاء والنصر أني تخلصت من كل مستعمري الأيديولوجيات ومآربهم، وأنني جديرٌ بنجاحٍ كبير، فلا أحد سيتعرض لكل ما تعرضت له، ثم يستطيع العودةَ لانتزاع ذاته من جديد. كل هذا كان إثر احتكاكي بهذا الرجل، ومحاولاته المستمرة في أن يخلصني مما بقي داخلي من وجوه الآخرين وجنودهم.

أوصاني بقراءة الفلسفة الغربية، وأشار عليّ بأن أبدأ بكتاب

«قصة الفلسفة» للفيلسوف «ول ديورانت»، فقرأته وناقشته فيه، حتى كنت أشعر أنه يستاء من كثرة إلحاحي وأسئلتي فيطلب تأجيل الحديث ليوم آخر، ثم وقعت مجموعة من كتب عبدالله القصيمي، الذي كان أصولياً ثم انقلب على كل ما كان فيه، فقرأت له «هذا الكون ما ضميره، أيها العقل من رآك، هذه هي الأغلال، العرب ظاهرة صوتية» وقرأت معها ما أمكن لنيتشه وهيغل وكانط..

تحدثت مع عبدالله نور في الكثير منها، وكم كان ذهولي بالغاً وهو يحدثني عن عبدالله القصيمي، الذي كان يعرفه معرفةً شخصيةً في أثناء حياته، بل جمعتهما بيروت زمناً وسكنا في بيتٍ واحد لبعض الوقت.. لقد كنت أشعر أنني أحصل على أحلام مستحيلة وأنني أعيش شيئاً كهذه الأساطير، التي كان يحدثني عنها بتوسع في كل مرة نجلس في مقهانا الذي اعتدنا الجلوس فيه!

وأخيراً حان الوقت ليرحل عبدالله نور، ويعود من حيث أتى، وفي اللحظة الأخيرة، التي أعرف أنه سيغيب بعدها، ولا أدري إذا ما كنت سأراه بعدها أو لن أراه، فهو في الرابعة والسبعين، ويبدو أن الموت إليه أقرب من أملي، في تلك اللحظة مددت إليه بورقة.. وأدرت ظهري لأمضي فقال «توقف.. سنقرأها معاً» فتوقفت..

كانت نصاً شعرياً كتبته بالطريقة الإيقاعية التي يحبها، والتي كنت قد تجاوزتها إلى النصوص الحرة غير المشروطة.. كتبته له وفيه وفي ما فعله لأجلي كل هذا الوقت، فقرأها وبكى وبكى..

«هنا..
نلتقي في انتشاء الضباب

وفي لثغة العمر.. مغرورقان!
وينتصب الليل من فوقنا
أنا الصاخب الصمت، مهد الخطيئات، مرتجفٌ في انتظار البكاء!
بيتاً قديماً به نقش أنثى..
تشقق من نزوة الأشقياء، ومن زفرات الرياح..
ومما تجيء به دندنات المطر، ملاذاً يفتش عن ضائعين!
فيلتقّني في يديه امتدادٌ مهيب الجلالة!
قد كان شيخاً نحيلاً مثيراً.. طويلاً كحلمي
على راحتيه سبعون صيفاً
يقلبها حين يأوي إلى ركنه في المقاهي القديمة
يحدثني عن جنون الزوايا، ورعب القناديل، والأنبياء!
وعن أرق الناي والشعر والمقبرة
وعن قلق المؤمنين اليتامى، وعشتار والصاد.. والأمكنة!
وعن جذري / الماء، تحيا على ميمه فلسفات الحروف!
وآذار كيف اصطفانا عيالاً، وأيلول يعصف بالسوسنات!
وعن موعد العطر يوماً يجيء.. ونيسان يهمي اختيالاً
وأوديب سيدنا والخطيئة!
وعن قدر الله في خلقنا، وتكوير أيامنا في النساء!
وعن قطه الأسود المتخفّي، ينام.. ويوقظه الفن شراً رحيما
جمالاً عزيزاً رجيما!
.. إلخ

٢٦

ليس المعتدون فقط هم الأشرار، بل الأكثر شرّاً منهم أولئك الذين اعتدي عليهم ولم يرفضوا الظلم ولم يقاوموه! الساكت على القهر أكثر سوءاً من الظالم، والذي لا يقف بصدره في وجه الريح ليثبت أنه جديرٌ بما يملكه فهو لا يستحق البقاء، إلا هناك في ذيل الحياة، وعلى هامشها!

في السنة الثانية من الألف الثالثة كنت أقف أمام تحدٍّ صعب، وهو أن أثبت أحقيتي بهذه الوظيفة، التي اعتمدني فيها أمير المنطقة، رداً على الذين تآمروا عليّ ليعاقبوني على الكتابة وغيرها، فنذرت نفسي تماماً للبقاء ما أمكن في الإدارة لإنجاز أعمالي وأعمال مكتب المدير العام، الذي كان مشدوهاً من جديتي وصبري وكفاحي حتى كنت أبقى في المكتب من شروق الشمس وأحياناً حتى الواحدة ليلاً، وللثقة البالغة التي منحني إياها فقد كان يطلعني على كل دقائق الإدارة وأعمالها وصرت في أذهان الموجودين جميعاً الشخصية الأولى التي يطمئن إليها المدير، وبلغ الأمر أن يأتي البعض ممن تجاوز وجودهم في العمل العشرين والثلاثين سنة ليطلبوا إليّ الدخول في وساطاتٍ لهم عند هذا

المدير، الذي كان يبتسم لي دوماً، ويقول شكراً للصدفة التي جاءت بك!

حصلت على جائزة إمارة منطقة عسير تلك السنة، كأفضل موظف على مستوى الإدارة، وبهذا أكون قد أثبت أحقيتي، ونجحت في أن أقنع الكارهين قبل المحبين أني جديرٌ بكل هذا التقدم الذي أحققه، زيادةً على هذا فقد استمرت كتاباتي في الصحيفة، وصار تناولي للأمور والقضايا أكثر دقةً وعمقاً، وبتّ أركز على الأفكار وتفجير الأسئلة في أذهان الناس وصدمهم بما هم عليه من التأخر عن تفكير العالم كله وثقافته. كان من أكثر المقالات التي لا أعرف حتى اليوم لماذا لم يهاجمني المغالون بسببها بالرغم من حدته ووضوحه، لقد كتبت عن المفسرين وفخ تفسيراتهم وتأويلاتهم، التي كنا ضحيةً لها، وكيف حولوا مجموعة من الأساطير إلى دين يسوقون الناس بسطوتهم إليه!

هذه واحدة: «عندليب بازل وخمسة قرون من السخرية..

نقطتان في غاية الأهمية أولاهما تفضي إلى الأخرى، تشكلان صوراً متعددة من أمراض ثقافتنا وموروثنا النقلي والطابع لآرائنا واتجاهاتنا ومواقفنا حيال قضايا كثيرة سواءً أكانت على الصعيد الشخصي لكلٍّ منا أم على الصعيد الاجتماعي، وتعكس مدى تغلغل هذه الإشكاليات في الذهنية الجمعية لدينا، وحتى أصل إلى طرح هاتين النقطتين سأنقل قصةً أوردها الفيلسوف الألماني هاينريش هايني في كتابه «في تاريخ الفلسفة والدين» سماها قصة «عندليب بازل» وقد وقعت في أيار سنة ١٤٣٣م في عهد المجتمع الكنسي إذ قامت مجموعة من رجال الدين بنزهة إلى إحدى

الغابات التابعة لمدينة بازل، وقد اشتملت هذه المجموعة على أساقفة ودكاترة ورهبان من كل الأصناف والألوان وكانوا يتجادلون في موضوع الخلافات اللاهوتية، فميزوا وتحاجوا أو اختلفوا في الضريبة التي يسددها رجل الدين الكاثولوكي للبابا لقاء منحه منصباً واختلفوا في الترشيحات والتحفظات أو أنهم تجادلوا في ما إذا كان توماس الإكويني فيلسوفاً أعظم من بينافيثورا وغير ذلك من الأمور التي لا نهاية لها، ولكنهم فجأة وبينما هم في حمأة نقاشهم الديني المجرد أمسكوا عن الكلام وجمدوا في أماكنهم أمام شجرة زيتون مزهرة حط عليها عندليب ترنم بأرق الألحان وأعذبها وأثناء ذلك شعر السادة العلماء بالروعة واستيقظت أحاسيسهم من نوم شتائي عميق غيبتها تلكم المسافات البعيدة ما بينهم وبين حلاوة الحياة الدنيا وطراوتها، رهبانية من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وتبادلوا النظر في بهجة ودهشة وأخيراً أبدى أحدهم ملاحظة ذكية كما هي عادة المتفنين في إفساد الروعة وملاحظته أن في مثل هذا شيئاً غريباً وأن هذا العندليب قد يكون شيطاناً وأن هذا الشيطان أراد أن يصرفهم عن أحاديثهم الدينية بأنغامه العذبة النقية ويغريهم بالملذة والآثام الحلوة الأخرى فراح يعزم بالصيغة المألوفة آنذاك فيقول: إني لأعوذ منك بالذي سوف يأتي ليحق الحق بين الأحياء والأموات، ويقال أن الطائر هرب في حالة عظيمة من السخرية بهم، وأن الآخرين الذين سمعوا صداحه مرضوا في اليوم نفسه وما لبثوا أن ماتوا إثر ذلك، لأنهم اقترفوا هذا الذنب العظيم فكان المرض ثم الموت جزاءهم!

أعتقد أن هذه القصة لتتضح منها النقطتان اللتان أسلفت دون

الكثير من التعليقات، فأقول إن أولاهما تفضي إلى الأخرى فالأولى هي ما يمكن أن نخرج به بعد التعرف إلى الصورة الحقيقية التي اتسم بها ذاك العصر من سيطرة فكر اللاهوتيين المغالي في الإعراض عن الحياة وتأثيرهم الجلي في العقلية الجمعية، فكان هذا المشهد يحمل تماماً الطابع المرعب الذي وسم كل شيء جميل بالشيطانية وأنه من عبث الدنيا وقذارتها، حتى إن العندليب أصبح مخلوقاً مشوهاً في أعين الناس تلك الفترة، وامتداداً لذلك فقد كان المرء يصلب كلما غنى، وكان المسيحي الحقيقي يجول في الطبيعة المزهوة بحواس مغلقة متأثراً بشبح الخوف من الشيطان وأن تفتنه الدنيا بجمالياتها عن دينه.

أما النقطة الأخرى الثانية التي جاءت كنتيجة حتمية لسيطرة هذا الفكر وهي أدلجة كل شيء وتحديداً أدلجة الإحساس بجماليات الأشياء، ومفاتن الطبيعة والحياة وملذاتها، وبالتالي اتخاذ مواقف أيديولوجية تجاه قبولها أو رفضها أو الاستمتاع بها، وقد حمل التراث العربي الديني الكثير من القصص التي ما زالت تسيطر على طريقة تفكير معظم المتزعمين الدعاوى الهادفة إما لإحياء التراث وإما إعادة إبداعه في وقتنا الحاضر، كتأملات شاعرٍ أو مبدعٍ ما في شيء من مفردات الطبيعة امتداداً لكونها توافق فكرة إيديولوجية لديه لا أكثر من ذلك، مفرغاً مجالاتها الجمالية وناسفاً كل الإيحاءات الدنيوية الطبيعية لها، مبقياً على إحساسه بها من زاوية واحدة فقط، وكذلك هو موقفه تجاه الأشياء التي يرفضها ويستبعد كل جمالياتها، وربما حاربها، حين تصطدم بفكرته أو رأي مذهبيته الإقصائية لغير رؤاها حتى على هذا الصعيد المتاح

للذائقة الإنسانية المجردة ما دامت لا تمس مساحات الآخرين، وهكذا فالتعبير عنها من خلال مرجعياتٍ تراثية متحيزة التفكير والاتجاه يفقدها قيمتها وفتونها الذي تتجلى فضاءاته حينما يكون امتداداً للطبيعة.

ولقد كانت تلك القصة وما دار عنها وحولها وفيها من وقائع التاريخ والتراث المسيحي، باعتبارها صورة من صور مرحلية تطوره، وبالنظر إلى تاريخ وقوعها من زاوية عمر الفكر الكنسي المسيحي نجد أنها وقعت في سنة ١٤٣٣م أي في القرن الخامس عشر، وعند مقارنة هذا القرن بالقرن الهجري الممثل للفكر الإسلامي لدينا خصوصاً سنجد أننا نعيش في القرن الخامس عشر، وهذا لا يعني شيئاً كثيراً، ولكن الذي يجب التوقف عليه هو ما إذا كان الفكر الديني لدينا يمرّ بالمرحلة ذاتها! فهل يمكننا اعتبار أسلمة الأدب وأدلجة الإحساس بالفن والتعبير عن الجماليات دليلاً واضحاً وصريحاً على مرورنا بالمنعطف السيّئ ذاته! وهل ما تتداوله ثقافتنا وطريقة التفكير لدينا وحتى أحاديث مجالسنا من مثل القصة السابقة يعتبر دليلاً آخر على تورطنا في تقديس هذه النوعية من الرجال الذين يمثلون فكراً قد لا يكون الصحيح بالضرورة! وهل المواقف المتشنجة الرافضة تجاه الرسم والموسيقى ومختلف الفنون مماثلة للموقف نفسه الذي اعتقد أنها من عبث الشيطان وأنها روحٌ شريرةٌ تحلّ بالأشياء فتزينها لتفتن الناس عن دينهم وتشغلهم عن العبادة والذكر!

أعتقد شخصياً أن رفضنا لنقد شريحة ما تمثل تفكيراً لا يمنحها حق القداسة التي تؤثم من يجانب رأيها أو ينتقدها، وإن

رفض توجيه الانتقادات لها، وإن الموقف المقصي للفنون واعتبارها من عمل الشر والفساد، وإن أدلجة الإحساس بالجمال فيما يسمونه بأسلمة الأشياء والفنون والعلوم.. إلخ، كل هذه الأحوال والأطوار التي نعيشها اليوم تعني أن الفكر الإسلامي يمر بالمرحلة ذاتها وفي التوقيت نفسه، فهل سنحتاج إلى قرنين قادمين من الزمن للتخلص من أمراض الثقافة والموروث لا من الثقافة ولا الموروث كله، ولنفرق ما بين الموروث الحقيقي وما بين أمراضه!

وهل سنحتاج إلى خمسة قرون تبلغ بنا سنة الألفين الهجرية، فنكون حينئذ على المستوى نفسه من الوعي، والحضارة، والقوة، والتقدم العلمي والتكنولوجي وحتى الأيديولوجي الذي يعيشه العالم البعيد هناك في الألفين الميلادية! إنه لشيءٌ يدعو للإحباط والأسف أن تكون الأرض تعيش هذه الانفجارات الحضارية وما زلنا نصبغ التفوق والتميز والقوة بالروح الشريرة والطاغوت وعمل الشيطان، وأن يكون إحساسنا بالجمال وشعورنا بالحياة في حالة غيابٍ كلي يشبه السبات الشتوي الذي مرت به التجربة المسيحية قبل خمسة قرون، وأن نتأخر كل هذه القرون متمسكين بما انتهت الأمم منه وحسمت مواقفها تجاهه، فلم تقص الموروث قط، لكنها أوقفت سطوته وسطوة المهتمين به على مناحي الحياة المختلفة، لم تقص البتة أكثر هذه الشعوب والحضارات الموروث وإنما أعطته المساحة الوجدانية الروحية الأخلاقية القيمية الحقيقية التي جاء من أجلها في الأصل!..

في هذه السنة الثانية أيضاً عرفت محمد زايد الألمعي، كنت

أسمع عنه كثيراً، وسمعت الذين يكفرونه كثيراً، وحملت عبء تكفيره كثيراً.

الألمعي من جيل الحداثيين الذين بزغت نجومهم في مطلع الثمانينيات، وهو ممن تعرض لشراسة السلفية مدّ التطرف والتكفير. الألمعي رغم كل ما تخبئه جمجمته من الموسوعية العلمية والفلسفية إلا أنه يعيش رهيناً بحالة مركبة من الإحباط والخذلان.. إنه شاعرٌ حقيقي ومثقف مستقل، ويفكر بالطريقة الإنسانية المجرّدة ميّالاً إلى الهرب من كل شيء حتى من نفسه، وفي داخله اثنان فهو الطفل الذي يمكن أن يقتاده أيما أحد فلا يسحب يده منه، وهو البركان الذي يحرق كل شيء، ساعة يعرف أن أحداً ما يريد استغفاله!

تلك الليلة بالنادي الأدبي سيأتي محمد ليشارك في أمسيةٍ شعرية لتسجيل موقفٍ إنساني مع الفلسطينيين، لا مع الحكومات، ولأن الناس عرفوا أن الألمعي سيأتي فقد جاؤوا بزخم شديد، منهم المحب الذي يود أن يرى هذا المتخفّي، كيف يقولُ الشعر، ومنهم الكاره الحاقد الذي جاء ليتصيّد كلمةً من هنا أو من هناك.. وصعد الألمعي المنبر ليلقي قصيدته: «أخيراً عرفتم بأن الطريق إلى القدس..

ليس الطريق إلى قندهار!»

وضجّ المكان بالهتاف له وضدّه، وحين انتهى مضى دون أن يلتفت إلى أحد، ولحقت بالألمعي وعرفته بنفسي، فقال «أعرفك، وليتنا نلتقي»، وبكلمته تلك كسر كل الحواجز والرهبة التي كانت بنفسي حياله، فالتقينا المرة والمرتين والثلاث وصار لقاؤنا دائماً،

وكل الوقت يحدثني محمد عن الحداثة والشعر والفلسفة والفكر والسياسة وعن الغرب والأفكار والمفكرين الذين قلبوا كل بناء واستطاعوا أن يصلوا به إلى ما هو فيه، ثم يقرن ما بين الحالتين الغربية والشرقية.. وكلما تحدث عن الإرهاب والتطرف لدينا عدد مقالاته وقصائده، التي كان قد كتبها قبل وقوع ما وقع بخمس وعشرين سنة، وكيف بات ما هوجم على الحديث عنه قديماً قضيةً إنسانيةً ووطنيةً في يومنا هذا، ولم يتورع في أية فرصة تسنح له أن يقول بأننا حاصرنا المغالين والإرهابيين في حادثة جهيمان داخل الحرم، ثم فتحنا لهم أبوب الوطن كله، وقدمنا لهم التنازلات، التي مكنتهم ليفعلوا فعلاتهم كلها، فمن مطاردتهم في أقبية الحرم إلى الاحتفاء بهم في أرجاء الوطن، وبعد التورط في أفعالهم من جديد عدنا لمطاردتهم الآن!

محمد زايد الألمعي.. سأقول عنه دوماً إني عرفت رجلاً عظيماً تجاهله القدر الجميل، وتعمده القدر المتآمر، ولم ينصف نفسه ولا أهل هذه البقعة أنصفوه. سأقول إن الألمعي الذي يحمل في رأسه تاريخاً كاملاً قصةً سيستحي هذا المكان مما ألحقه بها، ومما فعله ليتجاهلها.. الألمعي لم يكن يوماً من المزايدين ولا من المطبلين ولا من المنافقين لا يجد ما ينفقه على نفسه وأسرته في معظم الأحيان، في الوقت الذي يتمرّغ الكثير من المتلونين والمنافقين والمتاجرين بالدين في الملايين من الريالات والقصور، ويتصدرون الفضائيات ليتحدثوا عن المواطنة والإصلاح والإنسانية.. إن الألمعي كدمة سيشعر جسدنا كله بوخزها ذات يوم!

٢٧

حكاية جديدة..

مثّل الإنترنت متنفساً للناس، وخصوصاً مع توالي الأحداث داخلياً وخارجياً، عربياً وعالمياً، فحادثة سبتمبر وحرب طالبان ثم حرب العراق، ثم التفجيرات والاغتيالات التي شهدتها المنطقة كلها، والسعودية تحديداً، كل هذه الأحداث وغيرها شحنت الناس بخليطٍ ثائر من المشاعر، ولم يكن أمامهم سوى شاشات حاسوباتهم يفرّغون بها كل ما يعتلج في صدورهم من اللعن والشتم لأميركا والغرب والعرب والأنظمة والحكومات والناس.. وشتم حتى أنفسهم!

كنت أحد الذين استثمروا الانترنت في قول ما لا يمكن قوله في غيره، وكتبت في العديد من المنتديات، كان أبرزها منتدى «طوى»، هذا المنتدى الذي حاز شهرةً كبيرةً وصار صوتاً لليبراليين السعوديين، ونجح القائمون عليه في جذب الكثير من الأقلام المميزة والمشهورة. قدمت طوى لي الكثير، وعُرفت عبرها واتصلت بالكثير من المثقفين والمفكرين، وقدمت لطوى كل ما يمكنني، وفي السنة الثانية من عمر هذا المنتدى، أي في عام ٢٠٠٣ حصلت على لقب شخصية العام، إذ تجاوزت مشاركاتي به

الألفي مشاركة، منوعةً ما بين الشعر، والسرد، والمقالات الفكرية، والطرح الإنساني والفلسفي، وغير ذلك!

في هذا المنتدى شدتني إحدى الفتيات. كان لما تكتبه طابعه الخاص ونكهته التي تعجبني، وهكذا نحن هنا لا يمكن أن يصل أحدٌ ما إلى قلب آخر إلا عبر هذه الأجهزة، فعلاقة أي رجلٍ بامرأة هنا جنائية يُعاقب عليها، إضافةً إلى أن افتضاح أية صداقة بين امرأة ورجل هنا تعني سقوطهما واحتقارهما وتحطيم حياتهما!

مع الإنترنت صرنا نعيش حياتنا على الطرق الافتراضية الأثيرية، ويندر أن تتحول مثل هذه الافتراضات إلى واقع حقيقي، بل إن الكثير يبدأون قصص الحب، وتستمر ما بينهم لسنين، بكل ما فيها من خيالات الجنس والعناق وافتراضات الشجن.. ثم ينهونها ولم يلتقوا ثانية واحدة، وليس سوى أنهم عاشوا كل شيءٍ عبر هذه الأجهزة وعبر الخيالات، وأكثر ما يمكن أن يصلوا إليه المكالمات الهاتفية، أو تبادل الصور عن طريق البريد الإليكتروني!

هذه الفتاة.. وإثر عددٍ من المراسلات والأحاديث الهاتفية اتفقنا على اللقاء. وكانت متحمسة لهذه اللحظة، إذ لا توجد لديها أية عقد ولا مخاوف فقد عاشت حياتها في أميركا والكويت، ولا يربطها بثقافتها سوى أهلها، الذين تأتي لزيارتهم مرة أو مرتين في السنة لتصطدم بالاختناق الذي يعيشون فيه، ثم تهرب من جديد، فهي تحمل حصانة الجنسية الأميركية، وكثيراً ما كانت تغايرني بها وتقول «تذكر أنني أميركية ويجب أن تمتثل لأوامري!» وأجيبها: «يا أميركا لحم كتوفك من خيرنا»..

تقيم في الكويت وتعمل هناك، أكبر مني ببعض سنوات،

وفي هذه السنة اضطرت للعودة إلى السعودية للخطر الذي يهدد الكويت بسبب الحرب التي شنتها أميركا على العراق، وهرب معظم الكويتيين، ظناً منهم أن صدام سيجنّ ويهاجم الكويت كردة فعلٍ طبيعية لجنونه وغضبه!

اتجهت إلى المدينة الكبيرة على موعدٍ مع الفتاة، التي بقينا نتبادل الرسائل سبعة أشهر تقريباً.

كانت تلك الليلة ماطرةً وشجيةً جداً، واتفقت ورفيقتي على أن نلتقي في مكتبة العبيكان، ثم نخرج من هناك متخفيين لنمتطي السيارة التي استأجرتها، ولنذهب بعد ذلك إلى أيّ مطعم أو مكانٍ يمكننا أن نقضي فيه بعض الوقت، وتمت الأمور كما خططنا.. وقضينا ساعتين مليئتين بالأحاديث النقية في مطعم مغلق، وقبل أن نفترق اتفقنا على أن يتكرر لقاؤنا في اليوم التالي!

يوم الأربعاء.. كانت بانتظارنا فاجعة رهيبة أكبر من أن نحتملها أنا ورفيقتي معاً، فحدث أن هاتفتني في العاشرة صباحاً واقترحت عليّ أن نشرب القهوة في مقهى بأحد الأسواق العملاقة والشهيرة، التي تتوسط المدينة، وبعد نصف ساعة كنا جالسين متقابلين وإلى طاولة واحدة. كانت صديقتي هذه جميلة جداً، ومرحة جداً، وكنت أحدثها عن نيتشه، الفيلسوف الألماني، وكيف أمات الإله في كتابه زرادشت. كانت تستمع إليّ، وحين سكت مدت لي بقصاصةٍ صغيره وقالت: «أرجوك سجّل لحظتنا هذه حتى تعيش معي إلى الأبد»..

سحبت ورقتها وكتبت: «بيننا طاولة، مطفأةٌ.. حقيبتها والإله الذي مات، بيننا رعشةٌ تهزّ كوبي قهوتنا!»..

الشرطة الدينية، في المدينة الكبيرة تحديداً، يحكى عنها من الحكايات ما لا يمكن أن يخطر ببال المرء إلا أنه يسمع سرداً لأحد أفلام الهوليود، والناس هنا باتوا يرهبونهم إلى درجة أنهم كثيراً ما يضربون بعصيهم الشباب والنساء في السوق، ولا يجرؤ أحد على أن يقول لهذه الشرطة الدينية شيئاً.. ولسوء حظي وحظ رفيقتي لم نكن نعرف عن درجة هذه الحال في هذه المدينة سوى ما يقال، ولم نكن لنشعر بأي خطر، ولم نكن لنعلم أن العامل الذي يقدم لنا القهوة مجندٌ من قبلهم، يبلغهم هاتفياً عن أي اثنين يحتمل ألا يكونا زوجين، فأي اثنين تبدو عليهما ملامح الشوق والخوف والارتباك فهذا يعني أنهما على علاقةٍ غير شرعية، وهكذا رآنا العامل، وبعد عشرين دقيقة تحديداً وإذا برجلين من الشرطة الدينية يطلبان مني ومن رفيقتي بطاقة الزواج أو المضي معهما إلى المركز، ولفجيعتنا نسينا أن نخفي القصاصة، أو الهدايا التي اشتريناها لنتبادلها، فجمعها الشرطي كلها وأخذها معه!

حاولنا الامتناع فتوعدنا أحدهم أن يخرجنا أمام الناس في السوق مقيدين بالأغلال، وأن يفرغ علينا سيلاً من الإهانات، فاختصرنا على أنفسنا كل هذا ومضينا معهم.. هناك في مركزهم حبسوني في إحدى الغرف، وكنت أسمع بكاء الفتاة الذي لم يستمر طويلاً، ثم سمعتها وهي تشتمهم واحداً واحداً، وعرفت فيما بعد أنها خرجت، رغماً عنهم، لأنها بكل بساطة أبرزت جوازها الأميركي، وهددتهم إن هم لم يطلقوها فوراً أنها ستتصل بالسفارة الأميركية!

وبالطبع.. كان لا بدّ أن أتحمل كل شيء، فأنا لست

أميركياً، أنا جنوبيٌّ جبليّ حليق الشنب واللحية، وزيادةً على هذا فأنا عندهم كاتب علماني في صحيفة علمانية، وليس أمامهم من شخصٍ غيري ليفرغوا من خلاله حقدهم على قوة أميركا، التي وقفوا أمامها وأمام الفتاة بكل ذلك الجمود!

حين نظر أحدهم إلى اسمي في البطاقة، قال: «هل أنت الكاتب في الصحيفة العلمانية؟» فسكت لبعض الوقت، أفكر ما الذي سيترتب على إجابتي، وتخيلت للحظة أن الكتابة والثقافة ربما تمنحانني شيئاً من الاحترام عندهم، فأجبت: «أجل أنا هو» . .

فقفز من مكانه قائلاً:

– والله لأضربنك ضرباً لا تنساه في حياتك أيها العلماني الحقير!

نظرت إليه بحنق، ثم انفجرت:

– سأخرج من هنا يوماً، ووالله لتدفعن ثمن ما تفعله، فاضربني إن كنت رجلاً . . .

وقبل أن تصل يده إليّ وقف الجالسون بيننا ليخرجوه من الغرفة، وليخبروه أنهم سيتدبرون أمري!

بعد نصف ساعة حملوني في سيارتهم، ليسلموني إلى مركز الشرطة المدنية، وهناك أودعوني السجن، دون أن أعرف حتى ما هي التهمة التي ألقوني بسببها في هذا المكان، وهل سيسمونها جريمة شرب القهوة مع صديقة!

قضيت ذلك اليوم كاملاً في التوقيف، وسحب مني هاتفي وكل ما يمكن أن يكون وسيلة اتصال، وفي اليوم التالي تحدثت مع الحارس عبر النافذة، وقلت له: «أبلغ مسؤولك الموجود بأني كاتب في صحيفة سعودية، وإذا لم يحدثني الآن فسأكتب كل ما رأيته من المعاملة السيئة والمكان القذر، والذي أثق بأنكم خالفتم قوانين الدولة ووضعتمونا فيه، وكل هذه الأعداد التي تراكمونها لتنام بعضها فوق بعض في هذه الغرفة الضيقة التي تسمونها توقيفاً، ثم أرفع شكواي إلى ولاة الأمر، وسيشهد السجناء معي!».

نقل السجان الرسالة، وبعد دقائق استدعاني المسؤول هلعاً، محاولاً أن يشعرني بأنه يقدم لي خدمة بإطلاق سراحي مقابل صمتي، فكتابةٌ مثل هذه قد تطيحه، وحتى يؤكد لي جزيل إحسانه إلي أراني التقرير الذي كتبه أعضاء الشرطة الدينية مرفقاً به القصاصة وطلب إحالتها على القضاء!

لقد كانت التهمة «الاختلاء غير الشرعي» في سوق يجول داخله أكثر من ألف شخص. حقاً لقد كان أعضاء الشرطة الدينية على عزم تام بأن يفوا بوعيدهم!

خرجت. . وفور خروجي هاتفت صديقتي، لتخبرني أنه من المستحيل أن تراني في مكانٍ كهذا، وأنها ستعود إلى الكويت، فمخاوف الحرب أهون من هذه الإهانة التي تعرضت لها، والسبب أنها التقت صديقاً في مكان عام!

تألمت كثيراً. . وفي اليوم التالي أخذت مقعدي بالطائرة عائداً إلى أبها، ناقماً على كل هذا الشرّ، مقسماً إني لن أسكت على من اغتال في دواخلنا أبجديات الإنسانية!

مرّت بي أزمة كبرى من الكآبة وكراهية كل شيء، وحدثت نفسي مراراً أن أشتكي ما حدث لي ولصديقتي إلى أمير المنطقة، الذي أعرف مواقفه القوية تجاه كل تطرفٍ أو غلو، لكنني لم أفعل. كنت منهاراً لدرجة عجزي حتى عن الشكوى!

في أكتوبر من هذه السنة سافرت إلى اليمن مع بعض الأصدقاء، فقد علمنا أن أدونيس، الشاعر والفيلسوف الكبير، هناك.

في اليمن قضيت خمسة أيام، ولم أكن لأصدق أنني أتحدث مع أدونيس الذي قرأت له كل فاصلة كتبها، وأحببت عقله وقلبه وكله.. لقد كنت أصرخ في فراشي «ما هذا اليمن الذي يخبئ لي كل هذا الميلاد؟!».. احتفى أدونيس بي وضمني إلى صدره، فسألته وسألته، وكان يقبل عليّ بكل حبّ وصدق، وأخيراً نجح في أن يخرجني من العالم ويدخلني إلى نفسي من جديد، ويفتح لي آفاقاً جديدةً في التفكير والشعر دون أن يعلم، وقبل أن نرحل عائدين إلى أبها طلب مني أن أزوره وزوجته خالدة هناك في فرنسا.

كان أدونيس مؤثراً جديداً بنفسي، أنقذني من أشياء كثيرة، أنقذني من بدايات هزيمةٍ كنت أتحسسها إثر الصفعة القاسية، التي تعرضت لها على يد الشرطة الدينية.. كدت أكسر حينئذ، وشعرت بانكماشٍ وتراجعٍ رهيب استمر سبعة أشهر، حتى التقيت أدونيس، الذي تعلمت منه أن الموت والسجن والعذاب والألم أشياء مضحكة في معادلات النصر، وأن من يتهيبها لن يكون سوى واحدٍ من الخراف، التي سيأتيها قدرها، وهي لا أكثر من خراف!

وفي رحلتنا تلك كان من تعقيد القدر أن نتعرف إلى المفكر اليمني، جار الله عمر، والقدر أيضاً يقول أن نحبه ونأنس به وأن نسهر معه، والقدر يقول إن جار الله عمر سيفجر في أذهاننا عبارة اخترقت أعماقنا جميعاً، فحين سألته: «ألا تخاف؟».. أجابني: «هي كلمةٌ إن تقلها تمت.. وإن لم تقلها تمت.. فقلها.. ومت!».

والقدر أيضاً يقول أن نعود إلى السعودية، وبعد عشرة أيام من عودتنا تنقل قناة الجزيرة المشهد الذي اغتيل فيه جار الله عمر، أثناء كلمته في أحد المؤتمرات. قتل وهو يتحدث عن الإنسان والأرض ونزع السلاح.. لقد اغتيل على يد أحد المتطرفين المغالين، الذين عشت فكرهم وثقافتهم كل السنين الماضيات!

بقي أن أتحدّث عن صيف هذا العام..

ومفاجأة جديدة بانتظاري، فبانصرام الصيف يعلن اسمي في حفل المفتاحة لأفوز بجائزة الشعر على مستوى المملكة، ولتكون هذه اللحظة هي المفاجأة الكبرى، التي صفعت بها الدينيين السابقين، فالصغير الذي احتقروه وأهانوه بالأمس يكرّم اليوم، على مستوى الوطن بأسره!

٢٨

للقتلة ملةٌ واحدة، ولسانٌ واحد.. كلها تفوح برائحة الدم!

في هذه الأحداث من سبتمبر وحتى من قبله.. أعلنت الأرواح المختطفة إلى الموت أن القتلة كلهم يبدون شخصاً واحداً في أجساد متعددة ولقضايا مختلفة، فلا فرق بين أيٍّ منهم، فكلهم معتدٍ، وكلهم تتلون أيديهم بلونٍ أحمر، وبالطبع فلن يكون هذا الأحمر صبغةً ولا مكياجاً ولا قطعة قماش.. إنه الدم!

كلهم تفوح منهم رائحة الآلاف من الجثث، لكننا، أيتها الشعوب المغفلة والساذجة، ميالون لتقبيل الأيادي التي تصفعنا، ونعشق صناعة أساطير وآلهة في أذهاننا، حتى لو كانت المادة التي نصنعها منها مادةً سامةً، وقاتلةً، وشريرة، وعلينا نحن فقط أن نمجد اختيارات العبث، ثم نقتتل لأجلها، وعلينا نحن فقط أيضاً أن نصفق للقوة ثم ننبطح تحتها، وعلينا نحن فقط أن نؤمن بمن له الغلبة علينا وأن نصنع من أنيابه ومخالبه جوائز السلام!

كانت الحكاية نفسها، ولكن على طريقةٍ أكثر إضحاكاً وسخرية، فبعض الأقوياء يصنعون اللصوص ثم يعودون ليقيموا عليهم الحدّ، ويطاردونهم ليقطعوا أيديهم. كانوا ينفخون عباءات الغلو والكراهية والتطرف والقتل بالمال والتمكين وتسليطهم على

الناس، والأقوياء اليوم.. هم هم يرفعون صوت الحرب على من نفخوهم، وليطفئوا الجمر الذي أشعلوه يوماً!

٢٠٠٤ انفجارات ومواجهات عديدة مع الإرهابيين في مدينة الرياض، مرة بـ «المحيا»، وأخرى بـ «الوشم»، وثالثة أصابت إدارة المرور، وهناك مطاردات للإرهابيين في الرياض وجدة وينبع وجيزان والخبر.. وغيرها. هذه المطاردات كان الملاحقون بها هم اللصوص الصغار، الذين لم تكن لهم من قيمة بالأمس لتكون لهم قيمة اليوم، أما اللصوص الكبار فقد استثمروا كعادتهم كل شيء وكل لحظة، فالذين كانوا بالأمس يجمعون عند أقدامهم الآلاف من الجماهير، يتحدثون عن القتل والموت والكراهية ويكفّرون العالم من أقصاه إلى أقصاه ويجمعون الملايين والملايين ليمكّنوا بها لأنفسهم ولنظرائهم من المتطرفين في بلدان أخرى..

إنهم من كانوا يدبّرون في مجالسهم الخاصة الدوائر للوطن والناس، وبعد كل هذا فإنهم اليوم رجالات الإصلاح ووعاظ المواطنة والإخلاص للإنسان والأرض، وهم الذين لم يكلفهم الأمر إلا أن يقولوا على مقاعد الفضائيات، وهم في زينتهم الكاملة وسلامتهم «إننا أخطأنا» ليتحولوا إلى أبطال، وأموالهم ومناصبهم وقصورهم تضيق بها الأرض والسماء، وهكذا انتهى اللصوص لدينا إلى قسمين، قسم ضعيف عليه أن يشمر عن عنقه ليقطعها الأقوياء الذين صنعوها، وقسم قوي، له الشأن بكل شيء، وعليه أن يشمر عن جيبه وفمه ليملأ بالذهب، وليصبح رمزاً للإصلاح، إنهم من كانوا يصيحون لإغراق السفينة بالأمس، يصيحون حتى لا تغرق اليوم!

ترى ما الذي يمكن أن يقال عن شيءٍ كهذا، وأية سياسةٍ مهما كان دهاؤها تمنح لنفسها الحق بأن تجعل من القاتل أباً وخلاصاً! وكل هؤلاء الذين دفعت أرواحهم الثمن في بلدنا وفي غيره من سيستطيع أن يعيدهم إلى بيوتهم وأعمالهم وأهلهم وإلى ضحكاتهم وآمالهم!

كل هذه الأشياء التي سرقت منهم لأن واحداً من اللصوص العمالقة شحن عقل واحدٍ من اللصوص الصغار فراح يقتل نفسه والآخرين!

ألم يزرعوا فيهم كراهية الحياة الجميلة وربوهم على أن الناسك الحقيقي هو الذي يجب أن يعرض عن الدنيا وعن أهلها، لأن كل ما فيها قبيحٌ، وأن عباداتهم لا تقبل وفي ضمائرهم تطلّعٌ لنعيم غير نعيم العالم الآخر، وعلموهم أن الداعية هو «حرّيف» الابتسامات، والرمش، والمصطلحات المدهونة، والخطب المذهلة، والوعظ المميت.. أما ربوهم على أن صافي العقيدة: هو الذي عليه أن يفاصل أمه وأباه وإخوته ومدينته ومجتمعه ودولته والعالم والكرة الأرضية، ولن يكون أحدٌ على عقيدةٍ صافية حتى يعلن براءته من كفر كلّ ما في الوجود وجاهليته الشريرة.. ألم يكن العالم عندهم هو المنقطع تماماً عن العالَم، ولا يخرج إلا ليقف في الأماكن العامة وعند إشارات المرور يوزع الكاسيتات التي تقول إن حالقي اللحى مخانيث، وإن الذي يجاهر بأطباق الفضائيات في بيته ديوث!

حقاً.. إن أجواءهم، بكل فنيّة عالية، كانت وما زالت الطريقة المثلى للبرمجة الذهنية في أولئك الصبية. إنها البراعة في

ضبط ترددات العقول وفق تردد واحد، ورأي واحد، ومنهجيةٍ تكفيريةٍ واحدة، وحلم انتحاريٍّ واحد، عبر التناسخ التام والمطابق في اللبس والمشية والضحك، والقاموس الدعائي «الله يثيبك.. إلخ»، للوصول إلى التناسخ والتطابق في الرأي والكراهية وحلم تقويض كل دول العالم وإقامة دولة المخيمات.. دعوةً وتلوّناً وبجميع الممارسات الممكنة التي وصلت في ذروتها إلى الانتحار والقتل!

يا للقيء، إن ثمة أناساً مهيئين لاعتناق أي شيء، المهم فقط أن يجلس بينهم اختصاصي لغة، واستشاري في جراحة العقول!

إن انتعال ١٩ مسكيناً في أميركا وكذلك الجمع الغفير لدينا من أشباههم، لقطةٌ عالميةٌ وشاهدٌ كبير على ما تعرضت له عقولهم من العمليات الجراحية الحساسة جداً، على أيدي أولئك الاختصاصيين اللغويين، المستغلين قلق الإنسان وخوفه، فيعدونه بالانتصار على هذا التعب وتحصيل حياةٍ أكبر بدل هذه الحياة الحقيرة الآنية، إن هو تنازل عنها شكلاً ومضموناً، وسلمها إلى هؤلاء الاختصاصيين يديرونها على طريقتهم دون وعيه، حتى تحين لحظة الزفاف فينبئونه أن حياةً لا فقد فيها تنتظرك هناك بجميع مفاتنها شريطة أن تتنازل عن هذه الحياة السافلة، ولينفجر كاملاً كعبوّة.. أليس الإنسان مسكيناً لهذا الحد!

كان الموقف يحتّم عليّ أن أكون صادقاً في ما يعنيني تجاه الناس والأرض ووطني، فعمدت إلى رصد تقريرٍ دقيق عن ممارساتٍ كثيرة مما تتحرك حتى اليوم في الخفاء ونشره في العلن.. حوى هذا الرصد حديثاً دقيقاً عن الحركات الدنيوية

السياسية وما تفعله، وتناولت المخيمات والمراكز وسائر الأنشطة التي يقيمونها لاستلاب عقول الأجيال، ثم رصدت رصداً موسعاً بعض ما كان يقوله منظرو الإرهاب قديماً في كتبهم وأشرطتهم ومنشوراتهم من تكفيرٍ وتحريضٍ على الكراهية والقتل وفتاوى كثيرة وبيانات ردة وغيرها، ومجدداً فإن أولئك المنظرين بالأمس هم شيوخ الإصلاح وعرّابوه الآن!

قدمت لذلك الرصد بـ.. «أنشر هذه الدراسة لكل عين تهتم بأمن هذا الوطن، آملاً بكل حرارةٍ ودفء أن يتجاوز بلدنا الكريم هذه المحنة وأن يكون ما يمر به سحابةٌ ستدفع بها رياح الحكمة والعمل الجاد إلى حيث تنقشع عنه إلى الأبد على يد المخلصين لوحدته وبقائه وديمومة كيانه، وإني لأنذر عملي هذا لمصلحة الحب فحسب، على أني لا أرجو بهذا إلا أن أسهم بما يجب عليّ كابن لهذه الأرض الطيبة لنهنأ جميعاً بوطنٍ يغمره السلام والحب والخير، مصطفاً إلى جوار كل من قضيته الإنسان!».

ومن الرصد..

«العمل الحركي السري أكثر عنفاً واستهدافاً لتقويض الدولة، بادئاً بالمنطقة الوسطى، حيث كانت النقطة الأولى، التي انطلق منها هذا التنظيم وانتشر في جميع أنحاء ومناطق وقرى وضواحي المملكة، لاسيما في التعليمين العام والعالي، حتى باتت هذه الحركة أكثر استشراءً، ونجحت على مدى الربع قرن الماضي في السيطرة على المواقع الحساسة، وأخذت توجه كل شيء لمصلحة أفكارها ورؤاها ومنهجيتها الفاسدة في تقويض ما بُني زمناً طويلاً».

ومن الرصد..

«المنهج الذي تتحرك في ضوئه هذه الحركة: يعتمد منهجهم ابتداء على بلورة قضية التشريع وبيان صلتها بأصل الدين وبيان أن الخلل الذي يغشى أنظمة الحكم في مجتمعاتنا المعاصرة ناقض لعقد الإسلام، وهادم لأصل التوحيد.. أما الأفكار التي تحملها وتنتزع العمل لها والدعوة إليها فهي تكفير جميع الدول الإسلامية وخاصة السعودية، وتربية الشباب وتكتيلهم إعداداً للخروج على الحكام، وكذلك دراستهم لحركات خرجت على حكامها، ومن أفكارهم الاستدلال على تصرفاتهم بفعل أسلافهم الخوارج، ولا يتورعون أبداً عن التكفير».

ومن الرصد..

«نماذج من نتاجاتهم الفكرية المختلفة:

حول تكفير جميع الدول الإسلامية وخصوصاً السعودية: جاء في أحد كتبهم: «إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي» وورد في موضع آخر: «إن هذه المجتمعات التي نعيش فيها اليوم مجتمعات جاهلية كما أسلفنا القول من قبل، لأنها لا تحكم ولا تحكم بشريعة اللّـه، إنما تحكم وتحكم بمناهج جاهلية وشرائع جاهلية». وإلى ما قاله س.ع في أحد أشرطته: «الرايات المرفوعة اليوم في طول العالم وعرضه إنما هي رايات علمانية»، وإلى ما كتبه س.ح: «لقد ظهر الإلحاد في صحفنا، وفشا المنكر في نوادينا، ودعي إلى الزنا في إذاعاتنا وتلفزيوننا، واستبحنا الربا، أما التحاكم إلى الشرع، تلك الدعوة القديمة، فالحق أنه لم يبق

للشريعة عندنا إلا ما يسميه أصحاب الطاغوت الوضعي: الأحوال الشخصية وبعض الحدود التي غرضها ضبط الأمن»، وقال س.ح أيضاً: «فشوقنا كبير أن تكون أفغانستان النواة واللبنة الأولى للدولة الإسلامية، وما ذلك على الله بعزيز».

ومن الرصد.. «دراستهم لحركات خرجت على حكامها: ذلك لغرض الاستفادة من تجاربها، وإمكانية تطبيق ذلك في الواقع، كما قال أحدهم في أحد كتب الثورات: «ولم أقصد دراستها من الناحية الشرعية، وإنما أقصد دراستها كواقع حصل في التاريخ الإسلامي، وهل يمكن الاستفادة منها في حياتنا المعاصرة؛ عندما ندرس أسباب نجاحها أو فشلها»».

ومن الرصد.. «عملهم على تكفير العصاة، لا سيما المصر منهم على الكبائر: قال ع.ق: «وهي، أي المسكرات والمخدِّرات، أعظم ما عُصِيَ الله تعالى به في أرضه» ومثله أو أفظع منه في التكفير بالكبيرة قولُ س.ع في أحد المغنين: «هذا لا يَغفر الله له، إلا أن يتوب؛ لأن النبيّ حكم بأنه لا يُعافَى لأنهم مرتدُّون بفعلهم هذا، هذه رِدَّة عن الإسلام، هذا مخَلَّد، والعياذ بالله، في نار جهنم إلا أن يتوب، لماذا؟ لأنه لا يؤمن بقول الله ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾؛ بالله عليكم الذي يَعرف أنّ الزنا حرام وفاحشة ويُسخط الله، هل يفتخر أمام الناس، أمام الملايين أو فئات الألوف من الناس! لا يَفعل هذا مؤمن أبداً». وكتب ن.ع يقول: «تصور أن المنكرات الموجودة في مجتمعنا مجرد معاصٍ، كثير من الناس يتصور الآن أن الربا مجرد معصية أو كبيرة، والمخدرات والمسكرات مجرد معصية، والرشوة

مجرد معصية، أو كبيرة من الكبائر! لا يا إخوان، تتبعت هذا الأمر، فوضح لي الآن أن كثيراً من الناس في مجتمعنا استحلوا الربا، والعياذ بالله، أتعلمون الآن في بنوك الربا في بلادنا زاد العدد عن مليوني شخص، بالله عليكم هل كل هؤلاء الملايين يعرفون أن الربا حرام! ولكنهم ارتكبوها وهي معصية، إذن من الخطورة الموجودة الآن بسبب كثرة المعاصي أن الكثير قد استحلوا هذه الكبائر، والعياذ بالله». وقال س.ح: «هذا المتروبوليتان عبارة عن فندق في دولة مجاورة، فيه مشروبات؛ يسمونها المشروبات الروحية، يعني أنه يقدِّم الخمور، بالإضافة إلى ما فيه من الشاليهات، أو أيضاً الفيديوهات إلى آخره، فهذه دعوة صريحة إلى الخمر، والرقص المختلط والتعرّي مع شرب الخمر، نعوذ بالله من هذا الكفر؛ لأنَّ استحلال ما حرَّم الله، تبارك وتعالى، هو بلا ريب كفر صريح».

٢٩

أما الآن.. فإنْ هي إلا رحلة، لا أدري ما إذا كان من الممكن اعتبارها رحلة عقل، أم رحلة وهم، أم رحلةً من الوهم إلى العقل، أم من الوهم إلى الوهم! هي رحلة شهدت الكثير والكثير من التأمل والتفكير والشجن والألم. توهمت بها الخلاص في كل نقطة أصل إليها، كما أنا غارقٌ بسكرة وهم الخلاص الذي أعيشه الساعة، وحدثت نفسي كثيراً، وبعد كل ما مضى أن الحياة ليست سوى سلسلةٍ لا تنتهي من الخدع، وأننا داخلها نتمرّد لننتقل من وهم إلى وهمٍ أدق، نسمية الحقيقة لنكافئ أنفسنا على هذا التمرد!

جميعنا إذن واهمون ولكلٍ منّا وهمه الذي ابتكره، والقليلون فقط هم من يعتنون بابتكاراتهم، ويحرصون على أن يكون لهم الوهم الأكثر غموضاً وتعقيداً ودقّة، متيقنين أنهم نجحوا في نسف كل ما بخارج رؤوسهم واكتفوا بذواتهم عما سواها، واعتبروا العقل جديراً بالتأليه وليثوروا عليه من جديد ويدخلوه إلى لعنة التخمين!

ما يعنيني من هذا..

أن هذا العقل كان مكاناً جماهيرياً، يجتمع داخله عدد ضخمٌ

من الموتى ومريديهم من الأحياء، وزمناً بعد زمن وسؤالاً بعد سؤال كانوا يتبخرون، حتى شعرت للحظةٍ ما أن هذا العقل هو أنا ولا أحد معي، وإنه لهو الوهم الأكبر!

في البدء.. يأتي أحدنا إلى هذه الحياة، ويعملُ المحيط الذي يعيش فيه على تشكيل وعيه ولاوعيه ووجدانه، فيبدأ بخسارة ذاته كلما عبأه الآخرون بشيءٍ جديد، فإذا قدحت شرارة التفكير في ذهنه بعد زمنٍ بمسوغ ما فإنه يعكس المؤشر، وتصير رحلة العمر عنده استعادة ما سرقَ من ذاته، حتى يعود إلى اللحظة الأولى، لحظة مجيئه إلى هذا العالم، اللحظة الوحيدة التي لم يكن بها مستعمراً من أحد!

إنها الرحلة الخاصة أن يرجع أحدنا إلى اللحظة التي يساوي فيها ذاته تماماً، أما ما بعدها فهو لن يكون هو هو بحال!

ما يعنيني من هذا..

أن شرارة العقل الأولى دهمتني مرةً ومرتين وثلاثاً وعشراً، وأنا في أقصى حالات الغلوّ الديني، أي إن السؤال المحرّض ولد في جمجمتي، وعقلي مسكونٌ بشعبٍ كاملٍ من الأموات والأحياء، وحياتي يديرونها كلهم إلا أنا، هذه الأنا الغائبة. لقد كنت أدار بكلمة فلان ومقولة فلان، وموقف فلان، وحكم فلان، وكل هؤلاء الـ فلان.. كلهم كومةٌ كبيرةٌ من التراب يحيط بها مجموعة من الأحياء، وبيدهم مغارف يأخذون من هذا التراب ويحشون به رأسي!

لم تكن تلك الأسئلة كافيةً للتحرير، وخصوصاً أن ذلك العقل المسكون بالشعب الكامل من التراب حينئذ لم يكن مجرد

مستوطنة لاحتشاد المستعمرين، بل كان فوق هذا عقلياً متعدياً حركيّاً، يبشّر بمكوناته ويبثها في الآخرين، عبر العمل المنظّم الذي كان ينتمي إليه.. كان لا بدّ من أن يثور التحدي لتعود إلى العقل أسئلته المحرّضة، فبعد تلك الخلافات التي لا تعود إلا لغرائز بعضها من قبلهم وبعضها من قبلي حدث ذلك الاستدعاء للأسئلة، فتضخمت وتضخمت حتى تحولت إلى فم واسع يلتهم تلك الاعتقادات كلها.. ويحيل العقل على مرحلةٍ أخرى، مرحلة الإنسان النصف، والانتقال لخدعةٍ أخرى هي وهم الإصلاحي المستنير، ولم تكن هذه النقلة كافيةً لإخراج كل الحشود السابقة الذكر من رأسي!

ثم التفكير والسؤال من جديد، وتوسع دائرة القراءة والبحث مرةً أخرى، ليتعلم هذا العقل ألا يخلط ما بين الخطوط، وليقتنع تماماً أن الديانات كل الديانات لم تأتِ إلا كخلاصٍ نفسي روحاني، وأن الإنسان حين منح عقلاً إنما منحه ليدير به الحياة، إذن فالعقل لي، وللروح الديانة.. هكذا ستكون الأمور أكثر طمأنينة، إذ لعقلي أن يتدبر أمور الدنيا، وللدين أن يتدبّر أمور النفس والقلق، ولن يصطدما إذ الديانة هنا وفي هذه المرحلة من التفكير في مكانها الصحيح، مكانها الذي لا يُربكُ الحياة، فالديانة معالج نفسي.. وهكذا أحسب أن الله أرادها!

وصار عدد الحاضرين داخل هذا الرأس أقل، ولأن العقل تخلّص بشكلٍ جيد من نزعاته لأي تفكير يحمل طابعاً إرثياً فإنه اعتنق الحرية، وتحول إليها، ليس على سبيل الفصل التام ما بين شؤون الروح والعقل فقط، بل على سبيل الإيمان بأن الحرية هي

أن يكون المرء ما يشاء على ألا يسرق أحداً إلى مشيئته، فلكل أحدٍ أن يؤمن وأن يتعبد وأن لا يؤمن وألا يتعبد، فالحياة حقٌّ للجميع، الحياة التي تعني الاختيار ولا شيء سواه!

هنا.. أصيب عقلي بشبق الفلسفة والأسئلة الكبرى، والتفتيش عن شفرات الغيب والبدء والنهاية، وكيف هو المجيء، وكيف هي النهاية، وماذا عن صدق الإجابات السابقة، ماذا عن كل ما قيل على ألسنة التراب حول ما كان قبل حياتي، وما سيكون بعدها! لقد دبت روح هذه الأسئلة في عقلي وكانت كفيلة بتنظيفه وكنس كل ما فيه، أما اللاوعي فهذا ما لا يمكن لأحدٍ الجزم بشأنه!

النتيجة أن هذا العقل، وفي هذه المرحلة بالذات، تغيرت عنده مركزية الأشياء، فلم تعد قوةٌ ما خارجه لها عنده أية أهمية، بل أدرك تماماً انه هو مركز كل ما يحيط به، وأن الأشياء جميعاً بدونه لا قيمة لها!

النبي.. لا بدّ أن يُسقط الأوثان بعصاه، ويعلن الحرب على كل السائد من حوله، وأن ينزع من عقله كل ما يعيشه الناس المفتونون بالموتى. كان على هذا العقل أن يعلن حربه على الأشياء جميعاً فيتقيأ كل السموم والقيح المكدس في زواياه، ثم ليبحث عن خلاصه على طريقته وأسلوبه، وليأت بما يحرره ويحرر عقول الآخرين من حوله مما هم فيه من الجهالة، وعلى العقل أن ينسف كل القوى ثم يصمم لذاته ملاذاً جديداً، أكثر دقةً وعمقاً، فهو يمشي من الشك واللا يقين بشيء إلى الإنسان.. الله!

وربما يكون أخيراً.. أن يتوصل الإنسان المستعمر إلى

الإنسان الحر، وأن يعود المسكون بالسنين والآخرين التراب إلى الجنين المطلق!

ربما يكون أخيراً أن يتوصل المرء إلى أن الإنسان هو العقل، وأنه جاء ليكون مستقلاً، مستقل العقل والحياة والجسد، وأنه ما دام رهينةً لأحدٍ بعقله أو حياته أو جسده فإنه لن يكون إنساناً كاملاً!

إذن فهذا العقل..

هذا العقل من كينونته المستقلة لحظة البدء باتجاه أن يستوطنه الآخرون أحياءً وأمواتاً، وهذا العقل بلغ به سحرهم حتى صار أصولياً متطرفاً ستكون متعته في أن يَقتُل أو يُقتَل!

وهذا العقل من اعتقاده الجامد إلى اعتقاده الحركي، ثم خلاصٌ أول فيخرج من حالتيه هاتين إلى التنويرية الإصلاحية المتسامحة، وخلاصٌ جديد.. فيخرج إلى تلقائية الفصل بين ما هو مادي وما هو روحي، وخلاصٌ بعده إلى الحرية، وخلاصٌ بعده إلى اللاحقيقة، وخلاصٌ بعده إلى النبوة، ثم خلاصٌ نهائي إلى الإنسانية، الإنسانية ولا شيء سواها، الإنسانية التي تستوي فيها لحظته النهائية بلحظته الأولى، ليكون إنساناً فحسب، إنساناً مستقل العقل والجسد والحياة!

٣٠

لقد كانت هذه الرحلة التي قطعتها عبر هذه السنين شيئاً مهماً، ومثيراً للكثيرين من المشتغلين بتناول تجربتنا وأحداثنا، فكتبت عني منتديات الانترنت كثيراً، وكتبت عني إحدى المحررات بمجلة النيويورك تايمز ما أعجبني وما لم يعجبني، وما وافقت عليه وما لم أوافق، وما قلته وما لم أقله، كان هذا في عددها الصادر لليوم السابع من مارس للعام الرابع والألفين..

مما كتبته هذه المحررة: «زاهي، الشاعر والحالم الذي يكتب عن جمال الموسيقى والشعر وبلاهة القيود ضدّها».

وكتبت: «أحد أولئك المعروفين هناك من قبل المعلمين الدينيين في أواخر الثمانينيات شاعر وروائي من عسير اسمه زاهي. الآن هو متحول مثالي، لا لحية، جينز، سترة جلدية، سجائر. ركبت معه في جولة حول المنطقة وكنا نستمع إلى موسيقى صاخبة في سيارته الفورد القديمة. يقول: لا يمكنك الحصول على صديقة في هذا المجتمع».. ومما كتبته: «زاهي. يتذكّر نفسه ببساطة كشخصية بلاي ستيشن في قبضة يدٍ شرّيرة. يقول: لو كان هناك بنات في مدرستنا الثانوية.. لما كنت سأنضمّ إلى تلك المجموعات»..

وكتبت: زاهي ضائع في أسرة مكونة من ١١ شقيقاً. زاهي كان طفلاً وحيداً يحلم بالهروب. المعلمون الدينيون يعدونه بالجنة إذا هرب معهم. وضّح زاهي «هم ينتشلونك من هذا المجتمع حيث تفتقد الحميمية والصداقة. يعرضون عليك محبّة غير مشروطة وأخوة ومالاً وسيارات وتعليماً ووظائف، لأنهم يسيطرون على معظم الوظائف هنا». استمرّ بالقول: «في السنة الأولى يعلّموننا أن نحب بعضنا بعضاً في نزهات عطلة نهاية الأسبوع والمخيمات الصيفية، حيث يبحثون عن الموهوبين، ويزرعون فيهم رفض عائلاتهم. ثمّ يعطونهم كتباً ودروساً ويبرمجون عقولنا من أجل بناء كيانٍ جديد. يعلموننا أننا وحدنا المسلمون.. والآخرون ليسوا كذلك!». ومما كتبته: «ذهبنا إلى هضبة صخرية كثيبة بين التلين حيث كان يخيّم لمدّة سبع سنوات مع السلفيين. يقول زاهي: «أعطوني كل ما أريد، كتباً، سفراً، صلاة، وكلّ الأشياء التي أفتقدها في عائلتي وجدتها عندهم. أحببتهم. ولذا ائتمنتهم، وآمنت بهم. لقد كنت مستعداً لفعل أي شيء»».

وكتبت: زاهي، الشاعر في عسير، أخبرني، أنه بعد سنوات من تدريبه أصبح جزءاً من الجيل الجديد للمنظّمين الحركيين. معلمو السلفية اكتشفوا خلال عيونهم في التنظيم أنّه كان يقرأ همنغواي وهوغو وفلاسفة آخرين، وبأنّه كان يكتب ويقرأ شعر الحبّ الذي كانوا يعتبرونه بدعة وضلالاً، فقالوا له أن يختار: «نحن أو الشعر» لم يكن يريد فقدهم. لكن زاهي احتاج إلى

الموسيقى والشعر أكثر من الفكر القاسي. الآن هو ينتقد التطرف، يكتب الشعر علناً. يدعو إلى حقوق النساء وتعليم الموسيقى والرسم في المدارس. أبواه يعتقدان بأنّه ضال، وإخوته المتطرفون السابقون يهدّدونه».

٣١

لحظاتٌ في زمني الجديد..

مدينة جدة، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، يخرج من نزله إلى البحر.. أوقفت سيارتي بمواجهة الشاطئ، ورفعت الصوت: «أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي، فمنذ رحتِ وعندي عقدة المطر!» ثم اعتليت سقف السيارة وتربّعت فوقه!

تمرّ السيارات الفارهة والتافهة بطيئةً من ورائي، يمرّون كما يروق مشرّدي المدن المفترسة، وأبواق مركباتهم تنحشر في أذنيّ، والبعض: «يا هووه، يا رومانسي، لا تبكي يا عيني، أعطوه منديلاً، أعطوه كلينكس، إنه رجسٌ من عمل الشيطان!» وآخرون: «اسمع، غداً لا تأتِ هنا إلا بولي أمرك واحلق شعرك وقص أظافرك»، «أنعطيك..»، «متى حدث.. متى»، «هبوب الريح على شعرك يا فرس»، «ألديك مكان!»..

كل هذا ولم ألتفت لحظة واحدة، بل كأنما كانت تمرّ عليّ هذه الصرخات كالحلم.. وكنت أنصرف عنها ليس لتأمل البحر ولا الموسيقى ولا كلمات الأغنية، وإنما لأحدث نفسي بهوسٍ أكثر: «ماذا لو وقفت الآن وخلعت ملابسي كلها، كلها بلا

استثناء، واتجهت راكضاً نحوهم، سيهربون كلهم مني حتماً، بالرغم من أنهم يشبهونني جميعاً!».

لماذا يهربون من العري، لماذا سيُجنون لو فعلت! هل يخاف الناس كل شخصٍ يفجؤهم بحقيقتهم! ماذا لو خلعت أستاري حقاً وأخذت أجري وراءهم وهم يتفرقون هنا وهناك بذعر ويصرخون «مجنون.. مجنون» وأنا أصيح من خلفهم إني مثلكم لكن بدون أغطية.. وأنتم كلكم هكذا مثلي الآن في حقيقتكم، هيا اخلعوا ملابسكم وانظروا إلى أجسادكم، كما أنا الآن عارٍ تماماً، تعالوا.. تعالوا.. توقفوا أرجوكم!

الناس مساكين حقاً، لا يمكنهم أن يعيشوا دون لبس، دون ثياب متنوعة ومتعددة الألوان. يتعلمون ستر أجسادهم، ثم يحترفون ستر حقائق نفوسهم، ويوغلون في الكذب بإيغالهم في الأقمشة والأزياء، وبالطبع سيكون الصادق مخيفاً ومرعباً ومثيراً للاشمئزاز تماماً كما ذلكم العريان، يا للصدق من فكرة سخيفة، إنها أن يكون الإنسان مجرداً من كل شيء سوى الإنسان ذاته..

ومع ارتطامة هذه العلبة بظهري رماها أحدهم، وصرخة آخر «يا حمار» فليس من الضروري أن أثير الرعب في المدينة بخلع ثوبي وقميصي وسروالي. إنهم مرعوبون ومستلبون وضائعون ومزيفون وغائبون عن الوعي. يمكن كسرهم بمجرد جلسة غريبة على سقف سيارة في مكانٍ عام.. وهكذا صرت دونما أحد، لأنني أرفض الملابس!

ولحظةٌ عابرة..

في دولةٍ أخرى، وبليلةٍ باردة.. بأحد الفنادق، وفي الطابق

الرابع فتحت باب الشرفة بأقصى غرفتي المطلة على النهر. أخذت أنظر إلى الناس تحت، كم هم صغار، كنقاط سوداء تتحرك، وأخذت أركّز انتباهي على أحد الرؤوس وأشد إليه الدائرة السوداء التي تتحرك في حلمي وتخيفني حين كنت أعتقد بالجن وخرافاتها. تذكّرت أني كنت أتخيل وجهاً مستديراً ومتيناً وأمرد يتضخم ويتضخم حتى يتصدع قلبه خوفاً!

أووه.. أنا فوق، وبإمكاني أن أفهم كيف ينصرف الناس إلى كل ما فوقهم.. لمجرد أنه فوق حتى لو كان وهماً أو شبحاً، أو حتى غراباً.. لماذا يستاء الناس من الغراب، أنا أحب الغراب كثيراً، إنه نورسٌ أسود.. نورسٌ يجاهر بقضيته!

هكذا لمعت في رأسي الفكرة: سأعتبرني نداءً من السماء وأرى كيف يفعلون.. ومن الشرفة أخذت أصرخ بأعلى صوتي: «يا من في الشارع، إني أعرفكم واحداً واحداً، أنت علي، وأنت إبراهيم، وأنت أيتها السيدة.. أنت فتحيّة، وإن فيكم من سيموت الليلة، وفيكم من ستكسر ساقه، وفيكم من سيعود إلى زوجته فيجد في سريرها قطاً حقيراً».. ثم ضحكت بجنون لأن الناس توقفوا فعلاً يتغامزون أول الأمر ويتضاحكون وينظرون بعضهم إلى بعض ساخرين ومستمتعين.. ولم يمض بعض الوقت إلا وقد أخذوا يستمعون إليّ بقلق، بل رأيت في أعين بعضهم تعلّقاً بي ويودّ لو يسألني عما ينتظرني في بيته ومتى سيموت وبماذا سيرزق!

وقبل أن أعود إلى غرفتي وأغلق الباب صحت: «أنا الشيطان ومعي العفاريت السبعة..» ولم أنتظر لأرى ما يفعلون، لقد كنت

أعرف البقية.. سمعت بعضهم يصرخ في الخارج: «يا كذّاب، يا كذّاب!».

ولحظةٌ أخرى..

أبداً لن أترك ليلة رأس السنة أن تمرّ هكذا دون أن يرقم تاريخه الخاص عليها. لقد كنت أريد أن أزيغ لدرجة فقدان الوعي، ليس احتفالاً بالعام الجديد ولا ندامةً على العام الفائت وإنما لأني وفي صميمي أرى الكون كله عبثاً عارماً، فلماذا تنتهي السنة في هذا اليوم ولماذا تبدأ أخرى غداً! ومن وضع هذا القانون وبأي حق! ولماذا يجب عليّ أن أحتفل أو أحزن أو أن تكون عندي أية طقوس!

فكرت: إذن، ولأن عبث الأزمنة يغشى البشرية لهذا الحد.. فليكن لي عبثي الخاص الذي لا شأن له بهذه الحماقة الكبرى التي يختمون عندها لحظةً ويبدؤون أخرى، تكريساً منهم لنشازٍ لا إنساني بليد!

خرجت إلى سوق غذائية واشتريت شموعاً وبعض المكسّرات والثلج وسجائر بنية اللون وقطع فحم مصنّعة وبخوراً من ذاك الذي يسمونه «المعمول».. وفي غرفتي يتماوج ضوء الشموع على سحرية الدخان الذي أنفثه من سيجارة بنية، والمبخرة هناك فوق التلفزيون توزّع رائحتها ودخانها الأدكن بشبقٍ مغرٍ جداً.. تمددت على الأرض رافعاً رجليّ على الأريكة، وأخذت أهذي بأغنياتي الريفية مرة، وببعض الآيات القرآنية مرةً أخرى، ثم أضع سبابتيّ في أذنيّ وأؤذن «حيّ على الفلاح.. حيّ على خير العمل.. أشهد

أن.. قد قامت الصلاة!».. أخيراً سحبت رجليّ من فوق المقعد.. وتلاشيت مكاني!

ولحظة..

مكتئباً أخذت جواز سفري، ولبست قميصاً وبنطلوناً وبعض الغيارات البسيطة، وانطلقت بسيارتي إلى المطار هكذا دون سابق ترتيب.. كل ما فعلته أني سألت بالهاتف عن الرحلات الدولية اليوم وحجزت على واحدة منها وطرت إلى تشرّد بعيد..

وبعد عدة أيام، عصراً في مقهى حديقة الماريوت بدولة أخرى كنت على موعد مع صديقتي التي أعرفها من زمن، وهي هناك للسياحة، جاءت مع أسرتها الحجازية المنفتحة، ولم تكن لديها أية تحفظات في أن تخبرهم بأنها على موعد معي، وأنها ستخرج برفقتي.

التقينا ثلاث مرات، لم نخرج قط من الحديقة، وفي الثالثة قالت لي إنها تريد أن نجلس معاً بعيدين عن كل أحد.. أي أن نذهب إلى غرفتي بالفندق. لم يكن بيننا سوى الصداقة، ولم يخطر ببالي أن أحرّضها باتجاه أية ممارسات، بالرغم من جمالها الغجري الذي يعجبني كثيراً.. في شرفة غرفتي جلسنا على أريكتين متقابلتين، وقد خلعت نعليها وغطاء رأسها، مستسلمةً للهواء الخفيف، ونثرت شعرها على ترداداته، وبدأت بالتدخين، وكنت أتعمد أن أريها أني لا أهتمّ لا بوجودها، ولا بجمالها.. خفضت رأسها قليلاً، ثم رفعته بسؤال:

- شوف باختصار.. ما الحب؟

- ها ها ها طلعتينا هنا عشان تسأليني عن الحب، روحي اسألي عشيقك!

- أحمد ما يفهم، قهرني بغبائه!

- وهل توجد امرأة تحب غير الأغبياء والأنذال؟

- وش قصدك؟

- لا شيء، المرأة دائماً تفتش عن ظهر مناسب للركوب عليه، والأذكياء لا ظهور لهم، الرجال الحقيقيون خلقوا من النار.. مثل الجن، وركوب النار يبدو مستحيلاً. إنكن تبحثن عن غبي لقلوبكن، وعن جنّي لتنضج على سخونة لهيبه أجسادكن.. فكل امرأة عادية وحمقاء تحلم باثنين، مع أن هناك نادرات يستطعن أن يقمن علاقات حبّ مع أذكياء الجن، وعادةً لا تستمر هذه العلاقات طويلاً لكنها تبقى أجمل ما في حياتهن!

- حسناً قل لي ما هو الحب؟

- هو الانتشاء بالذات من خلال آخر، أن تسكري بنفسك من خلال رجل.. أكثر رجل يحقق لك النشوة بما لا تفهمينه في داخلك.. ستقعين في أسره، لأن الحب أوقع حالات الحاجة، لكننا نحبه، ويجب أن نعيشه، هل فهمت؟ هل يكفي هذا؟

- هل أحببت؟

- أحب امرأة مزاجها مزاج حمير..

- لماذا؟

- تركب رأسها مثل الحمار كل عشرة أيام مرتين، وهذا الذي يعجبني فيها ما دام لا يمسّ الحب ذاته!

- لماذا تحبّ وأنت بكل هذا العبث والفوضى والجنون.. ما

حاجتك إلى الحب، تستطيع أن تعيش كل لذاتك الروحية والجسدية يوماً بيوم؟

– لأنني أحتاج إلى التعرف إلى حاجاتي الغامضة التي لا أفهمها. الحب الموجه لامرأة حقيقية يجعلني أرى ما لم أكن أراه في نفسي كرجل!

– ماذا ترى؟

– أرى ما لم أكن أفهمه في داخلي، بل ربما ما لم أكن أعرف أنه موجود!

– ما هو.. اشرح لي، ألا تقول إني عادية؟!

– لماذا تحبين فلاناً دون فلان.. ببساطة لأن هذا الفلان يوقد الكهرباء في زوايا لم تكن مضيئة من ذي قبل وأنت بحاجة إلى النور..

– كيف؟

– كل من يقول إنه يحب الآخر لأجله تماماً فهو دجال.. تماماً كأي قديس، وكل من يقول إنه يحب الآخرين لأجل ذواتهم تماماً فهو سافل. الأمر ببساطة أن هناك مساحة ضخمة داخل الإنسان اسمها اللاوعي. اللاوعي هذه الخرافة الجديدة.. هل أقول شيئاً؟

– طبعاً

– هاتي سيجارة أولاً..

– (مبتسمة) خذ ولو أني أعرف أنك لا تدخن!

– هناك ما أمكنك التعرف إليه من تركيبتك، أي من النظام المشغل لك، أي من عقلك الباطن. لقد تمكنت من التعرف إلى

عدد من ملفات التشغيل، مثلاً: عرفت أنك تميلين إلى قصة الكاريلي لأن شخصية كرتونية سكنت داخلك في الطفولة!

– من كاريلي؟

– أو لأنك رأيت مرة عن طريق المصادفة هذه التسريحة بلا وعيك..

– آه، فهمت.. هاهاهاها

– لا أعرف، ما أعرفه أن تسريحتك اسمها كاريلي.

– كايرلي

– ليكن اسمها «الزفت»، المهم أنك استطعت أن تفكي إحدى شفراتك الداخلية.

– إيوه

– هناك ما ارتكز في لا وعيك البارحة وأنت لا تعرفين ما هو.. ربما صورة، كلمة، خيال، رائحة، وفي لحظة ما يمكن أن يحدث وتتحرك.. تتفاعل كيميائياً وتطفو على سطحك كسلوك!

– نعم..

– كل من يحقق لك أكبر مساحة ممكنة من هذه الكيمياء.. فهو مشروع حبيب، عشيق، يعني أن كل من يحقق لك هذه الكيمياء مع ما لا تعرفينه في لا وعيك.. سيكون الحبيب!

– نعم..

– وعندي أنه لا يوجد حب واحد!

– نعم..

– يوجد حب أكبر من البقية، لا توجد شهوة واحدة، توجد شهوة أكثر إثارة من البقية، لا يوجد أحمد كشخص يتيم داخلك،

لكن ربما يكون هو الأكثر حضوراً في كيميائك الآن، ربما يتجاوزه آخر بعد نصف ساعة. . وهكذا!

بالمناسبة هذا الكلام حصرياً لي. . هذه الأكاذيب تخصني وحدي، وهي مجموع تجارب وقراءات ولا تعتقدي أني ماركسي أو شيوعي فأوصاف كهذه تصيبني بالقيء!

- ها ها. . صحيح

وضعت رجليها على الأريكة، وجلست على الطريقة العربية. . قالت:

- إذن تتقاطع الشخصية مع تلك التفاعلات فتثيرها؟

- أنت لا تحبين أحمد وحده، لكنك تحبينه أكثر من البقية. . هذا يعني: أن هناك من يتقاطع مع لاوعيك. . فتحبينهم باعتبار هذا الشعور حاجة، ولأن أحمد أكثرهم تقاطعاً مع لاوعيك فإنك تحبينه أكثر من البقية، وشعورك بالحاجة إليه أشد، وحين تنتهي حاجتك إليه يصبح شخصاً عادياً!

- يعجبني هذا التحليل بل يناسبني جداً. .

- هذا ما يسمّيه الناس انتهاء الحب. . حماقة!

- نعم. .

- حين تشبعين حاجتك من أحمد ستبحثين فعلياً عن شخص يمثل دوراً جديداً في دراما حاجاتك. . وهو سيفعل الأمر ذاته. . ليقول كلٌّ منكما للآخر إنه قد أغرم بشخص جديد وإن عليه الرحيل، تفعلان هذا حتى لا تشعرا بعقدة الذنب ولا تأنيب الضمير!

- أنا لست خائفة من هذه المرحلة ولا تمثل لي تابو. . كما أني غير متحفظة بخصوص تعدد العلاقات ما دام الأمر سيحفظ لي أحمد. .

- شخصياً، أعرف أنك تميلين نحوي برغباتك، وحتى تبقي لأحمد منزلته العليا فإنك تسمّين شعورك تجاهي باسم آخر. . وهذا لا يزعجني، لأنه شأنك وحدك!

- بصدق أنا أحبك وأحب أحمد. . إلا أنني لم أتخيل أني أنام معك.

- هذا أفضل، والأفضل أن تحتفظي بأحمدك، هو خيرٌ لك مني لأنني لا أتورع عن صفع الغباوة!

- لا تستهزئ أرجوك!

- يقيني أن الاستقلال هو قداسة الحاجة، لن أشعر بلذة حاجتي إلى أحد ولن يشعر هذا الأحد بلذة حاجته إليّ إذا لم نكن مستقلين!

- يس، بازاك قال إن الحرية حاجة. .

- لا أعرف فريديرك ولا بازاك، ولا أريد معرفتهما. .

- هاهاهاها. . فعلاً، أنا أدعم موقفي معك حتى لا يظهر وكأنه تدليس!

٣٢

اعترافات وأشياء..

* آمنت أن الإجابات من أشكال الموت. إنها قتلٌ متعمّد، ولو أن البشر لا يؤمنون بالإجابات التي يعتقدونها ما قتل أحدٌ أحداً!

إذن حتى لا تحيق بي لعنة الإجابة، وحتى أبقي جزءاً من حياة السؤال سأقول إن ما أعيشه الآن وإن يكن جزءاً من توصيفٍ لما أنتجه ما مضى.. إلا أنه أيضاً جزءٌ من سؤالٍ يتشكل فيما سيأتي، فلديّ ما يشبه اليقين أنه ما زال لي في هذا العمر ثلثان كاملان!

* لن أقول إنني الآن مجردٌ تماماً من الأغلال، فهذه كذبة لا يقل ضررها عن التورط في الأغلال جميعها، لكنني سأقول إني لا أشعر بشيءٍ يمكنه أن يشاركني في رغبتي وقراري وأنا أعيه تماماً، أما ما لا أعيه فيتدخل ما شاء فهو، وهو فقط من يمنح الأشياء وهمها،الذي ننعم به!

* ربما حملتني الحكاية إلى الكتابة، إلى الضجيج، وما زلت حتى اليوم إذا نشر لي مقال أشتري من الصحيفة نسختين حتى إذا حان الليل فتحت الصفحة على اسمي.. ووجهت القنديل من

المسمار إلى اسمي، ثم آخذ في النظر إليه.. وبعد وقتٍ أبصق على مقالتي بإحدى النسخ وأشتمني شتائم مقذعة، ثم أمزق الصحيفة كاملةً، ثم أعمد إلى النسخة الأخرى فأرشّ على مقالتي عطراً خاصاً وأحملها على رأسي إلى حيث أضعها في تلكم الخزانة!

أن يجد شابٌ فرصةً للكتابة في رأي صحيفة كالوطن، فهذه بوابةٌ كبيرة ليجد من خلالها مآرب نشواته وهوس السعوديين بالشهرة، سيحافظ عليه بكل شكلٍ ممكن، وسيحاول أن يكتب ما يجعل هذا المكان مسجلاً باسمه أطول فترةٍ ممكنة، وسيحرص على الحضور الدائم.. ليقول حتى لباعة البطيخ والفحم إنه كاتب في جريدة الوطن، لكن هذا ما لم يحدث معي. لقد كنت وما زلت أمتنع عن الكتابة الدائمة، بل إنني لا أكتب إلا مقالاً في الشهر، وأحياناً في الشهرين والثلاثة، وكنت وما زلت أشعر بالعار تجاه التوصيف بالكاتب، ولم أكن لأحرص على مساحتي بحال، بل سأعترف دوماً أنني تغيرت إلى شخصية مستفزة جداً، ولا يملك قدراتي في الاستثارة وتهييج الناس إلا ذوو السنين الطويلة في ميادين المعارك والقتال والحروب، إنني مسعر حربٍ حين أشاء!

الاستفزاز والإرباك أحد فنوني التي أستدعيها للضحك الطويل، وللانتشاء بالجنون قدر ما يمكن، فحين يهاتفني محرر في الجريدة ليخبرني أن الهاتف لم يهدأ من اللاعنين والمحتسبين فإنني أخرج فوراً لشراء شريط بلايستيشن جديد احتفالاً بالحدث!

* يبهجني أن يسيء الناس فهمي عن عمدٍ أو غير عمد،

ويبهجني أكثر حين يكتشفون أن ذلك لا يساوي عندي أكثر من الاستمتاع بي من خلالهم، والغبي عندي بعينه هو ذلك الذي لا يتمكن من إثارة سوء فهم الآخرين له!

أحب أن يولد من وجودي ومن كلامي ومن كتاباتي ومن تصرفاتي أكبر عدد ممكن من الأسئلة لمحاولة الفهم.. وفي ذلك اليوم الذي سيتفق فيه الجميع على فهم شيءٍ ما يخصني سيكون أحقر يوم!

هذه السنة الثالثة من الكتابة المتقطعة هنا وهناك، ولم أكن بها أمثل فكر أحد، ولا أدافع عن تيار، ولا يعنيني من كل هذا سوى أن أكتب، أن أقول كلمتي وأمضي، وفي اللحظة التي سأحمل فيها همّ إصلاح العالم فلتتأكدوا أنني صرت مزيفاً. لقد منحت هذا الدور، وهذا الشرف لمن يجيدون التجارة وفنون اللعب بحبال الأكاذيب، والمشي بنزواتهم وغرائزهم على مصائر الناس!

لقد تبت من المشي في خنادق حروبٍ رخيصةٍ كهذه. إنني في خندقي ودونه ودون الذود عنه أرحب بالموت!

* إن على كلّ من أراد أن يعيش فارساً، ويموت واقفاً أن يضيّع أقنعته، أن يعيش بدونها ما أمكنه إلى ذلك من سبيل، فهذه شفرة الإنسان الوحيدة، أن يكون المرء ذاته، دون أية إضافات أو إكسسوارات غبية، أو هيئات دجالة..

لست أعني بهذا رعاعية الصدق، فأنا أعتبر الصدق في هذا الإطار أنه الكذبة الأبعد مسافة والأخطر درامية، والتي ستكون حالة الإحباط فيها هي حالة الوفاة، إنني أعني أن نفتش عن أقنعتنا ونرمي بها تحت أقدامنا، وليكن بعد ذلك ما يكون!

الموغلون في عمق ذواتهم وحدهم من يملكون القدرة على تسجيل بصمةٍ خاصة، تصبح للحظةٍ معبداً يتجمهر الناس حوله ويأتون بقرابينهم إليه، ويضبطون تفاصيل حياتهم على تعرجاته وشكله.. تصير هذه البصمة بعد كيميائية زمنٍ ما عسفاً لواحدةٍ من أهم أوراق تاريخ البشر.. ثمة من مكث أربعين سنةً يغوص إلى عمقه الشخصي، يفتش عن كل ما يتمّ بصمته.. السفر، تعلّم علوم الأولين، السؤال، رفض سائد قومه، روحانياته الخاصة، الليالي ذوات العدد في حراء.. إلخ، ومن كل هذا البحث الدقيق عن ذاتيته ونفسه ووجدانه وعقله وقيمته ارتسمت أخيراً بصمته وصار حينئذ مهيأً ليغير تاريخاً كاملاً، ما زالت الملايين في هذا العالم ترتب حياتها على ضوء حياته. إذاً فعلى الإنسان أن يكتنــز بطاقته أولاً حتى يتمكن من الإشعاع.. الإشعاع الذي ينفث ضوءه في عروق الزمن!

هذا ما فعلته وأفعله مع فرقٍ بسيط، هو أنني لا أريد إصلاح البشرية، ولا أحب أن أكون مهوىً لأحد ولا نسقاً لآخر، ولا تراودني شهوة احتفاء الجماهير أكثر من شهوة إغلاق باب غرفتي عليّ ثم التعرّي من كل ستر، التعري حتى من الضوء إلا قنديلي الخاص والقديم. كل هذا لأغني بي ولي وعليّ برفقة بعض الطقوس.. مثل أن أركز في جدار الغرفة مسماراً وأسلط ضوءاً خافتاً عليه وأحرّك ظلّه في كل اتجاه.. ثم أنتصب أمامه في سهرة طويلة!

* إنني أرفض رفضاً خطيراً أن يختزل أحدٌ ما مصير إنسانٍ آخر داخل مصيره الشخصي، هذه جريمة.. ولا يمكن أن تعرّف

بغير هذه الكلمة الصغيرة، وإنني لأحب كل الذين لا يريدون تصفيراً ولا تصفيقاً.. يريدون أن يتعرفوا شيئاً فشيئاً إلى رائحة قلوبهم وعقولهم وعواطفهم.. يريدون أن يميزوا من نكهة دمائهم ليكونوا هم القطب الذي تدور الأرض تحتهم عليه!

* إنني ألعن هذه الفوضى العارمة، التي أتورط فيها كغيري من الأحياء. هذه الفوضى التي تدير شؤون هذا العالم، فأي شيء يمكن أن يخطر ببالك حين ترى جداراً ضخماً يتهاوى على رأس طفلٍ صغير، وأي شيءٍ سيخطر ببالك غير بشاعة هذه العبثية!

لا شأن لي بما يسمونه المكتوب، ولا بالسحر، والأبراج، ولا بالأرواح، ولا بالغيب كله، هي أشياء لا تعنيني، وأنا من يعنيها، أنا من يشكلها ويصممها على الشكل الذي أقرره ويطيب لي، مقتنعاً بمعادلات الطبيعة وفوضاها وأنه لا حقيقة سوى أنه لا حقيقة!

* إنني أستعيد الزمن، وأعيش المؤجل منه.. يعني أني أكره تغطية رأسي على الطريقة الباهتة، إلا حين لا يكون منها مناص، وأحب أن أرتدي الملابس الرياضية دوماً.. مغرم أنا بالبلاي ستيشن والرسوم المتحرّكة، وأنام وبجواري لعبة ما، أو على الأقل.. أنام وقبضة يدي متشبثة بمجلة أطفال، وقد لا أكون سعيداً إلى الحد الذي بلغه الأنبياء، الذين فتحوا صدورهم لسيوف المغفلين وطعناتهم مبتسمين بمنجزاتهم، لكنني أيضاً لست شقياً إلى الحد الذي يجعلني أحمل سكيناً وأغرسها بصدر دجاجة فضلاً عن أركزها في خاصرة طفلة!

* أبكي كثيراً، ويلذّ لي هذا البكاء، الذي لا يغيب عني أكثر

من يومين، وأدمن الموسيقى والصمت والتأمل الطويل، وأحب المقاهي الشعبية، وأعشق المطارات والسهر فيها حتى لو لم أكن على سفر، وأحب المقابر المسيجة خارج المدن والجلوس بين قبورها حتى لو لم يكن هناك من ميت أزوره.. ويعجبني كثيراً أن أتداخل مع شفافية الأحياء من حولي حتى أشعر أنني أفهم ما يجول بذهن فراشة أو عصفور أو رضيعة!

* أميل إلى الأشياء المختصرة والصغيرة، وأعبر عن نفسي بمباشرة وعفوية، وأحلم بالحياة هناك، وأتخيل أن شيئاً كبيراً وجميلاً ينتظرني دائماً!

* أجتهد ألا تمتدّ يدي في حاجةٍ إلى أحد، حتى الأشياء العابرة، التي تكون في حوزة الآخرين أو في متناول أيديهم.. لا أطلب إلى أحدٍ أن يناولني الشيء الذي عند قدمه ما دمت أستطيع القيام وأخذ حاجتي بيدي!

* أحب الحياة.. الإنسان المسكين يحب الحياة لأنه يخاف الفقد، هذه هي البساطة المتناهية في الاستجابة لما خلّفته الفوبيا في داخله.. إنه لا يحب الحياة لذاتها، إنه يحبها من خلال عيشه في فوبيا نقيضها، حيث أقحمه المغررون فيها.. أما أنا فأحب الحياة لذاتها ولا أتشبث بها لأن هناك ما أخشى فقده أو حلوله. لا أعاني أية مخاوف تجاه الموت، فالموت قضية الموتى وليس قضية الأحياء.. الآن قضيتي الحياة التي أحبها من خلالها هي، من أعمق أعماقها، ومع ذلك فإن حب الحياة حتى لو كان مزيفاً، حتى لو كان في أصله خوفاً من فقد شيءٍ أو رهبةً من الإقبال على شيء إلا أنه هو ما يمكن أن يخلص المحتضرين مما هم فيه.

عرفت أنه كما أن أناساً يموتون هكذا، دون سابق إشارة، ميتة المتقاعدين عن عمل أي شيء، فتوافيهم لحظتهم الأخيرة وهم في فرشهم، أو ربما جاءتهم وهم يتابعون فيلماً وثائقياً، يموتون بكل هذا السخف لأنهم حقيقةً لم تعد لديهم أية رغبةٍ في البقاء، إنهم يمررون الوقت ويمرون به ولم يسعوا قط أن يمروا من خلاله، فكما أن هؤلاء ينتهون على هذه الشاكلة فقد سمعت عن بعض الذين يرفع الأطباء عنهم الأجهزة التي تبقيهم أحياء، يرفعونها لتتوقف أرواحهم عن الركض للراحة / للموت، ومع ذلك فإنهم لا يموتون مباشرة، بل يبقون لأوقاتٍ تثير الدهشة.. أجل، إنها ثنائيات حب الحياة / فوبيا المجهول والتعلّق بها/ الفقد. هذه هي الأيقونة القديسة في اللاوعي التي لا تتنازل عن تيار الطبيعة إلا بنزاعٍ طويل!

حب الحياة هو البوابة المخلّصة من استعمارٍ فظٍّ غليظٍ كالذي ألَمّ بي، وبالنسبة إليّ فقد كان الشعر والسؤال.. والشعر/السؤال هما من أوقدا نيران هذا الحب، زائداً بعض الصدمات النفسية التي تجلت عنها رائحة العدوان والكراهية الساكنة في خبيئاتهم، وزائداً خيبة الأمل تجاه هذا الطريق كاملاً، والفنّ الذي انبجس منه حب الحياة.. والصدمة وخيبة الأمل لم تكن قادرةً على أن تشطف العقل من أدران الآخرين، لكنها كانت الطريق الحتميّ إلى ذلك، فهي بثٌّ حصريٌّ للمنتصرين على الخوف من المجهول، والذين يعتلون الموت وفكرته بنعالهم!

* بقدر ما أعشق الدوران بسيارتي وأن أجوب بها المملكة وأن أسافر أسفاراً غير متعمّدة ولا مقصودة فإني أحب أن أمشي حافياً من

وقتٍ لآخر، بل إن أكثر ما يشدني نحو مكة هو السير على سطح الحرم حافياً.. أمشي حتى تدب الوخزات في رجليّ وساقيّ، وغير مرةٍ أوقفت سيارتي ونزلت إلى الرصيف أمشي حافياً، ليس على طريقة البوذيين والمشائين والرواقيين، بل على طريقتي، والناس يرمقونني بعيون الدهشة والاتهام بمسّ من الجنون، فلا أنتبه لهم، فقانوني اليومي أن أعيش ما أشتهي فحسب!

أحب البنايات التي لم تزل قيد التعمير، ويعجبني أن أجول داخلها بين العمال الذين يحسبونني دائماً من أقارب صاحب البناء فأبادر أحدهم وأمدّ له بخمسين ريالاً وأربت كتفه «الله يعينكم». أدخل هذه البنايات شبراً شبراً، وربما اقتربت من بنّاءٍ آخر وطلبت منه دخاناً، أو ألتقط عقب سيجارة عن الأرض وأسأل أحدهم القداحة ليشعلها.. وإذا حدث ووجدت بقيةً من إفطارهم فربما آكل، خصوصاً إذا كان من خبز «التميس» ومعه «الجبنة الحامضة» و«الطحينية» وأسكب شاياً في أحد الفناجين الملطخة بآثارهم.

لم يكن هذا يثير اشمئزازي قط. وحين أخرج من عندهم مشبعاً بذلك الجو فإني أكون في أقصى حالات انتشائي وسعادتي.. ويقيناً أني في الصيف سأحمل فراشاً بسيطاً وأصعد إلى سطح واحدةٍ من هذه البنايات لأنام هناك!

أحب الرمل والطين أيضاً، أحب الذهاب إلى الصحراء فأخلع ثوبي ونعليّ، حتى لا يبقى عليّ إلا لباسي الداخلي ثم أصعد الكثبان الرملية غارساً رجليّ في الرمل، متعمداً الغوص فيها قدر ما يمكن، مردداً شعراً أو أغاني بدوية، وإذا ما اعتليت الكثيب فإنه يعجبني أن أحثو الرمل بيديّ باتجاه السماء. أما الطين، فكثيراً ما

أرجع إلى قريتي ألمس جدران بيت أهلي الطينية وآخذ من فتاتها وأفركه بيديّ ثم أشمّه طويلاً.. لا سيما إذا ما غسله المطر وتضوّعت منه رائحةُ الزمن، فهي وحدها التي يمكن أن تكون رائحةً للزمن!

* أنتشي كثيراً بالكتابة على الجدران والأبواب، وفي بعض الأحيان يصيح بي كبار السنّ.. ينهرونني وبيدي «بخاخ اللون» أخطّ اسمي على جدار مقبرةٍ أو سورٍ مهجورٍ أو بنايةٍ بعيدة..

وبعيداً عن الأعين كتبت مرةً «نحيلٌ كخيال الخوف، ضبابيّ الشرود، واندفاعي كالمطر وغضب المراهقين!» ومرةً كتبت على سور مقبرة «هذه ليست جمهوريتي، وأنا لست رئيسها، وفي الداخل شعبي لا أعرفه»، ومرةً «حمّى نفسية هي التي تأخذ مني الكلام لتقرؤوه، وإلا فإنكم بعوض لا تستحقون!».. وأخرج عمداً من المدينة إلى الاستراحات على جوانب الطرق، فأدخل حمّاماتها لأقرأ المكتوب على الأبواب، فأعلّق أحياناً، وأحياناً أنقل بعضها إلى أوراقي، وإذا وجدت رقم هاتف فلا أتردد في رفع جوالي والاتصال من الحمّام فوراً لأقول «مرحبا، وجدت رقمك على باب الحمّام، وهذا يعجبني» وبعد أن ينتهي الآخر من شتيمتي أقفل السماعة رائقاً ومرتاحاً!

* أقنعتني فتاةٌ مزاجية قديماً بالريح، وخصوصاً حين تشتدّ لدرجة دحرجتها العلب، فصرت إذا ما هبت الرياح أصخت سمعي لأقتنص تلك الدحرجة. لا أكتفي بفتح النافذة لها لتعوي معي ولتنثر أوراقي وتلفح وجهي ببردها، والذكريات التي أحملها معي عن سجداتي تحت المطر أو بمواجهة الرياح لا حصر لها!

* أحب رائحة «التبغ» التي تفوح بها المقاهي الشعبية، وأحب البخور و«الحبق» والريحان، ولا يفوتني أن أطلب من كل شخص يشتري سيارةً جديدةً أن يسمح لي باستنشاق ما تفوح به، وقبل أيام اتجهت إلى معارض السيارات بحجة أني أريد شراء سيارة لأركبها لغاية لا يفهمونها.. وكذلك أروح في غيابٍ بعيد مع رائحة الكتب القديمة جداً، ولا أتردد في تنفّس غبارها مهما أصابني العطاس، فأقلّب الكتاب ورقةً ورقة لا أقرأ منه حرفاً وإنما أتلبّس تلك المشاعر الغريبة، ولعلّ تلطيخي يديّ بالتراب أو بالألوان يساوي عندي رحلةً حول العالم. أشعر بسفرٍ ما في داخلي.. ومرةً طلبت إلى أمّي أن تخضب يديّ ورجليّ بالحناء، فامتنعت بغضب، ثم استسلمت لإلحاحي، وبقيت أذهب إلى عملي، وأتنقل بين الناس ويداي ورجلاي مكسوّةٌ كلّها بلون الحناء ورائحته.. ولما وقعت في يدي رواية العطر لباتريك زوسكيند فهمت الكثير الكثير عن أنفي.. إنني لا أشبه غرنوي في أي شيء إلا في تفكيره وتأملاته ومزاجيته!

* لا تمرّ عليّ أيام إلا وأنتزع من رأسي عدة شعراتٍ لأحرقها وأشمّ رائحتها مغمض العينين، متلذذاً بها كما لو كانت سيجارة حشيش.. ولا يعدل حبي لهذه الرائحة إلا حبي لرائحة حقيبة أمي الحديدية القديمة، حتى صارت تضيق بي وبطلبي الدائم إليها أن تفتحها لي لأنتشي بتقليبها وبرائحتها العجائزية ذات النكهة الحنونة جداً..

* ربما أكون مريضاً بكراهية العتاب، ولا أقبل من أحدٍ أن يحاصرني أو يسألني، على سبيل انتزاع إجابةٍ مني لا أريد منحها

إياه، إنني أفضل أن أخسر ما لا يعقل دون أن يرغمني أحد على ما لا أريده.. أو حتى على ما أريده!

* أتقبّل العطاء الساذج، وأن أهب الآخرين فوق ما يريدونه مني، ولا أحتمل الاستغفال ولا الاضطرار إلى شيء، وبي من الجرأة والجنون ما يكفي للعيش عشر مرات، دون موتٍ ولا قيامة، في كل مرةٍ أسجل عمراً طويلاً ونادراً ومميزاً!

* ما هو الحب؟.. سؤال يدعو للابتسامة، للسخرية، للاهتمام، للقيء، للبكاء، للذكريات، للتعرّي، للسكر، للإغماء، للشتائم، للرقص.. لحالات لا تنتهي!

ما هو الحب؟.. سؤال قاصمٌ وبدائيٌ في اللحظة ذاتها.. يشبه سؤال الفلاسفة والأطفال عن الله ما هو؟ هل هو الوجه المبرر من وجوه الانتقام؟ هل هو الانتشاء بالذات عبر كيانٍ آخر نتشي بحاجاتنا التي لا نفهمها من خلاله! هل هو الاتحاد والحلول والكشف؟ هل وهل والكثير من هل.. ثم لا شيء أيها الإنسان سوى أن الحب هو أغنيتك التي أنتجتها أنت وحدك، ولذلك فإن الاقتحام بعينه أن يقدم أحدٌ ما تفسيره للحب في نصّ يمليه على غيره.. إنه اقتحامٌ يشبه اقتحام كل من يفرض تفسيره لله على الناس ويسوقهم إلى هذا التفسير ويجلب عليهم خيله ورجله ليقولوا إن الله حتماً هو هذا الذي يشرحه فلان!

الحب عندي يعني: هوس تركيبتي بتركيبتي ذاتها.. يمكن أن يصاب المرء بهذا الهوس مراتٍ ومرات، كلما ألفى طرفاً موصلاً الكهرباء إلى جميع زواياه، ولن يحبّ مخلوق في هذا العالم مخلوقاً آخر وهو لا يقيم حبلاً سرّياً غامضاً مع شيءٍ في داخله،

والحب الذي يتبادله اثنان يعني أن كل واحدٍ منهما مختبئ في تركيبة الآخر، وحين التقاء صارت رحلة الدهشة والانجذاب إليه هي رحلة الكهرباء من ذات الإنسان فيه إلى ذاته في الآخر. الحب هو حاجتنا إلينا في الآخرين، إنها المنفعة والحاجة السحرية، ودرءاً للوقوع في الدجل وتسويق وهمي لدى غيري أقول: إن معنى أن أحدد (عندي) في بداية الكلام هو أنني ألقي كلمتي فحسب، نتيجتي الوهمية التي تلذّ لي، وقد تكون قبيحاً عند غيري.. هذا ما لا يهم بحال!

* إنني متعصبٌ لأجل بلدي، لا أترقّب اتصالاً من مدير مكتبٍ فخم ليبلغني الشكر والتقدير، فالذي يشكر على حب كهذا يشتمني، يتهمني في ما لا يقبل التهمة عندي، إنه يقول شكراً إنك إنسان حقيقي، وسأجيبه: لست أنت الوطن لتشكرني، ولست المخول بالتعبير عن كل هذه المسافات، وأيضاً عليك ألا تعتبرني شيئاً آخر غير الإنسان تتبسم وتشكرني إذا نجحت مرةً وكنت إنساناً!

إنني أحب وطني بجنوبيتي، بعسيريّتي، برائحة أرضي وبيت أبي وأمي، أحبها بثيابي وبساتين عائلتي وبئرها، أحبها بالأغنام التي رعيتها، وبالوديان التي عبثت في مياهها، أحبها بهويتي التي فهمتها أخيراً، أحبها من هنا من قلب جبالنا في عسير!

لم أعد بحاجة إلى أية هويةٍ أخرى لأشعر بأنني جزءٌ من هذا الوطن، إنني لا أعاني أمراض الذهول بأحد، ولا آبه لأية مشاعر انتمائية أو ولائيةٍ أخرى تجاه بلادي لا تولد من جذري، إنني حين أكون صورةً من جبلي وأرضي ورائحة شجري وطعم غدراني

سأكون سعودياً حقيقياً لا يمانع أن يكنس شوارع هذه الأقاليم كلها!

كلّ من لا جذر له تجاه تربته الأولى، كل من لا مشيمة بينه وبين مهد الطبيعة لن يكون سوى متاجرٍ بورقةٍ لا تأتي إلا بالمكاسب، تلك الورقة التي اسمها الوطنية.. علينا أن نحب النقاط التي أتينا منها لنكون صادقين!

* إنني أنا، ابن شرعيٌّ لهذه الحيرة، رفضت كل التبعيات وكرهت كل من يؤذي الإنسان، وبكيت كثيراً على قتلى الإجابات الحقيرة هناك في فلسطين وهناك في أميركا، وهناك في أفغانستان، وهناك في العراق، وبكيت أكثر فأكثر على قتلاها هنا في بلدي، في السعودية، ولم أكتب حرفاً واحداً إلا لأحتجّ عليكم جميعاً كيف تقبلون هذا، ثم إذا قبلتموه فكيف تخمدون النار بالرصاص والقنابل والشرّ!

* تباً، ومليون تباً لكل الذين يرددون كلمات الله ليسرقوا بها حيوات الناس ويجيّروها لمصلحتهم مرةً ويخرجوها من حقها، ويقتلوها مرةً أخرى، وتباً لكل الذين يصطرعون على الأنبياء الطيبين.. وسحقاً، ومليون سحقاً لكل الذين يختصمون على التراب ويرفعون في وجوه بعضهم البنادق لأجل الموتى.. واللعنة، مليون لعنة على كل شيءٍ يمكن أن يسرق الإنسان من الإنسان، اللعنة عليه في أرضٍ أو في سماء. إنني متنازلٌ عن جميع الأفكار والمبادئ، التي تفرض حصاراً على الآخرين أو تضطرهم إلى ما لا يريدونه، وعلى البقية أن يتنازلوا عن أية مبادئ وأفكار تهدف إلى اختلاسي مني!

آخر ما يعنيني من أي أحدٍ هو أفكاره، وأول ما يعنيني من أي أحدٍ هو إنسانيته التي أقتسمها وإيّاه، بالرغم عنه.. وعني!

قلمت كل مخالب الموروثات فيّ، وخلعت أنياب القوة والسياسة، وقبلت أن أعيش هكذا منحازاً لمصلحة الحياة، مؤمناً بالحرية والقانون، ومؤمناً قبل كل شيء بالإنسان، ولن أحتكم إلى غيره!

* لا شيء يمكن أن توصف به قضايا البشرية كلها لمجرد الارتفاع عنها إلا أنها ساذجة وسخيفة، ولو كان ذلك الارتفاع عنها عبر ركوب المصعد الكهربائي في عمارة من عشرة طوابق فقط أو غيرها، من كل ما يسافر إلى الهلام الأعلى، لا شيء يمكن أن توصف به هذه القضايا من أماكن عالية كتلك إلا أنها فعلاً تافهة.. فكيف لو كانت هذه التشابكات على بعد ثلاثين ألف قدم إلى الأسفل.. ستكون الجبال الضخمة حينئذ مجرد علامات ترقيم غبية في هذا اللغز الكبير/الصغير.. الطبيعة!

* لأنني عضو لا اكتراثي في هذه البشرية فإني أحب العلوّ قدر ما يمكن ثم استدعاء هستيريتي حتى أبلغ الكشف، فأرفع شعر رأسي الأبيض الطويل عن وجهي، ثم أبصق بعناية.. على كل المزيفين والمزورين ومنتحلي زمنٍ في زمن!

* باتت نكهتي الخاصة هي السخرية المفرطة في اللغط والغلو واللعب والتطرف، كما أنا دوماً، مثل أن أواجه خبر وفاة قريب بلعب مباراة بلايستيشن ببرشلونة، لعيني وثنيّتي رونالدينهو المعتوه، وربما فعلت بمنتخب إنجلترا (بالقمصان الحمراء)، ليس تضامنا مع الإنجليز فأنا لا أعرفهم، لكنه انسياقٌ لتسميتهم

بالشياطين الحمر، سمعتها من فم معلق مغربي، مع انسجام خاصٍ آخر مع بيكهام وأوين!

* إلى كل السفلة الساهرين على أحلام بقاءٍ آخر، ينتظرون فيه القنان والأعشاب والأعقاب، وإلى كل المستبطنين خصوراً أو كتباً صفراء، وإلى كل الرابضين بذقونهم على لوحات المفاتيح.. إلى الموالي والرقيق والمختومين، المسومين على أردافهم كالبغال، إلى كل النفايات/القرابين، الملوية على رقابهم الضخمة حبال الأوثان والسادة: هكذا عفواً أعبّر عن فردانيّتي الفخريّة دوماً، ليس استجابةً للسائلين عني من أكون، وكيف كنت، وكيف صرت، وكيف أصير فحسب، بل أفعل لمن لم يحدثوا أنفسهم بهذا أصلاً. وللأبجدية: فإنني لا أفكر في أحد حين أكتب، ولا يحرضني أحد، ولا ثمة من أستدعيه لأعرف من أنا، أو ماذا أقول!

* إنني إعصارٌ وظيفته أن يثير الغبار أو يدمّر أو يخرق عين الطبيعة لتمطر.. إنني موجودٌ لتأجيج الحياة، فأنا كونٌ مهووسٌ بذاته، يخلق تصاريف من فيه، وليعتبرني الطمّاحون للخلاصات الجماعية، أولئك الحمقى، ليعتبروني منتفخاً أو حقيراً أو ليعتبروني جباراً ومستبداً، فأنا لم أكن لأكترث بنظرةٍ من ذي قبل، لاسيما في السنتين الأخيرتين، لأنني أعاني كبرياء شاهقة جداً، واعتداداً بالذات أعلى وأعلى، والذي سيقول إني جميل لن يكون أكثر خيراً من الذي قال إني قبيح، فكلاهما حقيقةٌ يحدث نفسه، لا يحدثني!

* حقاً، مثيرٌ جداً حين أتذكرني تلك الأيام، مثالاً للنسك والتصوّف والدروشة، زوّاراً للمقابر، متمدداً بين اللحود، سجّاداً

في الشعاب والأودية، بكّاءً في الخلوات، هائماً حاسر الرأس تحت الأمطار.. وألف ألف حمدٍ جادٍ والله لتلك التجارب، لقد ركزت في لاوعيي تداخلاً وشفافيةً وإحساساً عالياً بالكون والآخرين!

* أبي: أيها العملاق الضخم، أيها التابو الذي لن يكسر، حشرتني بجينات النار التي لا تهدأ فيك، فلا تلمني واطمئن.. ولا يذهبنّ بك القلق بشأن ابنك. لا تكترث لهم، ولك العهد أن أكبر أكبر حتى تناديني: «أيها العملاق الضخم!»

* أمي.. تغضبين دوماً لأنني لا أجمع المال. يزعجك اقترافي لكل هذا التشرّد وهذه الأسفار! تخشين أن تموتي فأجوع وأعرى بعدك.. أليس كذلك؟ لا، فمنذ كنت أقف أمامك كمسمارٍ وأنت تدخلين يديك إلى التنور لتخرجي الخبز المعجون بالسمن والسكر وفي باطن باطني أحلف أني سأتمرّن جيداً لأدخل يديّ في التنور مثلك لأنتزع الخبز المعجون بالسمن والسكر. صدقيني لقد علمتني الحروق أكثر مما تظنين، فغني لي: «عسى ونومٍ هاني.. يدب لك دباني، دب امغنم وامضاني»..

٣٣

تلويح

حدثها: لطالما يا (. . .) جمعت أشرطة الألعاب الإليكترونية، وارتديت الفانيلات المخططة، ورسمت العاريات، وقلت إن الشبق خلق ليفضح سذاجة المجرة!

وماذا بعد!

هذا التمايل.. هذه الجذوع والنبت الأصفر والأيادي التي تلوّح، تعني أن أرواحاً خرجت توّاً وسكنت هذه الأصابع التي تشير إلى القوة، تمجدها.. وتشتمها!

وحدّث نفسه: تأملت كثيراً هذا الحطب المشتعل كيف يمكن أن يكون متعة السامرين ويكون عذاب الحريق في اللحظة ذاتها.. إنها حماقات الجبر، التي أتذكرها كلما رأيت صورتك، ولعنت كل شيء أني لم أكن، على الأقل، شعيرة دمٍ بإحدى شفتيك!

وماذا بعد!

الملاعق المهربة التي لا تتناغم مع هذا الأزرق في المعتقل، فإنها مهما كانت ثمينة فليست سوى معدنٍ، تماماً كهذه الحدائد العمودية بنافذة الباب.. كلها قضبان!

حدثها: مرةً يا (. . .) حملت النهاية ووجهتها إلى رأسي،

وأخذت أفكر: ما قيمة الشر؟ ما معنى أن يكون فقيرٌ عاشقاً لعصائر التفاح والخوخ؟ وما معنى أن يكون قدر الخوخ والتفاح بفم غول!

مرة لففت زنديّ الواحد على الآخر، وفكرت كيف أمد يدي لها، وأنا هكذا أنظر إلى وهمٍ يعجبه أن يرى المراوح تدور، فيدليها من سقفها إلى وسط هذه الجموع المحتشدة في زنزانته. كان يغرق في ضحكه، والمروحة تعصف برؤوس هذه الدمى، تتطاير كحبات الذرة حين تلامس النار!

وماذا بعد!

أدور أدور.. ترساً في معدة ديناصور!

وماذا بعد!

كم أحب وأحب كل شيء الآن، ثم أرفضه في الزمن الذي لا يجيء إلا خيالاً، كطريق قريتي الذي نسيته منذ حاولوا مسخي صندوق بريد على حائط بيت أحد الأثرياء، في هذا الحيّ المملوء بأعمدة الضوء!

وماذا بعد!

هذا المدار يا (. . .) صغير يفكر بطريقة الكبار، تمسّ الفتاة فيه بعض أخيها، مصطنعةً العفوية لتحلم بالرجل الإيطالي، والفارسية هناك تتخيل لو أن العمائم ابتكرت إحدى رقصات مايكل جاكسون نيابةً عنه.. كيف سيكون مصيرها!

حدثها: ذلك المتجر، الذي أرسلتني أمي إليه لأجيء لها ببعض المكسرات، كان الطريق إليه ومنه يساوي عمراً كاملاً، حدث فقط أني كنت أحمل طفلاً أبيض، وألملم تفاصيله إلى جنبي..

لقيني صديقي، الذي ركلت وإياه الكرة كثيراً، ليركل هذه المرة صدري، فتصيب قدمه نصفي، ونصف الطفل الأبيض. منذ تلك اللحظة، وأنا أعرف ما معنى أن نهرب إلى الوسائد البيضاء بالذات!

سألتني: لماذا لا تكره أمها، ولماذا يجب عليها أن تحبها رغم أنها قررت مصيرها لتلد تلك اللعنة!

قلت: ما معنى، يا (...)، أن تسبحي في حوض بيتكم، ورجلاك مختومتان بسخونةٍ لا نهاية له لعابثٍ ملعون.. ملعون!

وماذا بعد!

كم الأمر متشابه.. هناك الفتيات يضعن الأحمر على شفاههن ليصلن بجمالهن إلى قلوب الآخرين، وهنا يضعن السواد على أجسادهن ليصل الآخرون إلى أرحامهن. كلهن يفعلن في صمت!

وماذا بعد!

ألم تكن لعنةً أن يبتكر الإنسان الرقص!

ألم تكن لعنةً أن تكون هناك موسيقى!

أجل.. لأننا حين اخترعناها اخترعنا معها فأساً وساطوراً ومقصلة، وكلاماً للدجل!

حدثتها: مرةً سهرت في بيت ساحرٍ، لأحاول فقط أن أتحسس هل يمكن لكأس الليل أن تصير فولاذاً! كانت مجموعة من الفتيات معي.. وقلت شعراً رومانتيكياً. كان منظري كالمنقذ الكادح، وكانت إحداهن تفرك أشياءها بسبابتها!

قلت لهن: هذه هي القصة كلها، على الرجل أن يتكلم، وللمرأة أن تهرب إلى المكان الذي تظن أنها خلقت منه!

حدثتها: كان الأجدر يا (...) أن يلبسوا اللون الأحمر مع القمصان الداخلية لسبب بسيط، أنني حين سقطت من فوق بيت جارنا، وعرفت أمي بهذا قالت: أرني جروحك.. كشفت لها عن الخدوش البالغة في خارطة جسدي، وكل ما فعلته أنها شدّت أذني وشتمتني، وحذرتني من اعتلاء الجدران!

وماذا بعد!

وحدثتها: تأملت هذه الصدور كثيراً، ولم أكن مستعداً للإيمان أن المرأة تكون بهذه الخلقة لأجل آخر، ليستمتع بها رجلٌ يبعثر شهوته عليها، أو ليرضعها طفلٌ يمصّ فيتاميناتها.

العقيمة خارج المعادلة.. أكثر اكتمالاً!

حدثتها أيضاً: لا أحد يعرف، يا (...)، أن قتيلاً قال لي: «تعال إلى اليمن كثيراً» وقتل بعدها بأسبوعين، ولا أحد يعرف أن أدونيس قدّم لي سيجارة فرنسية، وتنبأ أنه سيقتل، لأنه أخذ الثالثة، ولا أحد يعرف أن فتاة اغتصبتني وأنا في العاشرة من عمري. لا أعرف ما معنى أن تركب فوقي فتاة وتتأوه. كنت أبكي، وكانت تدخل لسانها في فمي!

وماذا بعد!

حقاً.. كانت النكتة في منتهى السخرية والله.. أربع إناث رشيقات يرقصن ويرقصن، وبعد عشرين سنة تتوقف دوراتهن الشهرية، وتتوقف معها أشياء وأشياء. سيشترين بعض المصنعات ليمارسن الانتقام من الطبيعة!

حدثتها: ليلةً، يا (...)، تمنيت أن لي سيارة سوداء طويلة

جداً، لا لأقودها، بل لأزور بها العواصم العربية، كاشف الرأس والناس يصفرون لي!

وأيضاً.. حديقة خضراء رأيتها، وأنت تتكلمين البارحة، وقبل أن أنام قلت: لا شك أن الحظّ يلبس ربطة العنق الآن، وأنه يبكي مع كل أناقته تلك، لأنه عاجزٌ عن أن يلقي بأحدنا في حضن الآخر!

قال: سأحكي لك شيئاً كثيراً كثيراً، في سطر لا تحتمله سماعة هاتف، ولا يمكن أن يقال على ناصية شارع أو تحت لوحة إعلانات، يجب أن نلتقي عند شخص، وظيفته أن يبيع القهوة التركية، لأقول لك إنك تشبهين هذا السهر!

قال: لا لا.. لن أحكي لك، من يدري، ربما تنفخ الطبيعة في صدرك بإحدى هرموناتها، فتصبحين غداً شيئاً إليكترونياً مهمته أن يفتك بك.. ويفتك بي!

حدثها: هل أحكي؟

قال: في الليلة التي ولدت فيها استدعوا ساحراً، وليتهم جاؤوا بعبدالوهاب الدوكالي، ليغني مرسول الحب. استدعوا ساحراً ليسألوه عني، فقال: «سمّوه زاهي، واعلموا أنه ذو شيمة، مسلط، محروس، وسرّ»، وفي الخامسة من عمري أثبت لي أخي الأكبر كيف يمكن أن يكون هذا العالم احتمالاً فوضوياً، وفي السابعة من عمري رأيت شيخاً يضرب الطفل الشامي حتى غشي عليه، لأنه يرتدي البنطال في المدرسة القرآنية، وفي العشرين، يا (...)، تخرجت في الثانوية، وعائلي يجمع ريقه في فمه ليبصق

بوجهي، ثم أصيب هو نفسه بأزمة قلبية. كان في مدينته وأنا أشرب الشاي وآكل البسكويت المالح على شاطئ مدينة أخرى!

وماذا بعد!

أخيراً.. لو أن أخي تأخر بعض الوقت، وأنا أغرق في البئر أسفل الحي، لما كتبت شيئاً عن افتراضي: أن الحياة ليست سوى سيجارة، ويا له من تشبيه أخرق. إذاً فالحياة صغيران التقيا في فناء كبير، قالا كلاماً عابراً.. ثم مضيا!

حدثها: سأقف هنا، يا (...)، وأنا الذي لا يوقفه شيء، فعليك أن تبكي، وعليّ أن أقول شعراً، يشبه قنوات الشوتايم!

أنا أتبخّر، يا (...)، فاستنشقيني!

وليس الحفر الأخير..

وحدث نفسه بأشياء أخرى:

«سأصافح ميل جيبسون يوماً، وقبل أن تفترق يدانا سأسأله: ميل جيبسون والمسيح، أيهما يحمل آلام الآخر؟ ماذا لو كان الفيلم عن آلام ميل جيبسون، فمن أين له بمن يمثل آلامه؟.. صدقني، يا جيبسون، الفرق مجهول الحجم بين أن يبكي أو يتألم أحدٌ، وبين أن يمثل الآخرون بكاءه وآلامه!

وأيضاً يا (...) بعد عناء يوم طويل يعود الكادحون إلى فرشهم، يتمددون باتجاهٍ معاكسٍ ليُسندوا أقدامهم إلى الجدار، وكأن لبناته تقاسمهم التعب»..

قال لها ورجلاه إلى الجدار: «من يألف السير حافياً لن يكترث للماركات الإيطالية العالمية، ومن يستنشق هواء الطبيعة لن

تأتيه المكيفات المركزية بغير العطاس، ومن يخلع ثوبه الوحيد سيعرف أن العري اعترافٌ خطير!».

فرك الجدار بباطن قدمه.. «من يقول الكلمة السيئة في ثوانٍ عابرة، يلزمه العيش عمراً ليعتذر عنها، حتى إن هذه التي تسمرت عيناها على ثوب الحداد، هذا الذي ابتكرته من الزجاج، تصقله بعنايه لتصمم منه خنجراً أنيقاً ولتتراقص به على طريقة أهل الجبال، يعجبها لمعانه، ويغريها بريق الشمس على جانبيه، لكنها لن تستطيع أن تمسح به خطيئتها!».

ولحظة رفع رجليه وصارتا عموديتين. التفت إليها وهمس: «اللعنة على الوقت الخطأ.. ماذا لو لم تخلق المرايا! ماذا لو لم تخلق صفحات المياه! وماذا لو لم تخلق أعين الآخرين! لكانت الجميلة لا تستطيع أن ترى بقايا يدها على الصدغ الذي انتشى بها ولها!».

حدثها أيضاً: فرقعت أصابعي قبل أن أسجل أني مهما حييت.. فإنني أحب أن تطوف بي الأشياء وأن أطوف بها. أجول بها في شوارع مدينتي المختصرة وحيداً، أتأمل كيف تفعل ببحة صوتي في حنجرتها! كيف ستخرج فمي من أوردتها، وهل حقاً ستفرغه هكذا!

وكلما توقفت مركبتي، للضوء الأحمر، ضجّت أبواق السيارات: «ملعونةٌ كل الأحلام!».

كتب كثيراً أن الوقت الذي تصل فيه طائرة مدنيةٌ، ويفتح الباب للناس المتساوين أن يهبطوا منها فإن أول من يخرج منها

ويراه المستقبلون سيكون أكثر البشر حباً للحياة، وأكثرهم حرماناً منها!

والرجل الذي وقف بباب بيتها، وكان الزمن صباحاً، وهو يرتب شفتيه ليقبلها، انتظر حتى غلبه اليأس فمضى، وأخبرها أن يديه فركتا هذا المقود من الفجر حتى سخرت الشمس منه، وهو ينتظر خروجها.. ليعود مثل تلويحة مسافر لم يجبها أحد!!

وحدثها أيضاً أن لاعب منتخب إنجلترا، ديفيد بيكهام، حين سئل عني قال: ليتذكر هدفي الذي حملنا إلى كأس العالم، وعليه أن يعرف دوماً.. أن الخربشات، مهما تأنقت، فإنها لا تنجب غير اليافطات.. ولن تحرز هدفاً مقوّساً. ضحكت كثيراً.. وقلت: يا إلهي، فلتعطني قدمه، وأعطيه عقلي!

قال: «صدقيني يا (...) محمد عبده، وكاظم الساهر، وفيروز، وأنريكه إيغلسياس، وشانيا لم يفكروا في الكثير من المال ليغنوا بعض قصائدي، لكنهم كانوا يأملون لو أني دللتهم على الساحرة التي تحب رائحة المطر على الجدران الطينية، وتتعرّى قبل أن تعقد السحر لأحد. يأملون هذا كي يقفوا على المسرح ويعلنوا أنهم يغنون شعري.. عرفت مرةً ثلاث جميلات، وحدثتني كل واحدةٍ على انفراد أنهن أجرين اختباراً علنياً على صدورهن، أيها سيكون أجمل، فأخذن قلماً ووضعته كل واحدة منهن تحت نهديها، وحتى يكون الصدر فاتناً والنهد مشدوداً فعلى هذا القلم أن يسقط.

كانت كل واحدة تحدثني على انفراد، وبعد أن تدفع بصدرها إلى الأمام ترثي لفشل نهود صديقتها. ثلاث فتيات بستة نهود!

وثلاث فتيات ينزفن خمسة أيام ولا يستطيع الموت الوصول إليهن!

التقيت الكثير ممن يحبون أن يكونوا أول الذكور وآخر الرجال، والتقيت أكثر اللواتي يحببن أن يكن أول النساء وآخر الإناث.. وكانت الرقصات الإسبانية واللبنانية فقط هي التي تجعل الجميع يتنازل عن التشبث بدوره، ويستسلم للإيقاع فقط.. وقلت لها: إذا لعن الله جميلةً قدح برأسها التفكير!

جيسكا، القمر، هذه النجمة الفلكية العالية، كل شيء يدعوها لتكون ذات أنياب ومخالب، وكل شيء يغريها بنشوة الفتك، وهي تتمسك بمناديل أمها، وتنام بثياب بسيطة، وتصلي للرب أن يتركها وشأنها، ولأجل قوتها هذه فقد فسحت لها مكاناً له نكهة نباتاتنا الجبلية، النعناع والريحان والبرك والحبق، وطلبت إليها أن تتنفس بما يكفي لثلاثة، (أنا وهي وشيطاننا الأنيق!).

روى: الجناية التي لم يقاضها أحد: الحلم المضحك يروق القدر أكثر من أمنياتنا البسيطة، ألا نتمنى أن نمتلك شقة صغيرة وزجاجة ويسكي وأن نسهر مرة واحدة في الأسبوع دون أن يهدد متعتنا أحد، ونعيش عمراً في هذا المكان لا نملك غير متابعة قنوات الموسيقى، والرقص على أغنيات راشد الماجد!

وأيضاً فيا (...) علينا أن ننتظر وقتاً لنحصل على مقعد في طائرة محتملة الوقوع، وهناك تركب خيول الأثرياء وكلابهم في طائرات خاصة وربما حصلت على سجائر وموسيقى و«مساج» وبعض الحلويات أثناء الرحلة، وماذا لو ذهب أحد الشجعان إلى

سيد الطائرة الخاصة، وقال له اعتبرني أحد كلابك، فإنه لن يحصل حتى على شرف أن يكون كلباً!

سألته عن التراتيل التي ألفها للإنسان: «هل أنهيتها؟»، وأجابها: «أجل.. لكن عليّ أن أطلب قلعةً أسكنها في أصقاع كثيرة، وأن أتعرّف إلى أشخاص طيبين، عليّ أن أترك كل عناويني للأقوياء الذين لا تزعجهم تراتيلي، ليحموني من الأقوياء الذين يشعرون بالخجل مما كتبت، وسأوصي امرأة جميلة في هذا العالم أن تنحت لي تمثالاً من الرخام وتنصبه على سطح بيتها، ولتكتب عليه أراد أن يكون إنساناً، وأن يغني للإنسان فحسب!».

ابتسم.. «لا أنا أنتم، ولا أنا أولئك.. أنا هنا في هذه النقطة، هذه النقطة التي لا أمثل بها أحداً، ولا تمثل أحداً معي!».